

ليونيد أندرييف

Л. А. Андреев

ЛЕОНИД

АНДРЕЕВ

الملاك الصغير

وقصص أخرى



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان

Л. Н. Андреев

РАССКАЗЫ

На арабском языке

ليونيد نيكولايفيتش أندرييف

معرفتي بأصولي العائلية سيئة ، فان أغلب
اقاربي قد فارق الحياة ، أو انقطعت أخباره ، منذ ان
كنت صغيراً . ولكن ولعي بالنشاط الفني ، بقدر ما
تسعفني المعلومات التي استقيتها من ملاحظاتي
ينحدر من عائلة أمي . فمن هذه الجهة بالذات أجد
أكبر قدر من الموهوبين ، رغم ان موهبتهم لم تكن
ترتفع قط أعلى من المستوى المتوسط ، وغالباً
ما كانت تتخذ أشكالاً مشوهة ، بسبب تأثيرات
الحياة غير المؤاتية . ان الحب المنزه من المنفعة ،
حب الكذب والكتابة المؤذية عن الشؤون اليومية ،
ذلك الحب الذي تعاني منه العامة أحياناً في بقاعنا
النائية غالباً ما يكون جنيناً غير كامل التكوين لهذه
الموهبة الأدبية . فكانت الغنطازيا المتوهجة التي

* هذا النص هو رد ل . أندرييف على الاستطلاع الذي
وجهه اليه في عام ١٩١١ ف . فيدال الكاتب المعاصر له .
وقد نشر في مجموعة «خطوات أدبية أولى في السير
الدائمة للكاتب الروس» ، موسكو ، ١٩١١ .

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار

«رادوغا» ، ١٩٨٩

طبع في الاتحاد السوفيتي

A 4702010101-310 083-89 ISBN 5-05-002010-7
031(01)-89

لم تكن تجد لها حدوداً في ظروف الواقع الهزيل تشكل
خاصية مميزة لبعض ذوي قرباي الذين - واحب ان
اكرر - فارقوا الحياة . لقد كانوا ، في المعنى
المألوف للموهبة ، عصامين في تعليم أنفسهم ،
بعضهم احب ان يرسم واستطاع ان يرسم ، ولكنه
لم يخرج ابعد من الخيول والأتراك في طرايبش ،
وبعضهم كان يملك ميلاً الى الموسيقى ، ولكن لم
يكن يعرف آلة موسيقية غير الاكورديون البسيط .
كان المرحوم ابي ذا عقل نير ، وارادة قوية ،
وشجاعة هائلة ، ولكن لم يكن له ميل الى الابداع
الفني في اي شكل كان . ومع ذلك فقد كان يحسب
الكتب ، ويقرا كثيراً ، ويهتم بالطبيعة اعمق
الاهتمام ، ويحبها ذلك الحب الصميمي الجاري في
دمه ، دم فلاح روسي اصيل ، ومالك ارض .
ولكي اختم مسألة الوراثة اقول ان والدي
تزوجاً في وقت مبكر جداً ، وكان كلاهما معافى
وقوياً ، وكان ابي ، الى جانب ذلك ، يمتاز بقوة
جسدية هائلة . وقد توفي في المدينة ، في سن
مبكرة ، لم تتجاوز الثانية والأربعين (ميتة سريعة
بنزيف في الدماغ) بينما كان من الممكن ان يعمر
في الريف مائة عام .

بدأت القراءة وانا في سن السادسة ، وكنت
اقرا كثيراً جداً ، وكل ما يقع تحت يدي . ومنذ
سن السابعة اخذت استعير الكتب من المكتبة
العامة . ومع مرور السنين ازداد ولعي بالقراءة ،

وفي سن العاشرة - الثانية عشرة اخذت اتحسس
ذلك الشعور المعروف لقاري الأقاليم ، والذي يمكن
ان اسميه الهيام بالكتب . واعتبر قراءتي
لبيسارييف ، وبعد ذلك بقليل لكتاب تولستوي
«بماذا أو من؟» لحظة بدء موقفي الواعي من
الكتاب . كنت آنذاك في الصف الرابع او الخامس من
المدرسة ، وقد اصبحت آنذاك عالم اجتماع
وفيلسوفاً ، وعالماً طبعياً ، وكل الاختصاصات
الأخرى في آن واحد . وانغمرت في هرتمان
وشوبنهاور ، وفي ذات الوقت حفظت عن ظهر قلب
(ولا يمكن غير ذلك) نصف كتاب «معرفة الغذاء»
لموليشوت . وفي سن العشرين كنت على معرفة جيدة
بكل الأدب الروسي والأجنبي (المترجم) ، وكان
هناك كتاب ، من مثل ديكنز قراتهم عشرات المرات .
وعلى العموم كنت احب ، وما ازال احب الكتب
السميكة ، ولم اكن استعير من المكتبة العامة
غير الكتب التي لم يكن ثمن كل واحد منها يقل عن
روبل .

ولكنني لم اكن افكر في ان اصير كاتباً ، لانني
كنت اشعر ، منذ صغري تقريباً ، بميل شديد الى
الرسم . وقد رسمت كثيراً (كانت معلمتي الأولى اُمي
التي كانت تضع القلم في يدي) ولكن لم تكن آنذاك
في أريول مدارس ولا معلمون حقيقيون فاقصر الأمر
كله على هواية غير مثمرة . وكانت لدي رسوم
وصور موفقة امتدحوني عليها ، ونصحني معلمو

المدرسة ان أسافر حالاً والتحق بالأكاديمية (كان الشكل المعتاد من النصح : سافر خير من ان تجلس في آخر الصف وتوسخ المقعد . . . الخ .) ولكن غالباً ما أرسم رسوماً لا حظ لها من التوفيق ، وكانت كل رسومي تفتقر الى المدرسة ، وأحياناً ، الى المبادئ الأولية . لم اكن أحب الرسم على الطبيعة ، فأرسم دائماً من الخيال مرتكباً أحياناً أخطاء مضحكة . وأنا لحد الآن أتذكر بخجل الحصان الذي شابت المصادفة السخيفة ان يطلع من بين يديّ بثلاث قوائم . أنهيت كل شيء و«ظلمت» جنبه الشبيهين بسجق ، بينما نسيت قائمته الرابعة ، ولم تكشف نسياني المخجل الا نظرة ناقدة من شخص غيري . ولحد الآن أشعر بالكدر ، لأن السجق المظلل لم يلفت نظر أحد ، بينما ضحك الجميع من الرجل المفقودة . لقد كنت أسرح في الخيال بلا حدود . وكان لديّ اليوم ضخيم من «السحنات» مما يصل الى ثلثمائة ، وقد قضيت سنتين أو ثلاثاً في عذاب البحث عن «أرواح العفاريت» لها . والمرة الأولى التي فكرت فيها أن أصير كاتباً تعود الى سن السابعة عشرة . والى هذا العهد ترجع ملحوظة في يومياتي مميزة جداً : حددت فيها بصحة مذهشة ، وان كانت بتعابير صبيانية الطريق الأدبي الذي سلكته وما أزال أسير فيه اليوم . . . وقد تذكرت اليوميات مصادفة ، حين أصبحت كاتباً ، وعثرت على تلك الصفحة بصعوبة ، وأذهلتني الدقة والجدية

غير الصبيانية اطلاقاً لذلك التنبؤ الذي تحقق . كان مدير المدرسة ينظر الى «تأليفاتي» بعين الرعاية ، وهو أيضاً مدرس اللغة الروسية ن . ا . بيلوروسوف . الا ان تجربتي الأولى كان مبعثها الجوع أكثر من الشغف بالأدب . كنت في السنة الأولى في جامعة بطرسبورغ ، وكنت أعاني معاناة شديدة من الجوع ، ومن شدة يأسى كتبت قصة مبتذلة جداً «عن طالب جائع» . وقد أخذتها بنفسى الى مقر تحرير «نيديليا» ، فأعادوها اليّ مبتسمين . ولا أتذكر اين ضاعت . ثم كانت هناك محاولات أخرى جدية في التسلل الى الأدب : فقد أرسلت قصصاً لمجلة «سيفرني فيستنيك» والى مجلة «نيفا» ، والى ما لا أتذكر من المجلات . وكنت أتلقي من كل مكان رفضاً محقاً تماماً بشكل عام ، فقد كانت هذه كتابات سيئة . ولكن هذه الاخفاقات جعلتني وأنا على وشك التخرج من الجامعة ، أي في سن السابعة والعشرين ، اقلع التفكير بالأدب كلياً ، وأقرر بشكل جدي أن أصير محامياً . وهنا تدخلت «المصادفة» في الأمر . وبالمناسبة ، انا لا أعترف بـ«المصادفة» ، وأنا لا ألجأ الى هذا التعبير الا لغرض تسهيل عرض الموضوع . وحقيقة الأمر أن محامياً من معارفي كان يعرف محاولاتني في الكتابة ، بل وعلى معرفة مباشرة ببعض قصصني الفاشلة عرض عليّ أن أعمل مخبراً قضائياً في

جريدة «موسكوفسكي فيستنيك» . وحصلت على موافقة هيئة التحرير لهذا العمل ، وبعد حوالي شهرين انتقلت الى جريدة «كورير» التي كانت حديثة الصدور ، وبعد ذلك جرى كل شيء بيسر : في البدء ريبورتاج ، ثم ملاحظات نقدية صغيرة ، وبعدها كبيرة ، ثم مقطوعات أدبية عاطفية ، وهلمجرأ . وفي هذا المضمار لا يختلف طريقي ، كما أتصور ، عن طريق أي أديب بدأ نشاطه الأدبي في صحيفة . عملت كثيراً جداً ، ولكن كنت في عوز الى النقود ، فقد كانت الرقابة تشطب نصف ما أكتبه ، أما النصف الآخر فلم يكن كثيراً حسب أجرة السطر لذلك العهد . أتذكر أنني حصلت على قصة «الفوز الكبير» ١٨ أو ١٩ روبلاً . وكانت هيئة تحرير «كورير» تعاملني معاملة جيدة ، فكنت أحس بارتياح بالغ فيها ، وأقضي الليالي في المطبعة مع السكرتيري . د . دوفيك مسحوراً بجو المطبعة . وأنا لا أزال أحتفظ بذكرى طيبة لمحرر صحيفتنا يا . ا . فيثغن .

مثلما أعتبر قراءتي لبيساريف نقطة البدء لموقفي الواعي من الكتاب ، أعتبر نفسي مدينًا لمكسيم غوركي على إشارة اهتمامي الحقيقي بالأدب وإدراكي لأهمية رسالة الكاتب وما تنطوي عليه من مسؤولية شديدة . فهو أول من التفت التفاتاً جدياً الى أدبي (وبالذات الى أول قصة نشرت لي ، وهي «بارغاموت وغارسكا») وكتب لي ، وبعد ذلك ، وخلال سنين

عديدة ، كان يساندني مساندة لا تقدر بقيمة بنصحه النزيه دائماً ، الذكي الدقيق دائماً . وبهذا المعنى اعتبر تعارفي مع مكسيم غوركي سعادة عظمتي لشخصي وكتائب ، وإذا تحدثت عن الأشخاص الذين أثروا تأثيراً حقيقياً على مصيري ككاتب ، فليس في وسعي أن أذكر غير مكسيم غوركي وحده ، الصديق الوفي بشكل فريد للأدب وللأديب . غير أن تحفظاً معيناً في العلاقة معه ، يجعلني أحجم عن التعبير بحرارة أكثر عن شعور الامتنان وشعور الاحترام الاستثنائي العميق .

ولأحاول أن أجيب باختصار عن الأسئلة الباقية ذات الأهمية الثانوية .

كتبت قصتي الأولى «بارغاموت وغارسكا» تحت تأثير ديكنز كلياً ، وفيها آثار ملحوظة لمحاكاته . لم ألق في عملي الأدبي عقبات جدية من جانب الرقابة . وقد عانيت من بعض المضايقات بعد نشر العمل أو عرضه على المسرح .

وأول عمل نقدي ، بقدر ما أعرف ، يعود الى ١ . ا . اسماعيلوف ، فقد كان موقفه ايجابياً من قصتي «كان فيما مضى» . وبشكل عام لم تظهر مقالات نقدية عني قبل نشر المجلد الأول من أعمالي . وأنا الآن مكتف من الناحية المادية .

مصلحة في أن يلعبا في فريقين مختلفين ، واحداً ضد الآخر ، فيكونا في المصلحة الأخيرة لا من الرابعين ولا من الخاسرين . ومع أن اللعب من حيث القيمة النقدية كان تافهاً ، ولم يكن يفبراكسيا فاسيليفنا ولا أخوها بحاجة الى نقود ، إلا أنها لم تكن تفهم لذة اللعب ولا مسرته بدون ربح . كانت تضع النقود المغنومة على حدة ، في علبة ادخار ، وكانت تبدو لها أهم بكثير واثمن من المبالغ الكبيرة التي كانت ملزمة لدفعها ايجاراً لشقتها الغالية ، ولمصروفات البيت . كانوا يجتمعون في شقة بروكوبي فاسيليفيتش عند اللعب ، لأن هذه الشقة الواسعة لا يسكنها غير هذا الرجل واخته اضافة الى قط أبيض كبير كان على الدوام نائماً في مقعد ، فكان السكون الضروري للعب يسود الحجرات . كان أخو يفبراكسيا فاسيليفنا أرمـل توفيت عنه زوجته في العام الثاني من زواجه ، وبعد وفاتها قضى شهرين للعلاج في مصحة للأمراض النفسية . وكانت يفبراكسيا نفسها غير متزوجة ، وإن كانت لها علاقة غرامية مع طالب في وقت من الأوقات . ولا أحد يعرف ، وهي نفسها ربما قد نسيت ، السبب الذي منعها من الزواج بالطالب صاحبها . ولكنها في كل عام ، حين يظهر نداء لمساعدة الطلبة المعوزين ، كانت ترسل الى اللجنة ورقة من فئة المائة روبل مطوية بشكل جيد ومذيلة «من مجهولة» . كانت من حيث العمر اقرب اللاعبين الى الشباب ، فقد كانت في الثالثة والأربعين من عمرها .

في البداية ، حين تم هذا التوزيع في اللعب كان ماسلينيكوف ، وهو أكبر اللاعبين سنًا ، أكثرهم ضيقاً به . فقد كان يزعجه اضطرابه الى أن يشارك ياكوف ايفانوفيتش اللعب دائماً ، أي أن يتخلى عن الحلم في فوز كبير ساحق . وعلى العموم ، فإن أحدهما لا يصلح أن يشارك الآخر في اللعب إطلاقاً ، فقد كان ياكوف ايفانوفيتش عجوزاً صغيراً لجسم نحيل العود صموتاً دقيقاً يرتدي سترة فراك مبطنة صيفاً وشتاء . يصل دائماً في تمام الساعة الثامنة مساءً ، لا أكثر ولا أقل ، فيتناول قطعة الطباشير حالاً بأصابعه اليابسة التي يتحرك في أحداها خاتم كبير من الماس برهاوة . ولكن أفلح ما في هذا الشريك ، بالنسبة لماسلينيكوف ، هو أنه لم يلعب أبداً أكثر من أربعة ، وحتى وإن كان في يده لعب كبير مؤكد . وذات مرة ما أن بدأ ياكوف ايفانوفيتش باثنين حتى انتهى بالأس ، بعد أن أخذ كل الحصص الثلاث عشرة . ألقى ماسلينيكوف كل أوراقه على الطاولة في حنق ، فتناولها العجوز الأشيب بهدوء ، وسجل ما تعطيه الأربعة .

صاح نيقولاي ديمتروفيتش ماسلينيكوف :

- ولماذا لم تلعب للفوز الكبير ؟

- أنا لا ألعب الفوز الكبير أبداً ، - أجاب

العجوز بجفاف واردف بعظـة : - يستحيل على انسان

أن يعرف ماذا يحصل .

وهكذا لم يستطع نيقولاي ديمتروفيتش أن

يقنعه . بينما كان نيقولاي دميتروفيتش نفسه يجازف دائماً ، ولما كان الورق الرابع لا يأتيه ، فقد كان يخسر باستمرار . ولكنه لم يكن ييأس ، ويظن انه سيفلح في استرداد خسارته في نهاية اللعب . وشيئاً فشيئاً تعود الاثنان على وضعهما ، ولم يقف احدهما في طريق الآخر . فكان نيقولاي دميتروفيتش يجازف ، والعجوز يسجل الخسارة بهدوء ، ويحدد اللعب بأربعة . وبهذه الطريقة كانوا يلعبون صيفاً وشتاءً ، ربيعاً وخريفاً . ومضى العالم المتداعي يحمل بخنوع ثقل نير وجوده المقيم ، ويحمر بالدم تارة ، ويغرق بالدموع تارة أخرى مائلاً طريقه في المدى بأناث المرضى والجوع والمهائين . وكان نيقولاي دميتروفيتش يجلب معه اصداً ضعيفة من هذه الحياة الهلعة الغريبة . فقد كان يتأخر احياناً ، ويدخل حين يكون جميع اللاعبين قد جلسوا في أماكنهم من الطاولة المعدة . وقد نشرت شدة اللعب مثل مروحة وردية على قماشتها الخضراء . فكان نيقولاي دميتروفيتش المتورد الوجنتين ، الفواح بالهواء الطلق يسرع فيتخذ مكانه مقابل ياكوف ايفانوفيتش ، ويعتذر ، ويقول : - ما اكثر المتنزهين في البولفار ، يسرون بلا انقطاع . . . وكانت يفبراكسيا فاسيليفنا تعتبر نفسها ملزمة ، كمضيعة ، ان تتغافل عن غرابية اطوار

ضيوفها ، ولهذا كانت وحدها ترد ، بينما كان العجوز يصمت ، ويهين قطعاً الطباشير بدقة ، وكان اخوها يهتم باعداد الشاي . - نعم ، يمكن . فاطقس جميل . ولكن الا نبدا ؟

وكانوا يبدؤون . ويسود السكون التام الحجرة العالية السقف الممتصة للصوت بأناثها الناعم وستائرهما السمكية . وكانت الخادمة تسير على البساط الوثير بلا صوت ، موزعة اقداح الشاي القوي ، فلا يسمع غير خفيف تنورتها المنشأة ، وصرير قطعة الطباشير ، وزفرة نيقولاي دميتروفيتش ، حين كان يدفع غرامة كبيرة . وقد جرت العادة ان يصب له شاي خفيف يوضع على طاولة خاصة صغيرة ، لانه كان يحب احتساء الشاي من الصحن مع قطع التوفي لا محالة .

وفي الشتاء كان نيقولاي دميتروفيتش يعلن ان درجة الزمهرير بلغت في النهار عشر درجات تحت الصفر ، وانها الآن وصلت الى اثنتي عشرة درجة ، اما في الصيف فكان يقول :

- الآن خرجت مجموعة كبيرة من الناس الى الغابة ، ومعهم السلال . وكانت يفبراكسيا فاسيليفنا تنظر الى السماء مجاملة - كانوا في الصيف يلعبون في الشرفة ، - وتقول ، وان كانت السماء صافية ، واعالي اشجار الصنوبر مذهبة :

- يا ليت المطر لا ينزل .
أما العجوز ياكوف ايفانوفيتش فكان يوزع الورق ، ويفكر ، وهو يسحب اثنتين كوبة ، بأن نيقولاي دميتروفيتش انسان طائش لا يمكن صلاحه . وفي احدى المرات اقلق ماسلينيكوف ملاعبيه اقلاقاً شديداً . كان كلما جاء بدا حديثه بعبارة او عبارتين عن دريفوس ، واعلن متخذاً سحنة حزينة :

- احوال صاحبنا دريفوس سيئة .
او ، بالعكس ، يضحك ، ويقول بفرح ان الحكم المجحف سيلغى بالتأكيد . وبعد ذلك اخذ يجلب الجرائد ، ويقرا بعض المواضيع منها ، وكلها تدور حول دريفوس .

فكان ياكوف ايفانوفيتش يقول بجفاف :
- قراناها .

ولكن شريكه لا يسمعه ، ويقرا ما كان يبدو له ممتعاً ومهما . وذات مرة دفع الآخرين بطريقته هذه الى الجدل ، والى حافة الشجار ، لأن يفبراكسيا فاسيليفنا لم ترد أن تعترف بهذا الشكل من القضاء ، وطالبت بالافراج عن دريفوس فوراً بينما أصر ياكوف ايفانوفيتش وأخوها على أن من الضروري أولاً مراعاة بعض الشكليات ، ثم الافراج عنه بعد ذلك . وكان ياكوف ايفانوفيتش أول من تنبه ، وقال مشيراً ، الى الطاولة :

- ولكن ، أما حان الوقت ؟

وجلسوا يلعبون ، وبعد ذلك راحوا يرددون على نيقولاي دميتروفيتش بالصمت ، مهما تحدث عن دريفوس .

وهكذا ظلوا يلعبون صيفاً وشتاءً ، ربيعاً وخريفاً . وكانت في بعض الأحيان تجري أحداث ، ولكنها ذات طابع مضحك في غالبيتها . في بعض الأحيان كان يبدو وكأن شيئاً يعترى بروكوبي فاسيليفيتش فلا يتذكر ما كان ملاعبوه يقولون عما في ايديهم من اوراق اللعب فيخرج من اللعب بلا نقطة بدلاً من خمس نقاط أكيدة . وعند ذلك كان نيقولاي دميتروفيتش يضحك ضحكاً مجلجلاً ، ويبالغ في مبلغ الخسارة ، بينما كان العجوز يبتسم ويقول :

- كان الأولى بك أن تلعب أربعة ، عندها ستبقى على ما في يديك .

وكان اللاعبون جميعاً يقلقون بشكل خاص ، حين كانت يفبراكسيا فاسيليفنا تحدد رهاناً كبيراً . كانت تحمر ، وترتبك ولا تعرف أية ورقة تضع وتنظر الى أخيها الصامت وتتضرع ، بينما كان اللاعبان الآخران يشجعانها بابتسامات متلطفة ، وبتعاطف فروسي مع أنوثتها وقلة حيلتها . وعلى كل حال ، كانوا على العموم ينظرون الى اللعب بجديّة وتركيز . وقد فقد الورق في نظرهم منذ زمان كونه مادة جامدة ، فكان كل لون ، وكل ورقة منفردة فيه كياناً مستقلاً تحيا حياتها القائمة بذاتها . ومن

الألوان ما هو مستحب ومنها ما هو غير مستحب ،
 ما هو موفق وما هو تعيس الحظ . وكانت الأوراق
 تصنف الى ما لا يحصى من الأصناف ، ولم تكن هذه
 الأصناف تخضع لتحليل ، ولا لقواعد ، ولكنها
 مشروعة في الوقت ذاته وفي شرعيتها هذه كانت
 تكمن حياة الأوراق ، المستقلة عن حياة اللاعبين
 بها . كان الناس تريد وتحقق منها ما تريده ، بينما
 كانت الأوراق تفعل ما تريده وكأنما لها ارادتها ،
 وأذواقها ، ونوازعها وأهواؤها . كانت الكوبة كثيراً
 ما تطلع ليأكوف ايفانوفيتش ، بينما كانت يدا
 يفبراكسيا فاسيليفنا مملوءتين دائماً بأوراق
 البستوني ، رغم أنها لم تكن تحبها كثيراً . وكانت
 النزوات تستبد أحياناً بالأوراق ، فكان ياكوف
 ايفانوفيتش لا يعرف كيف يتخلص من البستوني ،
 بينما كانت يفبراكسيا فاسيليفنا تسر بالكوبة ،
 وتدخل في رهانات كبيرة ، وتخسر . وعندها تبدو
 الأوراق وكأنها تضحك . بينما كانت تطلع
 لنيقولاي دميتروفيتش جميع أنواع الورق
 بالتساوي ، ولكن ما من نوع واحد يبقى طويلاً ،
 وكانت جميع الأوراق تبدو وكأنها نزل فندق يأتون
 ويرحلون ، غير مكثرئين بالمكان الذي تعين عليهم
 أن يمكثوا فيه بضعة أيام . أحياناً ولعدة أمسيات
 متتالية كانت لا تأتيه غير اثنين وثلاثة في جسارة
 واستخفاف . وكان نيقولاي دميتروفيتش واثقاً من
 أنه لن يستطيع بذلك أن يكسب فوزاً كبيراً . وإن

الأوراق تعرف رغبته ، وتعاكسه عمداً لتغيظه .
 فيتظاهر بأنه غير مكترث إطلاقاً بما سيكون لديه
 من أوراق ، ويحاول أن يخفي وقتاً أطول الأوراق
 التي سحبها . ونادراً جداً ما ينجح بخداع الأوراق
 بهذه الطريقة ، فقد كانت الأوراق في العادة تفتن
 الى ذلك ، وحين كان يكشف عما في يده كانت تطل
 منها ثلاث ستات ضاحكة ، ويبتسم ملك بستوني
 بجهامة وقد جرت هذه الستات لمصاحبتهم .
 كانت يفبراكسيا فاسيليفنا أقل اللاعبين نفاذاً
 الى سر الأوراق الخفي . وكان العجوز ياكوف
 ايفانوفيتش قد كَوّن منذ زمن بعيد فكرة فلسفية
 خالصة ، فلم يكن يندهش ولا يغتم ، وهو يمسك
 في أربعاته سلاحاً موثقاً ضد القدر . ونيقولاي
 دميتروفيتش وحده لم يكن في وسعه أن يتقبل
 أهواء الأوراق المتقلبة وسخريتها وتذبذبها . وحين
 كان يأوي الى فراشه كان يفكر كيف يحصل على
 فوز كبير بدون أن تكون في يديه أوراق رابعة ،
 وكان يتصور ذلك بسيطاً جداً وممكناً : يأتيه
 آس ، ووراءه ملك ، ثم آس مرة أخرى . ولكن
 حين كان يجلس الى اللعب مفعماً بالأمل ، كانت
 الستات اللعينة تأتيه مرة أخرى مكشرة عن أسنانها
 البيض العريضة . وكان ذلك ينطوي على شيء
 منحوس حقود . وبالتدريج صار الفوز الكبير بدون
 جوكرات أقوى رغبة في نفس نيقولاي دميتروفيتش
 بل وأمنية .

وحصلت حوادث أخرى خارج أوراق اللعب .
 مات ليفبراكسيا فاسيليفنا قطها الأبيض الكبير
 مرما ، ودفن بموافقة مالك البيت ، في الحديقة
 تحت شجرة زيزفون . وبعد هذا اختفى نيقولاي
 دميتروفيتش ذات مرة لأسبوعين كاملين ، ولم
 يعرف شركاؤه في اللعب كيف يدبرون وماذا
 يضعون ، لأن لعبة «النقاط» بين ثلاثة حطمت كل
 العادات المتبعة ، وصارت مضجرة . وكان الأوراق
 نفسها وعت ذلك ، فكانت تأتي بتشكيلات غير
 مألوفة . وحين حضر نيقولاي دميتروفيتش كان خدام
 الموردان وقد اربدا ، حينما كانا من قبل متميزين
 نجدة عن شعره الأشيب المنفوش ، وصار جسمه
 كله أصغر وأوطأ قامة . أعلن نيقولاي دميتروفيتش
 أن ابنه الأكبر اعتقل لسبب ما وأرسل إلى
 بطرسبورغ . واندعش الجميع لأنهم لم يكونوا
 يعرفون أن له ابناً . ولربما كان قد تحدث عن
 ذلك ذات مرة ، ولكن الجميع نسوه . وبعد ذلك
 بوقت قصير تخلّف مرة واحدة ومن النكد أن ذلك
 كان يوم السبت حين كان اللعب يستمر أطول من
 المعتاد ، ومرة أخرى عرفوا في دهشة أنه كان
 يعاني منذ زمن طويل من داء الذبحة الصدرية ،
 وأنه تعرض يوم السبت إلى نوبة حادة من دائه .
 ولكن كل شيء عاد إلى سابق مجراه بعد ذلك ، بل
 وصار اللعب أكثر جدية ومتعة ، لأن نيقولاي
 دميتروفيتش صار أقل ميلاً للأحاديث الجانبية .

فلم يكن يسمع غير حفيف تنورة الخادمة المنشاة ،
 وانزلاق الأوراق السميكة من أيدي اللاعبين ، وهي
 تحيا حياتها الغامضة الصامتة المستقلة عن حياة
 اللاعبين بها . وكانت على عاداتها غير مكترثة
 بنيقولاي دميتروفيتش ، وأحياناً سلبية بلوم ،
 وكان في ذلك شيء منحوس جبري .

ولكن في يوم الخميس المصادف ٢٦ تشرين
 الثاني حصل تغير غريب في الأوراق . ما أن بدأ
 اللعب حتى جاءت لنيقولاي دميتروفيتش أوراق
 متسلسلة تامة فلعب وليس لخسة ، كما كان قد
 حدد ، بل لفوز صغير ، فقد تبين أن لدى ياكوف
 ايفانوفيتش آساً زائداً لم يرد أن يكشفه . وبعد
 ذلك ، ولفترة قصيرة ، ظهرت الستات ، ولكن
 سرعان ما اختفت ، وأخذت تأتيه أعلى الأوراق من
 مختلف الأشكال ، تأتي بتناوب محكم ، وكأنها
 جميعاً تريد أن ترى كيف سيسر نيقولاي
 دميتروفيتش . وأخذ يعين نيقولاي دميتروفيتش
 الرهان تلو الرهان ، والجميع مستغربون ، حتى
 يكوف ايفانوفيتش الهادي . وانتقل إلى اللاعبين
 الآخرين انفعال نيقولاي دميتروفيتش الذي كانت
 أصابعه المنتفخة بحفرها الصغيرة عند العقدة تفرق
 وتسقط الأوراق .

- ياه ، أنت محظوظ ، اليوم .

قال أخو يفبراكسيا فاسيليفنا بكآبة ، وكان
 أكثر الجميع تخوفاً من سعادة مفرطة تعقبها هزيمة

بمثل حجمها . وكانت يفبراكسيا فاسيليفنا مبتهجة
من توفيق نيقولاي دميتروفيتش أخيراً بورق جيد ،
فتقلت ثلاث مرات جانباً لدفع النحاس ، ورداً على
كلمات أخيها .

- تفو ، تفو ، تفو ! شيء اعتيادي أن تتوارد
مثل هذه الأوراق . عسى الله أن يأتي بها أكثر .

ولوقت قصير بدت الأوراق وكأنها أخذت تتردد
في مجيئها . جاءت بعض الاثنيينات مرتبكة السحنة ،
ومن جديد أخذت الآسات والملوك والملكات تتوالي
بسرعة مشددة . وكان نيقولاي دميتروفيتش لا يلحق
أن يجمع الأوراق ، ويحدد الرهان ، وقد أخطأ مرة
أو مرتين في التوزيع ، حتى اضطر أن يوزع من
جديد . وكانت كل لعباته تفلح ، رغم أن ياكوف
ايفانوفيتش كان يسكت عن الآسات التي في يده
دائماً ، وقد تحول استغرابه إلى تشكك في التحول
المفاجئ في الحظ ، فكان يتابع ما استقر عليه دون
تبديل أن لا يلعب أكثر من أربعة . وغضب نيقولاي
دميتروفيتش عليه ، واحمر ، ولهث . ولم يعد
يتروى في نزلاته ، ويحدد بجرأة رهاناً عالياً ،
واثقاً من أنه سيجد النزلة الضرورية .

وحين كشف ماسلينيوف أوراقه ، بعد أن
وزع بروكوبي فاسيليفيتش الكتيب الورق ، خفق
قلبه خفقاناً شديداً ، وهمد رأساً ، واسودت
الدنيا في عينيه حتى أنه ترتج - لقد كانت في

يديه اثنتا عشرة نقطة * : سباتي وكوبه من آس
حتى عشرة ، وآس ديناري مع ملك . فلو سحب
آس بستوني فسيكون له فوز كبير .

- اثنان بدون الورقة الرابعة ، - بادر

مسيطراً على صوته بصعوبة .

- ثلاثة ، - ردت يفبراكسيا فاسيليفنا التي

كانت شديدة الانفعال ، فقد كانت جاءتها كل أوراق

البستوني تقريباً ابتداءً من الملك .

ولبي ياكوف ايفانوفيتش بجفاف :
- أربعة كوبه .

رفع نيقولاي دميتروفيتش الرهان رأساً إلى فوز

صغير ، ولكن يفبراكسيا فاسيليفنا احتدت ولم ترد

أن تتنازل ، ورغم أنها كانت ترى أنها لا تكسب ،

فقد راهنت على الفوز الكبير بالبستوني . ففكر

نيكولاي دميتروفيتش للحظة ، ونطق ببطء ، وبشيء

من الانتصار المنطوي على فزع :

- فوز كبير بدون أوراق رابعة !

نيقولاي دميتروفيتش يلعب لفوز كبير بدون

أوراق رابعة ! الجميع في ذهول ، بل أن أخا ربة

البيت أصدر آهة تعجب :

- أهوه !

مد نيقولاي دميتروفيتش يده ليتناول ورقة ،

* مجموع عدد النقاط في اللعبة هو ثلاث عشرة
نقطة . المترجم .

ولكنه تداخل وقلب شمعة تداركتها يفبراكسيا فامسكتها ، وجلس نيقولاي دميتروفيتش ثانية منتصب الجذع وبلا حراك ، وقد وضع أوراقه على الطاولة ، وبعد ذلك نشر ذراعيه وتداعى ببطء الى الجهة اليسرى . وبسقوطه اوقع الطاولة التي كان عليها صحن صب فيه شاي ، وسحق بجسمه قائمة الطاولة حتى صرفت .

حين وصل الطبيب وجد ان نيقولاي دميتروفيتش مات بشلل القلب ، وتعزية للأحياء قال بعض الكلمات عن خلو مثل هذه الميتة من الآلام . سجنى الفقيد على أريكة تركية في نفس الغرفة التي كانوا يلعبون فيها ، وبدا ، وهو مغطى بمفرش ، ضخماً ورهيباً . وقد بقيت قدم واحدة معكوفة الطرف الى الداخل وغير مغطاة فبدت غريبة مأخوذة من انسان آخر . وقد التصقت ورقة توفي على نعل جزمته الأسود الجديد تماماً في الوسط . وعلى طاولة اللعب التي بقيت على حالها تناثرت أوراق اللاعبين مقلوبة في فوضى ، بينما بقيت أوراق نيقولاي دميتروفيتش مضمومة في ضبة رقيقة ، كما تركها .

كان ياكوف ايفانوفيتش يذرع الحجرة بخطوات قصيرة مترددة محاولاً ان يصرف بصره عن الميت ، ولا يخرج عن البساط الى أرضية الحجرة الممسوحة ، حيث كان كعباه العاليان يصدران نقرأ متقطعاً حاداً . وبعد ان مرّ بالطاولة بضع مرات توقف ، وتناول أوراق نيقولاي دميتروفيتش بحذر ، ونظر فيها ، ثم

صفها كما كانت ، ووضعها في مكانها بهدوء . ثم عاين الورقة التي جاءت له . فكانت آس بستوني ، وهي بالذات الورقة التي كان يحتاجها نيقولاي دميتروفيتش لينال أعلى النقاط ، ليحصل على فوز كبير . ذرع ياكوف ايفانوفيتش الحجرة بضع مرات آخر ، وخرج الى الحجرة المجاورة ، واحكم تزيير سترته الفراك الأبدية ، واخذ يبكي شفقة على الفقيد . اغمض عينيه ، وحاول ان يتصور وجه نيقولاي دميتروفيتش ، مثلما كان وهو حي ، حين كان يفوز ، ويضحك . وكانت الشفقة تستولي عليه بشكل خاص ، حين يتذكر استخفاف نيقولاي دميتروفيتش ، ورغبته الشديدة في ان يحصل على فوز كبير دون أوراق رابعة . ومرت في ذاكرته هذه الأمسية الأخيرة ابتداءً بالخمس الديناري التي لعبها المرحوم وانتهاءً بهذا التدفق غير الاعتيادي للأوراق الجيدة والذي كان يشي بما يرعب . وها هو نيقولاي دميتروفيتش قد فارق الحياة ، مات حين تيسر له ان يكسب فوزاً كبيراً . ولكن فكرة واحدة فظيعة في بساطتها ، هزت بدن ياكوف ايفانوفيتش النحيل ، وجعلته يقفز من مقعده . تلفت يميناً ويساراً ، وكان هذه الفكرة لم تأت من تلقاء نفسها ، بل همس بها شخص في اذنه ، وقال ياكوف ايفانوفيتش :

- ولكن هيهات ان الورقة التي جاءته هي آس ، وانه جمع في يديه أعلى النقاط ، هيهات ان يعرف انه حصل على فوز كبير ، هيهات !

وخيل لياكوف ايفانوفيتش انه قبل هذا لم يكن يفهم ما هو الموت . ولكنه الآن فهم ، وأن الذي رآه بوضوح كان على قدر كبير من اللامعقولية والفظاعة واللاجدوى من تفاديه . هيهات أن يعرف ! فلو يصرخ ياكوف ايفانوفيتش به في اذنه ، ولو بكى ويعرض الأوراق ، لما سمع نيقولاي دميتروفيتش ولما عرف لأن نيقولاي دميتروفيتش لا وجود له الآن في الدنيا . ولو كانت هناك حركة واحدة فقط ، ثانية واحدة مما يسمى بالحياة لرأى نيقولاي دميتروفيتش الآس ، وعرف انه حصل على فوز كبير ، أما الآن فإن كل شيء قد انتهى ، ولن يعرف ، وهيهات أن يعرف . - هيهات ، - قطع ياكوف ايفانوفيتش الكلمة ونطقها ببطء ، ليتأكد من أن هذه الكلمة موجودة ، ولها معنى .

وكانت هذه الكلمة موجودة ، وكان لها معنى ، ولكن هذا المعنى كان من البشاعة والمرارة الى حد أن ياكوف ايفانوفيتش انهد ثانياً على المقعد ، وانخرط يبكي بعجز حيرة على أنه لن يعرف أبداً ، وحسرة على نفسه ، وعلى الجميع لأن نفس الشيء الرهيب القاسي بشكل لا معقول سيحدث له وللجميع . وبكى ولعب بأوراقه ، واخذ يكسب الأوراق ورقة بعد الأخرى حتى جمع ثلاث عشرة ، وفكر كم سيغطي من الأوراق ، وأن نيقولاي دميتروفيتش لن يعرف بذلك . وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي تخلى فيها ياكوف ايفانوفيتش عن أربعاته ،

وكسب باسم الصداقة فوزاً كبيراً دون أن يضطر الى استخدام ورقة رابحة . دخلت يفبراكسيا فاسيليفنا الحجرة ، وقالت : - أنت هنا ، ياكوف ايفانوفيتش ، - وارتمت على مقعد قريب ، وطفقت تبكي . - يا للفظاعة ! يا للفظاعة !

كلاهما لم ينظر الى صاحبه ، وبكى بصمت ، وهما يشعران بأن في الحجرة المجاورة ميتاً بارداً ثقيلًا فاقد الحواس مسجى على أريكة . سأل ياكوف ايفانوفيتش وهو يتمخط بصوت عال وبوقار :

- هل أرسلتم من ينعاه ؟
- نعم ، ذهب أخي مع آنوشكا . ولكن كيف سيجدان شقيقه ؟ فنحن لا نعرف عنوانه .

فسأل ياكوف ايفانوفيتش بشرود :
- أليس هو في الشقة التي كان يسكنها في العام الماضي ؟

- لا ، انتقل منها . تقول آنوشكا أنه كان يستاجر غرفة الى بولفار نوفينسكي . فقال العجوز مطمئناً :

- سيجدانها عن طريق الشرطة . أظن له زوجة ؟ نظرت يفبراكسيا فاسيليفنا اليه ساهمة ، ولم تجب . وخيل اليه أن في عينيها نفس الفكرة التي طرأت على ذهنه . تمخط مرة أخرى ، وأخفى منديله

في جيب سترته المبطنة وقال متسائلاً رافعاً حاجبيه
فوق عينيه المحمرتين :

- ومن أين سنأتي باللاعب الرابع الآن ؟
ولكن يفيراكسيا فاسيليفنا لم تسمعه ، في
انشغالها باهتمامات لها طابع منزلي . وبعد صمت
قصير سألت :

- وانت ، يا ياكوف ايفانوفيتش ، اما تزال في
نفس الشقة ؟

١٨٩٩

الملاك الصغير

أحياناً كان ساشكا يود لو يتوقف عن أداء ما
يسمونه حياة : ان لا يغتسل في الصباحات بماء بارد
تطوف به قطع رقيقة من الجليد ، والا يذهب الى
المدرسة ، والا يصغي الى الشتائم تنصب عليه من
كل الناس ، والا يشقى من الألم في أسفل الظهر ،
وفي جسده كله ، حين تجبره أمه على الركوع على
ركبتيه طوال المساء . الا انه في الثالثة عشرة ، ولا
يعرف كل الوسائل التي يتوقف بها الناس عن
العيش ، حين يريدون ذلك ، فكان مضطراً الى
الاستمرار في الذهاب الى المدرسة ، والركوع على
ركبتيه ، حتى كانت الحياة تبدو له بلا نهاية ابداً .
وستمر سنة ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، وهو ما يزال
يواظب على الذهاب الى المدرسة ، والركوع على
ركبتيه . ولأنه كان يملك نفساً أبية جسوراً ، فقد
كان غير قادر على السكوت أمام الشر ، وكان ينتقم
من الحياة . ولهذا الغرض ضرب رفاقاً ، وغلظ على
الرئاسة ، ومزق كتباً مدرسية ، وكذب نهاراً كاملاً

مرة على المعلمين ، ومرة على أمه ، والشخص الوحيد الذي لم يكذب عليه ساشكا هو أبوه . أما إذا أصيب أنفه في عراك فقد كان يتعمد أن يؤذيه أكثر ، ويبكي صارخاً بلا دموع ، ولكن بصوت عال جداً يجعل الجميع يشعرون ، ويلوون وجوههم ، ويصمّون آذانهم بأصابعهم . وبعد أن يشبع من الصراخ يسكت رأساً ، ويظهر لسانه ، ويرسم في دفتر أسود الجلد رسوماً كاريكاتورية عن نفسه ، وهو يصرخ على المراقب الذي صمّ آذنيه ، وعلى المنتصر المرتجف من الفزع . وكان الدفتر كله مملوءاً برسوم كاريكاتورية ، يتكرر في أغلبها رسم امرأة بدينة قصيرة تضرب بشوبك صبيّاً نحيلاً كعود ثقاب . وقد كتب في أسفله بالحبر وبحروف كبيرة غير مستقيمة : «اعتذر ، يا جرو» والجواب : «لن أعتذر أبداً» .

وقبيل عيد الميلاد طرد ساشكا من المدرسة ، وحين أخذت أمه تضربه عضها من أصبعها . وقد أطلق ذلك له الحرية ، فكفّ عن الاغتسال في الصباح ، وركض مع الأولاد طوال النهار ، وضربهم ، ولم يخف إلا من الجوع ، لأن أمه كفت عن تقديم الطعام له كلياً ، سوى أن أباه كان يخبئ له الخبز وحبّة بطاطس . وفي هذه الظروف وجد ساشكا الحياة ممكنة .

في يوم الجمعة ، في عشية عيد الميلاد ، لعب ساشكا مع الأولاد إلى أن تفرقوا إلى بيوتهم ، واختفى آخرهم مع صريف بوابة بيته الصدئة المتجمدة . وكان المساء قد هبط ، وزحف ظلام ثلجي رمادي من الحقل

حيث كان ينتهي الزقاق المسدود . واشتعل مصباح وامض الضوء مشوب بالحمرة في مدخل مبنى أسود واطى يقف في عرض الشارع . واشتد القرس ، وحين كان ساشكا يمر بدائرة الضوء التي يشكلها المصباح كان يرى في الهواء نتفاً صغيرة جافة من الثلج تعوم في الهواء على مهل .

- أين كنت إلى منتصف الليل ، يا جرو ؟ - صاحت به أمه ، ملوحة بقبضتها ، ولكنها لم تضربه . كان كماها مطويين ليكشفها عن ذراعين بيضاوين ممتلئتين ، ونضح بقطرات العرق وجهها المسطح الخالي من الحاجبين . وحين كان ساشكا يمر بها كان يشم رائحة الفودكا المألوفة له . هرشت أمه رأسها بسبابتها السميكة ذات الأظفر القصير الوسخ ، ولأنها لم تكن تملك فسحة من الوقت لتشتمه بصقت ، وصاحت :

- احصائي ، لا أكثر !

تنشق ساشكا باحتقار ، وذهب إلى ما وراء الحاجر ، حيث كانت تتردد أنفاس أبيه أيفان سافيتش ثقيلة . كان أبوه يشعر بالبرد دائماً ، فيحاول أن يتدفأ ، وهو جالس على سطيحة الموقد الحامية ، واضعاً تحته يديه وراحتهما إلى الأسفل . همس الأب :

- ساشكا ! آل سفيتشنيكوف دعوك لحضور شجرة عيد الميلاد .

فسأل ساشكا غير مصدق :

- ربما تكذب ؟
- قسماً بالله . ان هذه المشعوذة تسكت
تعمداً في حين انها أعدت السترة .
فردد ساشكا وقد ازداد استغرابه :
- تكذب ؟

آل سفيتشنيكوف الأغنياء هؤلاء هم الذين
سجلوه في المدرسة ، وبعد طرده منها أمروه بأن
يكف عن زيارتهم . حلف أبوه بالله مرة أخرى ،
واستغرق ساشكا يفكر ، وقال لأبيه ، وهو يقفز
الى السطیحة الواطئة :

- طيب ، تنح . اخذت اكثر من مكانك ، -
وبعد ذلك اضاف : - لن اذهب الى اولئك
الشياطين . سيكون كثيراً في حقهم ، اذا زرتهم بعد
هذا ، - وخن من انفه . «ولد فاسد . هم افاضل ،
والآخرون سيئون» .

انكمش أبوه من البرد :
- آه ، ساشكا ، ساشكا ! ستلقى جزاءك .
فردد ساشكا عليه بفظاظة :

- وهل تلقيت أنت ؟ الأخرى بك ان تسكت ،
ما دمت تخاف النسوان . آه ، يا فتة !
بقي الأب صامتاً منكشاً . كان الضوء الباهت
ينفذ من خلال شقوق عريض في الأعلى ، حيث كان
الحاجز يرتفع الى ثلاثة أرباع ، ولا يصل الى السقف ،
فكانت رقعة ضوء تستقر على جبينه ، وتحت محجراً
عينييه العميقان يبدوان أسودين . حين كان ايفان

سافيتش يحتسي الفودكا كانت زوجته تخافه وتكرهه .
ولكنه حين اخذ يسعل ويبصق دماً ، ولم يعد يقوى
على شرب الفودكا اخذت تشربها هي ، وتتعود عليها
شيئاً فشيئاً . وعندها استردت حيفها من كل المساءات
التي عانتها من رجل نحيل الصدر كان يتفوه بكلمات
غير مفهومة وكان يطرد من الوظيفة على عناده
وسكره ، ويستدعي الى بيته انساناً مثله قباحاً طوال
الشعر ومتشامخين مثله . وكانت هي ، على العكس
من زوجها ، تزداد عافية كلما مضت في شرب الفودكا ،
وتصير قبضتها اكثر ثقلًا . وهي الآن تقول ما تشاء ،
وتأتي الى بيتها بمن تشاء من الرجال والنساء ، وتغني
معهم الاغاني المرحية بصوت عال . بينما كان زوجها
يرقد وراء الحاجز صموتاً منكشاً من القشعريرة
المستديسة ، يفكر في ظلم الحياة الانسانية وفظاعتها .
اما الزوجة ، فكلما تحدثت الى انسان شكت من ان
زوجها وابنها اعدى اعدائها في الدنيا . لأن كليهما
متشامخ واحصائي .

بعد ساعة قالت لساشكا امه :
- انا اقول لك يجب ان تذهب ، - وكانت
فيوكتيستا بتروفنا مع كل كلمة تضرب الطاولة
بقبضتها فكانت الاقداح المغسولة تنط عليها ، ويرن
احدها بالآخر .
- وانا اقول لك لا اذهب .

كان ساشكا يرد ببرود أعصاب ، وطرفاً شفتيه
يختلجان من الرغبة في التكشير عن أسنانه . وفي

المدرسة كانوا يسمونه «الذئب الصغير» لعادته هذه .
صرخت أمه :

- ساشبعك ضرباً ، احطملك !
- تفضلي ، حطميني !

كانت فيوكتيسا بتروفنا تعرف انها لم تعد
تقدر على ضرب ابنها الذي أخذ يعض ، واذا طردته
من البيت الى الشارع فانه سيخرج متبخرأ ، ويفضل
ان يتجمد على ان يذهب الى بيت سفيتشنيكوف ،
ولهذا لجأت الى استشارة زوجها :

- ويسمونك اباً ، وانت لا تستطيع ان تحمي
زوجتك من الاهانة .
فنادى الزوج من مطرحة :

- صحيح ، يا ساشكا ، اذهب ، لماذا تعاند ؟
ربما يعيدونك الى المدرسة . فهم ناس طيبون .

اصدر ساشكا ضحكة استهزاء مهينة . لقد كان
ابوه ، منذ زمن بعيد وقبل ان يولد ساشكا ،
معلماً لدى آل سفيتشنيكوف ، ولحد الآن يعتبرهم
اكثر الناس طيبة . في ذلك الحين كان يعمل في
دائرة احصاء الولاية ، ولم يكن يشرب شيئاً من
الخمرة . وقد انفصل عنهم بعد ان تزوج من ابنة
صاحبة الشقة التي كان يسكن فيها ، وكانت حاملاً
منه ، واخذ يشرب ، حتى انحدر الى حد ان الناس
كانوا ينتشلونه من الشارع وهو سكران ،
وياخذونه الى مركز الشرطة . ولكن آل
سفيتشنيكوف ظلوا يساعدونه بالنقود ، وكانت

فيوكتيسا بيتروفنا تعتز بهذه العلاقة وتثنى
عليهم ، رغم انها كانت تكرهمهم ، كما تكره الكتب
وكل ما له علاقة بماضي زوجها .
ومضى الأب يقول :

- وربما تجلب لي شيئاً من شجرة عيد الميلاد .
انه ماكر ، وكان ساشكا يدرك ذلك ، ويحتقر
اباه على ضعفه وكذبه ، ولكنه كان يحب بالفعل
ان يجلب شيئاً لرجل مريض بانس ، مضى عليه
وقت طويل وهو بدون تبغ جيد .

تمتم ساشكا :
- طيب ! هاتي السترة . هل خطت الأزرار ؟
انا اعرفك .

٢

كان الاولاد يجلسون في حجرة الاطفال يتحدثون
فيما بينهم ، ولم يسمح لهم بعد بالدخول الى
الصالة ، حيث نصبت شجرة عيد الميلاد . وكان
ساشكا يصغي الى اقوالهم الساذجة بتشامخ
وازدراء ، ويتلمس في جيب بنطلونه سكائزر
تكسرت فيه ، وكان قد استطاع ان يخطفها من
مكتب رب البيت . وفي تلك اللحظة تقدم منه كوليا
اصغر افراد عائلة سفيتشنيكوف ، وتوقف جامداً
يبدو عليه الاندهاش ، مقارباً بين بوزي حذائه من
الداخل ، واضعاً اصبعه على طرف شفتيه

المنتفختين . وكان هذا قد ترك قبل حوالي ستة أشهر ، وتحت الحاج ذويه ، عادت له القبيحة في وضع اصبعه في فمه . ولكنه لم يستطع ان يتخلص كلياً من هذه الحركة . كان له شعر ابيض مقصوص عند الجبين ، ونازل على كتفيه بخصلات ملتوية ، وعينان زرقاوان مندهشتان ، وكان بكل هيئته من اولئك الاولاد الذين كان ساشكا يضايقهم بشكل خاص . سأل الصبي ساشكا بلغة طفولية ظاهرة :

- انت ولد ناكر الجميل ؟ المس قالت لي ذلك . وانا لطيف .

- لا يوجد احسن منك ! - رد ساشكا ، وهو يتفحص بنظرون الصبي المخمل القصير ، والياقة بطيتها الكبيرة .

- تريد بندقية ؟ هاك !

ومد الصبي بندقية اطفال ربطت بها فليئة . نصب الذئب الصغير الزنبرك ، وصوب على انف كوليا ، الذي لم يكن يرتاب بشيء ، وسحب الزناد . اصابت الفليئة انف الصبي ، ونطت ، وتدلّت متأرجحة من الخيط . اتسعت عينا كوليا الزرقاوين اكثر ، ولاحت الدموع فيها . نقل كوليا اصبعه من شفته الى انفه المحمر . وراحت اهدابه الطويلة ترف متسارعة وهمس :

- لنيم . . ولد لنيم . . دخلت حجرة الاطفال امرأة شابة جميلة ذات

شعر مصفوف بنعومة يغطي جزءاً من اذنيها . انها اخت ربة البيت ، وهي نفس الفتاة التي كان ابو ساشكا يدرسها في وقت ما .

- هذا هو ، - قالت ، وهي تشير الى ساشكا لسيد اصلع كان يصحبها . - انحن بالتحية ، يا ساشكا ، غير لطيف ان تكون غير مهذب بهذا الشكل .

ولكن ساشكا لم ينحن بتحية لها ولا للسيد الاصلع . وكانت السيدة الجميلة لا تظن انه يعرف اشياء كثيرة . يعرف ان اياه البائس كان يحبها ، وانها تزوجت رجلاً آخر ، ورغم ان ذلك حصل بعد ان تزوج ابوه ما كان في وسع ساشكا ان يسامح في خيانة .

- دم فاسد ، - وتنهدت صوفيا دميتروفنا . - الا تقدر ، يا بلاتون ميخائيلوفيتش ، ان تلحقه

بعمل ؟ زوجي يقول ان العمل الخرفي انسب اليه من المدرسة . ساشا ، اتحب ان تشتغل بحرفة ؟

- لا احب ، - رد ساشكا باقتضاب ، وقد سمعها تنطق بكلمة «زوجي» .

سأل السيد :

- طيب ، يا اخ ، وهل تريد ان تشتغل راعياً ؟

قال ساشكا بتكدر :

- لا ، لا اريد ان اكون راعياً .

- اذن ، اي عمل ؟

ولم يكن ساشكا يعرف أي عمل يهوى . وبعد
أن فكر قليلاً أجاب :

- لا فرق عندي . حتى ولو راع .
تفحص السيد الأصلح الصبي الغريب بحيرة .
وحين نقل بصره من جزمته المرفعة الى وجهه ،
أخرج ساشكا لسانه ، وثم أخفاه بسرعة حتى أن
صوفيا دميتروفنا لم تلاحظ شيئاً ، وبدأت على السيد
الكهل حالة انزعاج لم تفهمها .

قال ساشكا بتواضع :

- وأحب أن اشتغل بحرفة أيضاً .
فرحت السيدة الجميلة ، وتنهدت ، بعد أن
فكرت في مقدار ما للحب القديم من سلطان على
الناس .

- ولكن لا اظن يوجد شاغر . - قال السيد
الكهل بجفاف متحاشياً النظر الى ساشكا ، وممسداً
الشعر الناتئ على قفاه ، وأضاف : - على كل حال ،
سننظر في الأمر .

هاج الأطفال وضجوا في انتظارهم شجرة عيد
الميلاد بنفاد صبر . ووجدت تجربة ساشكا مع
البندقية من يقلدها ، وأحمرت بعض الأنوف
المدورة . وكان ساشكا يوحى بالاحترام لطوله
ولسمعته كصبي لا يرجى إصلاحه . وضحكت
الصبايا يتأودن بجذوعهن ، وأيديهن على صدورهن ،
وهن يرين فرسانهن يتلقون ضربات الفليينة في
استخفاف بالخوف والألم ، وأن تلوّن وجوههم

بانتظار الضربة . ولكن باب الصالة انفتح ، وصدر
صوت :

- تعالوا ، يا أولاد ! بهدوء بهدوء !

حملق الأطفال مقدماً ، حبسوا أنفاسهم ،
ودخلوا الصالة الشديدة الأضاءة اثنين اثنين وباحتشام
وداروا بهدوء حول شجرة عيد الميلاد المتلألئة .
فالقت هذه ضوءاً قوياً وبلا ظلال على وجوههم
المدورة العيون والشفاه . وللحظة ساد صمت
الانسحار العميق أعقبته على الفور هتافات جماعية
من البهجة . لم تضبط إحدى الصبايا نفسها أمام
موجة الحبور التي غمرتها فراحت تنط في مكان واحد
بصمت واندفاع . وكانت ضفيريته الصغيرة
المعقودة بشريط أزرق تضرب كتفيها . كان ساشكا
عبوساً حزيناً فقد كان يعتمل في صدره الصغير
المكلم شعور غير مريح . كانت شجرة عيد الميلاد
تبهر بصره بجمالها واللاء الصارخ الوقح لشموعها
الغفيرة ، ولكنها كانت غريبة عليه ، معادية له ،
مثل هؤلاء الأطفال النظاف الوسيمين المتزاحمين
حولها ، فكان يود لو يدفعها لتسقط على تلك
الرؤوس الوضيئة . أحس وكان يدين حديديتين
تمسكان قلبه ، وتعصره الى آخر قطرة دم فيه .
انزوى وراء البيانو ، وجلس في ركن ، وهو يكسر
في جيبه وبشكل لاشعوري السكانر الأخيرة ودار في
خلده أن له أباً وأماً وبيتاً ، ولكنه يحس وكان
كل ذلك غير موجود ، وأنه لا يعرف أين يذهب .

حاول أن يسترجع في ذهنه المطواة التي بادلها قبل مدة قصيرة ، وكان يحبها كثيراً ، ولكن المطواة صارت رديئة جداً بلسانها النحيل من الشحذ ، ومقبضها الأصفر المقطوم الى النصف . غداً سيكسر المطواة ، وعندها لن يبقى لديه شيء .

ولكن الدهشة التمعت في عيني ساشكا الضيقتين فجأة ، وعاد الى وجهه تعبيره المألوف عن الجسارة والثقة بالنفس . رأى في الجانب الذي يواجهه من شجرة عيد الميلاد ، وهو جانب أقل اضاءة من الجوانب الأخرى ، ويمثل بظائنها الداخلية ، رأى ما كان ينقص صورة حياته ، وبدونه كان كل شيء فيما حوله فارغاً وكان الذين يحيطون به بلا حياة . كان ذلك ملاكاً صغيراً من الشمع علّق باهمال في زحمة الأغصان المعتمة ، وكأنه كان يحوم في الهواء . كان جناحاه الشمعيان الشفافان يرتعشان من الضوء الساقط عليه ، وهو بكليته يبدو حياً متهيئاً للطيران . وكانت يده الورديتان بأصابعهما المصنوعة بمهارة ممدودتين الى فوق ، وقد امتد وراءهما رأس له شعر كشعر كوليا ، ولكن لوجهه شيئاً يفتقر اليه وجه كوليا وجميع الوجوه والأشياء الأخرى . لم يكن وجه الملاك يتألق بالفرح ، ولا يغيم بالحزن ، بل كان يرتسم عليه شعور آخر لا يمكن أن تصفه الكلمات ، ولا يبلوره الذهن ، ولا يظاله غيـر شعور مثله . ولم يكن ساشكا يعي تلك القوة

الخفية التي جذبتة الى هذا الملاك ، ولكنه كان يشعر بأنه كان يعرفه دائماً ، ويحبه دائماً ، يحبه أكثر من المطواة ، أكثر من أبيه ، وأكثر من جميع الأشياء الأخرى . طوى ساشكا ذراعيه على صدره مفعماً بحيرة ورهبة وغبطة غير مفهومة ، وهمس :
- أيها الملاك . . . يا ملاكي العزيز !

وكان التعبير المرتسم على الملاك الصغير يزداد دلالة وأهمية كلما أمعن ساشكا النظر فيه . كان بعيداً الى ما لا نهاية ، ولا يشبه كل ما كان يحيطه منا . كانت اللعب الأخرى تبدو وكأنها فخورة بأنها معلقة على شجرة عيد الميلاد المتلألئة هذه ، وبما عليها من حلل ، وبجمالها ، ولكن هذا الملاك كان حزيناً خائفاً من الضوء الساطع اللجوج ، يختفي متعمداً في تلك الخضرة الداكنة ، حتى لا يراه أحد . وسيكون من الغفظة الجنونية لو لمس جناحاه الرقيقان .

همس ساشكا :
- عزيزي . . . يا عزيزي !

كان رأس ساشكا يتوهج . وضع يديه وراء ظهره ، وراح يتمشى بخطى حذرة متوجسة وهو على اتم استعداد لأن يقاتل باستماتة في سبيل الملاك الصغير . لم يكن ينظر اليه ، خوفاً من أن يثير انتباه الآخرين ، ولكنه كان يحس بأن الملاك باق في مكانه ، ولم يطر . ظهرت في الباب ربة البيت ، وهي سيدة وجهه طويلة لها هالة وضاءة من الشعر

الاشيب في تصفيغة عالية . احاطها الاطفال عربين
عن شدة فرحهم . بينما تعلقت الصبيبة الصغيرة
التي كانت تنط ، تعلقت على ذراعها بتعب ، وراحت
عينها الناعستان ترفان ثقيلتين . اقترب ساشكا
ايضاً . واخذت ضجرتة تتقلص .

- عمة ، يا عمة ، - قال محاولاً ان يتكلم
برقة ، ولكن صوته خرج اغلظ من المعتاد . -
عم . . . عمة .

لم تسمع المرأة ، فجذبها ساشكا من رداها
بنفاد صبر .

- ماذا تريد ؟ لماذا تجذبني من رداي ؟ -
قالت السيدة الشيباء مندهشة . - هذا قلة ادب .
- عم . . . عمة . اعطيني حلية من شجرة عيد
الميلاد هذا الملاك الصغير .

ردت ربة البيت بعدم اكتراث :
- غير ممكن . سنفك شجرة عيد الميلاد في
راس السنة . ثم أنك لست صغيراً ، ويمكنك أن
تناديني باسمي الكامل : ماريا دميتروفنا .

شعر ساشكا بأنه يسقط في هوة ، فتشبث في
آخر وسيلة . فقال بتقطع :
- انا نادم ، وسأدرس .

ولكن هذا الرد الذي كان يؤثر تأثيراً طيباً في
المعلمين ، لم يترك أي وقع لدى السيدة الشيباء .
ردت بعدم اكترائها السابق :

- حسن ان تفعل ، يا صديقي .

قال ساشكا بغلظة :

- اعطيني الملاك الصغير .

فمضت ربة البيت تقول :

- ولكن غير ممكن ! كيف لا تفهم ذلك ؟

ولكن ساشكا لم يكن يفهم ، وحين استدارت
السيدة لتخرج تبعها ساشكا ، محدقاً في فستانها
الاسود الهفاهف ، وبرقت في ذهنه الذي اخذ يعمل
بشكل محموم كيف ان احد تلامذة صفه طلب من
المعلم ان يسجل له علامة مقبول ، وحين اجيب
بالرفض ركع امام المعلم وطوى ذراعيه واضعاً
راحة فوق راحة كما يفعل المصلّي ، وطقق يبكي .
عندئذ غضب المعلم غضباً شديداً ، ومع ذلك وضع
له العلامة التي اراد . وقد ثبت ساشكا هذه القصة
برسم كاريكاتوري في حينه . ولكنه الآن لم تبق
امامه وسيلة غير تلك . فجذب السيدة من
فستانها ، وحين استدارت ركع واصدرت ركبته
صوتا لدى اصطدامها بالأرض وطوى ذراعيه كما
فعل ذاك التلميذ . غير ان البكاء لم يطاوعه .

- جننت ! - هتفت السيدة الشيباء ، وتلفتت
فيما حولها ، ومن حسن الحظ ان الحجرة كانت
خالية . - ماذا جرى لك ؟

نظر ساشكا اليها ببغضاء ، وهو راكع مطوي
الذراعين ، وطالب بخشونة :

- هاتي الملاك !
كانت عيناه المنفرزتان في السيدة تلتقطان اول

كلمة تنطقها شفتاها ، تشيان بشيء منحوس جداً .
 فأسرعت ربة البيت تقول :
 - طيب ، سأعطيك . اوه ، كم أنت بليد ! -
 بالطبع ، سأعطيك ما تطلب ، ولكن لماذا لا تريد
 أن تنتظر حتى رأس السنة ؟ هيا انهض ! -
 وأضافت السيدة مرشدة . - لا تركع ابداً . هذه
 امانة للانسان . لا يجوز الركوع الا امام الرب .
 «ولتفسر ما تشاء» ، - فكر ساشكا وهو يحاول
 سبق السيدة ، ويدوس على فستانها .
 وحين خلعت السيدة الدمية من مكانها ، غرز
 بصره فيها ، وقلص أنفه بالم ، وباعد بين
 أصابعه . فقد بدا له أن السيدة الطويلة ستكسر
 الملاك الصغير .
 قالت السيدة وقد أسفت على الدمية الأنيفة
 الغالية ، كما يبدو :
 - جميلة . من علقها هنا ؟ طيب ، احرف .
 ما حاجتك الى هذه الدمية ؟ أنت ولد كبير ، فماذا
 ستفعل بها ؟ كان في إمكانك أن تأخذ من الكتب ذات
 الرسوم هناك . فقد وعدت كوليا بهذه الدمية ،
 فقد رجاني كثيراً ، - قالت السيدة كاذبة .
 بلغت آلام ساشكا حداً لا يطاق ، فكز على
 أسنانه بعصبية حتى لكانها أرسلت صريفاً . وكانت
 المواقف العاطفية أخشى ما تخشاه السيدة الشيباء ،
 ولهذا مدت الملاك الصغير لساشكا ببطء . وقالت
 بضيق :

- خذه ، خذه . ملحاح كبير .
 أمسك ساشكا الملاك الصغير بكلتا يديه
 اللتين بدتا متشبثتين متوترتين مثل نابضين
 فولاذيين ولكنهما رقيقتان حذرتان ، حتى لكان من
 الممكن للملاك الصغير أن يتصور نفسه طائراً في
 الهواء .

- آ ... ه !

أصدر ساشكا هذه الأنة المتصالحة حين مسه
 جناحاً الملاك الصغير . وبدأ وكأن شجرة عيد الميلاد
 المزوقة بشكل غير معقول ، والمتوهجة بوقاحة أمام
 وجهه المتألق قد خفتت من تلقاء نفسها ، وابتسمت
 السيدة الشيباء الوجيئة ابتسامة فرح ، وسرت
 اختلاجة في وجه السيد الأصلع وران صمت حي على
 الأطفال ، بعد أن هبت عليهم نسمة من السعادة
 الانسانية . وفي تلك اللحظة القصيرة فطن الجميع الى
 الشبه الغامض بين هذا التلميذ الأهوج الذي كبر
 على ردائه المدرسي ، ووجه الملاك الذي صاغته يد
 رسام مجهول ، وبثت الحياة فيه .

ولكن المشهد تغير تغيراً شديداً في اللحظة
 التالية . شمل ساشكا المحيطين به بنظرة كثيبة ،
 منكشماً كالذئب المتهيب للأنقضاض ، باحثاً عن
 يجسر على انتزاع الملاك منه . وقال بصوت كامد :
 أنا عائد الى البيت ، - وهو يشق طريقه في
 الحشد . - عائد الى أبي .

كانت أمه نائمة ، وقد أنهكها يوم كامل من العمل وشرب الفودكا . وفي الحجرة الصغيرة وراء الحاجز كان مصباح المطبخ الصغير مشتعلًا على الطاولة ، وكان ضوءه الباهت ينفذ بصعوبة من خلال الزجاج المسخمة ، ملقياً ظلالاً غريبة على وجهه ساشكا وأبيه .

سأل ساشكا همساً :

- جميل ؟

كان يمسك الملاك الصغير على بعد ، ولا يسمح لأبيه لملمسه .

همس الأب مستغرقًا في التحديق في الدمية :

- نعم ، فيها شيء مخصص .

وكان على وجهه نفسه التعبير الذي يرتسم على وجه ساشكا ، انتباه مركز ، وفرح . ومضى الأب يقول :

- انظر ، سيطير الآن .

ردّ ساشكا بمهابة :

- رايت ، وهل تظنني أعمى ؟ ولكن أنظر الى جناحيه . اياك ، لا تمس !

سحب الأب يده ، وتفحص بعينه الداكنتين تفاصيل الملاك الصغير ، حين كان ساشكا يهمس بلهجة ارشاد :

- أي عادة قبيحة لك ، يا أخ ، أن تخطف كل شيء بيديك . قد تكسره !

كان ينعكس على الجدار ظلان مشوهان جامدان لرأسين مائلين ، أحدهما كبير أشعث الشعر ، والثاني صغير ومدور . كان الرأس الكبير منهما يعمل معذب ومفرح في ذات الوقت . كانت عيناه تحدقان في الملاك لا ترفان ، فكان الملاك يصير ، تحت هذه التحديقة المتفرسة أكبر وأكثر وضاءة ، وجناحاه يأخذان بالخفقان ، ويرفرقان رفرقة بلا صوت ، وكل ما يحيط به - الجدار ذو الروافد المغطى بالسخام ، والطاولة الوسخة ، وساشكا - كل ذلك قد اندمج في كتلة واحدة رمادية ملساء لا ظل لها ولا نور . حتى يتصور الإنسان الفاني أنه كان يسمع صوتاً شاكياً من ذلك العالم العجيب الذي كان يعيش فيه في يوم ما ، وطرد منه الى الأبد . هناك ، حيث لا وجود للقذارة واسباب الجزع ، وكفاح الأنايين الهالع القظ . هناك لا وجود لعذابات انسان يلتقط من الشارع ويستنزأ به ، وتوسعه ضرباً أيدي الحراس الخشنة . هناك حيث النقاء والفرح والوضاءة ، وكل ذلك قد وجد له ملاذاً في روحها ، في روح التي أحب أكثر مما أحب حياته ، وفقدما ، وأبقى على حياته التافهة . كانت رائحة عذبة تعز على الالتقاط تندمج مع رائحة الشمع المنبعثة من الدمية ، فكان هذا الإنسان الفاني يتصور وكان أصابعها الغالية كانت تمس الملاك ، أصابعها التي كم يود لو يقبلها واحدة واحدة ، والى أن يطبق الموت شفتيه الى الأبد . وبسبب ذلك

كانت الدمية جميلة جداً ، بسبب ذلك كانت تنطوي على شيء فريد جذاب تعجز الكلمات عن وصفه . لقد نزل الملاك من السماء التي كانت روحها ، وجلب معه شعاع النور الى هذه الحجرة الرطبة المشبعة بالسخام ، والى نفس انسان سوداء ، انسان انتزع منه كل شيء : الحب ، والسعادة ، والحياة . وبالقرب من عيني هذا الانسان المودع حياته ، كانت عينا مخلوق بدأ حياته لتوه تلمعان وتحنوان على الملاك . عندهما اختفى الحاضر والمستقبل : الأب البائس الحزين أبداً ، والأم الفظة التي لا تطلق ، ودجى المساءات والفظاظات والمهانات والوحشة المنذرة بالشؤم . لقد كانت لساشكا أحلام شوها ضبابية ، ولكنها كانت تثير المزيد والمزيد من القلق في نفسه المبللة . الملاك الصغير جسد كل ما هو فاضل متلألئ فوق هذه الدنيا ، كل الشقاء العميق وأمل النفس التواق الى الرب . ولهذا السبب كان يشع نوراً الهيا ناعماً ، كان جناحاه الشفافان يرفرفان بلا صوت .

الأب والابن لا يرى أحدهما الآخر . وقلباهما العليلان لا يتشابهان فيما يتشوقان اليه ، ويبكيان عليه ، ويفرحان به الا أن في احساسهما ما يجمع بين قلبيهما ، ويطمر الهوة السحيقة التي تفصل انسان عن انسان ، وتجعله وحيداً تعيشاً ضعيفاً . وضع الأب يده بحركة لا ارادية على رقبة ابنه ، وبنفس الحركة انضغط رأس الابن على صدر الأب

المنخوب . وهمس الأب غير صارف بصره عن الملاك الصغير :

- أهى التي أعطته لك ؟

ولو كان سؤاله في غير هذا الوقت لرد ساشكا بنفي فظ ، ولكن الجواب الآن — تردد تلقائياً في حنايا نفسه ، ونطقت شفتاه في هدوء بكذبة محمودة :

- ومن غيرها ؟ هي ، بالطبع .

صمت الأب ، فسكت الابن . وصدر شخير في الحجرة المجاورة ، وقرقرة ، وعم الهدوء بلمح البصر ، وظلت الساعة تتكتك نشيطة عجلي : واحد ، اثنين ، ثلاث .

وسأل الأب بسهوم :

- ساشكا ، هل ترى الأحلام أحياناً ؟

- لا أحلم ، - أقر ساشكا - أو لا . حلمت ذات مرة بأنني سقطت من السطح . تسلفت لأمسك الحمام ، فانفلتت يدي .

- أما أنا فأحلم باستمرار . وبأحلام عجيبة أحياناً . أحلم بكل ما حصل . حب ومعاناة ، كما في اليقظة . . .

وصمت ثانية ، وشعر ساشكا بارتعاش ذراعه المطروحة على عنقه . وظل ارتعاشها يزداد وترتعص . وحكم سكون الليل الرهيف بكاء ناشج بائس مكتوم . عقد ساشكا حاجبيه عبوساً ، وأزاح من عينه دمعة بهدوء حتى لا يزعج الذراع المرتجفة

الثقيلة . لقد كان من الغريب جداً رؤية رجل كبير عجوز يبكي . نشج الأب قائلاً :

- آه ، ساشا ، ساشا ! لم كل هذا ؟

همس ساشكا بحدة :

- وما هذا أيضاً ؟ كأنك ، كأنك صغير جداً .

- لا تؤاخذني ، - اعتذر الأب بابتسامة بانسة

- طبعاً . . . ولاي شيء ؟

انقلبت فيوكتيستا بتروفنا على سريرها .

وزفرت ، ودمدمت بصوت عال غريب ملجاح :

«أمسك الخيش . . أمسك ، أمسك ، أمسك» .

وكان وقت للنوم قد حل . ولكن لا بد ان يهيا ،

قبل هذا ، مكان لنوم الملاك الصغير . كان من

المستحيل تركه على الأرض ، فشُدَّ بخيط . وعلّق

بفتحة الموقد ، فكان يزهو بوضوح على خلفيّة

القرميد البيضاء . وبهذا الشكل كان من الممكن ان

يراه ساشكا وابوه . أسرع الأب فالقى في ركن كل

الخرق التي كان ينام عليها ، وخلع ثيابه بنفس

السرعة ، واضطجع على ظهره ليبدأ بالنظر الى

الملاك الصغير بأقرب وقت .

- ولماذا لا تخلع ثيابك للنوم ؟ - سأل الأب

وهو يلف نفسه في بطانية ممزقة مقشعراً من البرد ،

معدلاً المعطف المطروح على قدميه .

- لا حاجة . سأنهض بعد قليل .

وأراد ساشكا ان يضيف أنه لا يرغب في

النوم اطلاقاً ، ولكن الوقت لم يسعفه ، لانه غفا

بسرعة ، وكأنه غطس في قاع نهر عميق سريع الجريان . وبعد قليل غفا أبوه أيضاً . وسرت سكينه وادعة وطمانينة في الوجهين : وجه منهك لرجل بدد حياته ، ووجه مقدم لانسان في مستهل العمر .

اما الملاك الصغير المعلق عند الموقد الساخن ،

فقد أخذ يذوب . وكان المصباح الذي ألح ساشكا

على اشعاله يملأ الحجرة برائحة الكيوسين ، ويلقي

من خلال زجاجته المسخمة ضوءاً شجياً على لوحة الهدم

البطيء . وبدأ وكان الملاك الصغير يتحرك . أخذت

قطرات كثيفة تتساقط من رجليه الورديتين ،

وتسقط على السطیحة . وانضمت الى رائحة

الكيوسين الرائحة الثقيلة لشمع حام . وما هو

الملاك الصغير قد أخذ يرفرف وكأنه موشك على

الطيران ، حتى سقط على القراميد الحامية سقطّة

ناعمة الصوت . ركض صرصار فضولي حول كتلة

الشمع المشوهة تلسعه الحرارة ، وصعد على الجناح

الشمعي الشبيه بجناح يعسوب ، وحرك مجساته ،

ومضى في حال سبيله .

ومن النافذة المسدلة الستارة نفذ نور مزرووق

لنهار في مستهله ، وفي الفناء أخذ السقاء المتثلج

يصلصل بمغارفه الحديدية .

١١-١٦ تشرين الثاني

١٨٩٩

على النهر

استيقظ الكسي ستيبانوفيتش الميكانيكي في طاحونة بوكوف في أعماق الليل ، اما لأنه أخذ كفايته من النوم ، فقد استغرق في النوم منذ الساعة الثامنة مساء ، واما بسبب نقرات المطر الرتيبة على السطح الحديدي ، بعد أن نسيها خلال اشهر الشتاء السبعة . كانت أطر الشتاء الاضافية قد رفعت من النوافذ ، والصوت يصدر كثيفاً واضحاً ، وكان كيساً من الحمص يدلق على حديد السطح ، وكان ثمة بقبقة ناعمة سادرة لا تكاد تنفذ من خلال هذا النقر . أشعل الكسي ستيبانوفيتش الضوء ، وألقى معطفه على كتفيه ، ونظر الى الخارج . كان الظلام حالكا فلم يستطع في اللحظة الاولى أن يرى شجرة الوزال المنتصبه عند المدخل . تكاثف نقر المطر على السطح ، ولكن البقبة اشتدت أيضاً . فادرك الكسي ستيبانوفيتش أن قطرات المطر تسقط على ماء ، واستغرب من أين جاء هذا الماء ، فان بيته يقف على رابية . أخذ

الظلام ينداح امام عينيه شيئاً فشيئاً ، ويتجمع في بقع سود تشبه انهيارات في سدة رمادية داكنة . وما هي شجرة الوزال تبرز شريطاً داكناً ، ووراءها يلوح العنبر الذي يأوي محركاً خامداً مثل لطخة سوداء . وأبعد من ذلك تبرك الطاحونة بطوابقها الاربعة مثل سحابة عجيبة الحواشي . كانت احدى النوافذ تحت السطح تبعث ضوءاً شاحباً ، وتحتها تماماً ، في الأسفل كلياً ، تترنح بقعة ضوئية مربدة ، وتراوح في مكان واحد .

«ياه ، الى أين وصل !» - فكر الكسي ستيبانوفيتش في الماء يخامره شعور خوف لطيف كذلك الذي يخامر الناس ، حين يواجهون ظهور قوة رهيبه من قوى الطبيعة . ألقى معطفه على رأسه ، وسار على طبقة الجليد التي لم تذب بعد حول بيته ، ونظر وراء الركن ، حيث كان النهر ، وإلى ما وراء ذلك ، حيث تمتد آخر بيوت قرية ستريليتسكيا في الضفة المقابلة . ولكنه لم يعد يرى شيئاً الآن ، وكان العالم كان ينتهي على بعد خطوتين منه ، وأبعد من ذلك ركام لا حدود له ، لا يتردد فيه صوت ، ولا يتراعى ضوء ولا رفة منه . كان المطر يهس في مكان ما ، ويسري من وراء الركام الأسود نسيم خفيف ، وتهب طراوة وترسبات غرينية ورائحة خفيفة لا تلتقط لجليد وماء وروث . وخيل للكسي ستيبانوفيتش أنه سمع صيحة . أرهف سمعه طويلاً ، بل وخلع المعطف

من رأسه ، ولكنه لم يسمع غير المطر يخرق
السكون المنحوس المخيم على النهر . والظاهر أن
سمعه قد خانه .

وعاد الى الكسي ستيبانوفيتش ذلك الاحساس
غير المريح الذي ظل يلزمه طوال اسبوع الآلام ،
ويعتمل في روحه ، ويسلب من الليل سحره
الرهيف . اخذ يلعن المطر ، وطبقة الجليد الزلقة ،
وحجرته الصغيرة الوحيدة ، والطحان نيكيتا الذي
كان يشخر في المطبخ . انطرح الكسي
ستيبانوفيتش على السرير الذي صار مقرفاً بعد
ستة أيام من الرقاد المستديم ، الذي تتوجع منه
عظامه اكثر مما تتوجع من العمل . كان كل ما فيه
وما حوله مقرفاً . ستة أيام لم يغتسل فيها ، ولم
يمشط شعره ، ونيكيتا يدخل اليه الوحل بجزمته ،
ومن النافذة تبدو السماء رمادية كامدة . وكل ذلك
كان يولد الاحساس بالانظافة والتبعثر كما ان
افكاره بدت غير نظيفة ايضاً . في بداية عيد الفصح
ضربه أهل القرية على الفتاة داشا ، فرقد في
المستشفى اسبوعين ، وتشاجر بسبب ذلك مع
المدير ، وحين خرج من المستشفى ، وسار في
القرية والمسدس في جيبه ، صدت داشا عنه ،
والأولاد الملاعين راوحوا ينطون على رجل واحد
حوله ، ويغنون : «مَنْ قال لك تاكلها عفنة ؟»
وكان ينظر الى القادمين بجهامة ، متوقفاً أن يحدث
بنظرة شذراء ، تفضي الى عراك ، ولكن الجميع

كانوا يخفضون ابصارهم ، وعندما يخلفهم وراءه
كان يسمع صوتاً متبسلًا يغمغم :
- نط ، نط ، لعلك تقفز !

أهالي القرية هؤلاء عتاة عمن فتياتهم ، ولا
يتركون غريباً ينسل اليهن . قبل ثلاث سنوات
كسروا لتلغرافي قيثاره وجعلوه حطاماً ، وكادوا
يخنقونه بأوتار قيثاره . والكسي ستيبانوفيتش
غريب على الجميع . الطحانون يضحكون عليه من
وراء ظهره ، ويسمون «السيد» هزواً . بينما السادة
الحقيقيون يتحاشونه ، ولا يمدون اليه أيديهم . في
بعض الأحيان كان الكسي ستيبانوفيتش يدين
الناس ، ويأسف على نفسه ، وفي أحيان أخرى
يتصور نفسه ألياً حصيناً ويعتقد أن محنة حياته
كلها تأتي منه ذاته . ولكن كلتا الحالتين صعبة
على حد سواء ، تولد كلتاها احساساً بالقرق
وبسأم يود لو يخلعه عن نفسه ، مثلما يخلع
انسان ثوباً ضيقاً قذراً غير مريح . لقد كانت
عضلاته القوية وجسده المعافى تتحرق الى العمل
والحركة ، بينما هو منطرح كالخشبة ، وكلما طال
رقاده ازداد مقتاً لنفسه . وكان يفكر أحياناً في أنه
لو وجد شخصاً يمسكه من تلايبه ، ويرميه الى
الخارج ، فانه سيثني على صنع يديه . تقلب
الكسي ستيبانوفيتش طويلاً وتنهّد ولم ينم الا حين
أخذت النافذة التي لم تكن تتميز عن الجدران
السوداء شكل مربع أزرق .

- ستيبانونفيتش ! يا الكسي ستيبانونفيتش !
- ايقظه نيكيتا مبيضاً بالطحين المنغرز في وجهه
وفي معطفه الفرائي . - كفافك نوماً ، يا نووم
الضحى .

لنيكيتا وجه مدور امرد ، وهو دائم الابتسام
يضع نفسه على قدم المساواة مع الجميع . مع
الكسي ستيبانونفيتش ، ومع بوكوف ، ومع الفتيات
اللواتي كان يستهوين بالنكات ، وقميص الشيت
الأحمر ، وبذور عباد الشمس . وحتى اهالي القرية
الجهمون كانوا يحبونه ، ويتعاركون معه عراك
النند للنند ، ولم يكونوا يضربونه متكتلين عليه .
مضى نيكيتا يقول :

- انظر ، ماذا يفعل الماء ! فيضان !
انقلب الكسي ستيبانونفيتش على مضض مديراً
ظهره للجدار ، ممتلياً النفس بهواجس الليل
القائمة ، فبهر بصره ضوء ساطع كان يملأ الحجرة .
كان عمود ذهبي من نور الشمس يسقط على
النافذة ، فيتلألأ فيه سماور ينفث البخار مرحاً ،
ومن الخارج كانت تتراعى أصوات مرحة ، وزغردة
عصافير لهفى صداحة . نصب نيكيتا السماور ، ثم
فتح النافذة ، فسرى من خلالها دفء عذب يداعب
المنحرة ، ويدغدغ الأنف . هاهي الشمس قد أطلت
لاول مرة منذ أسبوع ، ففرح بها كل شيء .
- روعة ! - صاح الكسي ستيبانونفيتش ،
وركض نحو النافذة حافياً . كانت النافذة تطل على

النهر . وما رآه بنظرة خاطفة كان من الجدة والطرافة
والبهجة ما جعله يسرع في ارتداء بنطلونه وجزمته
الطويلة ، التي كان يشدها عند الركبتين بربطتين .
وبينما كان يرتدي ثيابه ، وقف نيكيتا تحت أشعة
الشمس ، ورفع وجهه الى فوق ، وغمض عينييه
بتلذذ . وبالتدريج أخذ وجهه يختلج ، وحاجباه
يرتفعان الى جبينه نشق بأنفه نشقة أخرى من
الهواء ، وعطس عطساً عالياً رناناً غطى لثانية على
زغردة العصافير .

- حكاية ، يا اخ ، - قال وهو يصلح حال
أنفه ، ويرمش . - منذ الصباح وأنا أعطس هذا
العطس . ما ان ارفع وجهي نحو الشمس حتى
أعطس .

ركض الكسي ستيبانونفيتش خارجاً وكاد رأسه
يرتطم بعضادة الباب الوطنية وتوقف . فقد رأى
الماء عند قدميه تماماً ، بعد ان أحاط بشجرة
الوزال ، وكان قش الجلة القذر المجروف من الفناء
يطوف فيه هادئاً ويدور . كان سطح الماء هادئاً ،
وشجرة الوزال داخله فيها وخارجة منه ، وانعكاسها
جميل وشفاف بألوانه الناعمة الرقيقة . في الخارج
كان الدفء العذب ما يزال قوياً ، والنور ينغمر لا
من الشمس وحدها ، بل ومن السماء الزرقاء الصافية
بكليتها ، والعصافير تصدح وكأنها سكرى . فتبدو
الأصوات الأخرى من خلال صياحها المستديم مرحة
ومنغمة . كان قاربان كبيران مفلطحان ينزلقان في

العجز بين الجزر الثلاث التي كونها الماء ، وهي
الطاحونة والعنبر وبيت الكسي ستيبانوفيتش
الصغير . وكان الطحانون المبيضون بذرات الدقيق
يلتقطون الألواح الخشبية الصفراء التي رفعها الماء ،
والتي كانت تستقر عليه بهدوء ، وتتجه بأطرافها
نحو النهر . وقد بدا جدول من جوار البيت ، وراح
يشق مجراها في الطبقة الجليدية ، وينصب في الماء
بهدوء ، في رققة ناعمة معتدلة .

قال نيكيتا بمرح :

- كأنك في قلعة تماماً . مؤكد أنك ستنتهي ان
لم أجي' لأخذك في القارب .

ربط القارب في الحال بمسمار الى صفاقة
النافذة . عبر الكسي ستيبانوفيتش ونيكيتا الى
الطاحونة ، وطلعا الى الشرفة الصغيرة المطلة على
النهر على ارتفاع الطابق الثالث . وقد اجتمع فيه
الناس عمالاً وعائلة مدير الطاحونة ، وكانت النسوة
يتأوهن ، ويخشين الاقتراب من الدرايزين . سلم
الكسي ستيبانوفيتش بجفاف على المدير ، وهو رجل
بدين أصهب الشعر ، وأخذ ينظر الى النهر . قال
طحان كهل :

- الشيوخ يحكون : منذ ثلاثين عاما لم يكن
مثل هذا القدر من الماء . بلية على الناس .

- سيهبط عند حلول الصباح ، - اجاب
المدير بلهجة صاحب الكلمة . - ليس هذا الماء ماء
فيضان ، ماء مطر . أما الثلج فذاب كله .

فتابع الطحان يقول ، وهو ينظر الى النهر -
الجارف مظللاً عينيه براحتيه :

- على كل حال بلية للناس ، بمناسبة العيد .
كان الماء ، فعلاً ، قد غير كل شيء حتى ان
الكسي ستيبانوفيتش ظل وقتاً طويلاً لا يتعرف على
معالم المنطقة . قبل هذه قصيرة كانت اعمدة السد
المنهار ما تزال بارزة ، اما الآن فقد سوى عليها
الماء وانبسط املس على مواقعها حتى لكان الانسان
لم يحاول قط ان يقيم حاجزاً لطغيان الماء . واختفى
الشاطئ المقابل تماماً . وغمر الماء شوارع القرية
وازقتها ، فلم تبق غير السطوح ، وكان البيوت
نفسها قد غاصت في الأرض . وبينها كان يدب
زورقان او ثلاثة ، وفي الجو صياح كذلك الذي
يرتفع عند حرائق المساء . والى يمين القرية كانت
الضفة ترتفع كالتل تلتهم عليها مباني المدينة
بزجاجها وجدرانها البيضاء ، ويلوح الناس
المتجمعون على الضفة شريطاً داكناً . وكان صليب
الكاتدرائية يتوهج كشمس صغيرة . وعلى بعد فرسخ
الى اليسار كان جسر السكك الحديدية يرتفع عالياً
فوق الماء ، يطوف فوقه عمود أبيض من الدخان .
والى الأسفل ، قرب سدة السكة تماماً ، كانت أعالي
الأشجار الجرداء وسقف أسود وحيد يبرز من الماء .
كانت أصوات الطحانين الرنانة ، وهم يلتقطون
الألواح ، وتلالؤ السماء والشمس ، والصياح
المتنوع الأصوات في الجانب الآخر من النهر ، الصياح

الذي بدا متهللاً تحت السماء الصافية ، وغمامة الدخان البيضاء ، كان كل ذلك يشكل مشهداً بهيجاً زائراً ، ويملا النفس بالحيوية والرغبة في نشاط زائر وبهيج .

- كان لازم قارب يُرسل ، - قال الطحان الكهل ، وهو يمد ذراعه باتجاه القرية الغارقة .

اجاب المدير :

- سنرسله ، حين نسوي امورنا .

دخل عامل ذو وجه فرح هلع كوجه من جاء يحمل نبأ حديثاً ومفرعاً :

- يا اخوان . الماء يكثر !

ورغم ان هذا النبأ كان مفرعاً بالفعل بالنسبة للبيوت التي لم يبق منها غير سطوحها ، الا ان الجميع ازدادوا بهجة ، سوى ان الطحان الكهل قاطع في غضب :

- كذاب !

- والله ! كنت قد وضعت حراً على العمود .

واختفى الحز !

نظر الجميع الى الماء ، كما لو كانوا يرونه لأول مرة ، وعند ذاك فقط أدركوا ما ينطوي عليه من نحس وفضاعة ، فأخذوا يتكلمون دفعة واحدة . كان الطحان الكهل يدفع اصبعه باتجاه القرية ، والمدير يفكر ويعدل سلسلة ساعته على بطنه ، والنساء يطلبن ان يُطمان ، ويقال لهن ان الماء لن يصل الى بيت ادارة القرية والدوائر القائمة عالية على

التل . ألقى الكسي ستيبانوفيتش نظرة أخرى على النهر ، واتجه الى بيته . كان السماور قد خمد ، والشمس انحرفت عن النافذة ، وقطعة المفروش الأبيض وحدها كانت تبهر العين ، وتلقي رفة ضوء على الجدار . ولكنها سرعان ما خمدت هي الأخرى ، وصار الجو موحشاً قاتماً كما في الليلة البارحة . استلقى الكسي ستيبانوفيتش على سريره ، وحاول ان يقرأ في كتاب تعلم الفرنسية بنفسك . ولكن القراءة لم تستقم له . هذا الصياح في الفناء . ودخل نيكيتا عليه مرة أو مرتين ، وأبلغه ان أحد القاربين أرسل الى أهالي القرية ، وان الماء أخذ بالارتفاع ، كما يبدو . وبعد ذلك قدم له غداء الصوم العديم النكهة .

- حاذر ان تبلل نفسك ، - قال وهو ينظر الى الكسي ستيبانوفيتش وهو يدير ملعقته في حساء الكرنب بتكاسل ، - وصل الماء الى العتبة . سكت الكسي ستيبانوفيتش . فراح نيكيتا يسأل :

- هل ستتناول فطار الصوم عند المدير ؟

- الى الجحيم انت وهو !

أخذ نيكيتا يضحك .

- أراك قد غضبت ! يا عجيب ! أما أنا ، يا

اخ ، فساذهب الآن . سنرسل القارب الثاني . بيت

الحداد بارانوك انهار ، وكاد الجميع يفرقون .

كان بارانوك أحد الذين ضربوا الكسي
ستيبانوفيتش . ومضى نيكيتا يقول :
- لنذهب ، يا أخ ، ولا حاجة الى الولولة .
سأجد لك فتاة . . . آه ، ما أحلاها !
وحين اقلع القارب الثاني وعلى دفته نيكيتا ،
اطل الكسي ستيبانوفيتش من النافذة ، وصاح :
- انتظر ! سأتي معكم !
ولما صعد القارب كان يشعر بالحرج ، فقد
كان الجميع يعرفون أن أهل القرية قد ضربوه ، فلا
بد أنهم سيضحكون الآن ، وهم يرونه قادماً اليهم
يمد يد العون . ولكن الطحانين كانوا لطافاً ، يرون
اشتراكه شيئاً طبيعياً وغاية في البساطة ، بل ولم
يشر أي واحد منهم الى العراك الذي لم تكن له
علاقة ، ولا يمكن أن تكون بما كان يحدث الآن .
وحين ساروا في وسط النهر ، وصارت الطاحونة
تبدو صغيرة وطيفة ، وكأنها نزلت في حفرة ، نسي
الكسي ستيبانوفيتش حراجه ، ونزل الى الصراع
خفيفاً نشيطاً . وكان التيار يدير القارب ، ويدفعه
الى الأسفل في مجرى النهر ، والمجذافان يصرفان في
مرفقيهما . ضربت قطعة جليد صغيرة جانب القارب ،
ودارت حول نفسها ، وسبقت القارب .
- لطيف أن الجليد مر بسلام ، - قال نيكيتا
شاعراً بأنه سيد نفسه ، راغباً في المحادثة .
اجاب أحد المجذفين :
- صحيح ، والا جرفنا بالتأكيد .

- يا ستيبانوفيتش ! لماذا تراني لا أعطس
الآن ؟ أرفع وجهي ، ولا أعطس . . . يلا ، يا
جماعة ، انشط ، انشط . انحناء ، شد !
كان الماء في شوارع القرية المغمورة ساكناً
وعميماً ، وفي بعض الأماكن فقط كانت كسر الخشب
والواح الأسبجة المحطمة تطوف متراخية . كانت
العليات الأولى باتجاه النهر قد خلت ، فكانت تبدو
ساكنة بنوافذها الصغيرة ، ولكن الجلبة كانت
تسود شارع خولودنيا ، حيث لم يتوقع الماء أحد من
سكانه ، ولم تتخذ أية تدابير ، وكانت أصوات
النساء الزاعقة ، وصياح الأطفال يرتفع في الجو .
لم تلحق بعض القوارب التي أرسلت للاغاثة أن
تستوعب جميع الراغبين وتنقلهم الى اليابسة ،
فكان رجال الاغاثة يتشائمون شتائم حادة مع النساء
اللواتي حشرن في القارب كل سقط متاع . وكان
الأطفال يدورون بين الأقدام ، ويخرجون أجسامهم
من فتحات السقوف المحطمة مخاطرين في الوقوع في
الماء ، وينادي بعضهم بعضاً ، ويزعقون حين
تضربهم يد نقد صبر صاحبها ، ويسقطون في قارب
الاغاثة مثل أكياس الطحين . فكانوا يجلسون فيه
جامدين يبجلقون بأعينهم ، يغمرهم الفرح الشديد .
فقد كان هذا الحدث كله تسليية مفاجئة لهم ، وهم
الذين تعودوا على النهر منذ الطفولة . كان عود من
اعواد صيد السمك معقود الخيط يبرز من شق في
أحدى العليات . والصياد نفسه لم يكن موجوداً ،

كما يبدو ، ولكن برودة أعصابه المدهشة وصلابته
تدلان على أنه لم يكن من الجيل القديم من أهالي
القرية .

رسا الكسي ستيبانوفيتش على العلية الأولى ،
حيث كانت تلوح منها ذراع عارية لامرأة تستدعي
القارب بالحاح . ومنذ تلك اللحظة لم يعد الكسي
ستيبانوفيتش يفكر في شيء . فقد راح يغرق في
ظلام العليات ، حيث كان يصطدم بروافد الجدران ،
ورأسه يرتطم السقف ، ومرة أخرى لم يعد قادراً
على النظر في العالم المثلث بكل أنواع الخرق ، التي
بدت له ذات قيمة كما للنساء أنفسهن . وحوله
كان الناس يتصايحون ويزعقون ويناقشون
ويتشائمون ، وكانت الوجوه الملتحية وغير الملتحية
تمرق أمام عينيه . وجميعها مألوفة له ومحترقة .
الآن لم يعد في وسعه أن يميز من ضربه ، آنذاك ،
ومن لم يضربه . كانت تطوق رقبتَه أذرع قدرة
لأطفال ، ويلتصق بكتفه وجه صبية مذعور ، أو
وجه صبي متخفر ملطخ . ومرة وقعت في يديه دمية
من الكارتون مفلوعة الجمجمة ، وحين كانت تمسك
من رجليها كان الماء ينسكب من الفلج . أجبره صبي
غاضب عنود على أن يضع صندوق الكعاب في القارب
أولاً ، وبعد ذلك وافق على الجلوس فيه . وحين
سار في القارب الموسوق الى الحافة في الأزقة
الضيقة ، وأحياناً عبر حدائق ، فوق الأسبجة
الغريقة ، وأغصان الأشجار اللدنة ببراعمها المنتفخة

تخدش وجهه ، كان يخيل اليه أن العالم كله مؤلف
من ماء هادي سلس ، وشمس ساطعة حارة ،
وصيحات حياة ناشطة ، ووجوه مرحة . صار يثرثر
مع الأولاد ، ويطمئن ، ويسري ويصدر الأوامر ،
وحتى صوته بدا لنفسه أيضاً دافئاً رناناً . فكان
يفكر أحياناً أن العيد الكبير الوضاء قد حل ولن
ينتهي أبداً . صادف أن مرّ قاربه ببيت أجري
كبير كانت نوافذ طابقه الثاني كلها مفتوحة تتزاحم
فيها نسوة . عرف الكسي ستيبانوفيتش من بينهن
داشا ، وقد حيّاها بانحناء وتبسم ، فردت عليه
تحيته مبتسمة أيضاً ، وصاحت بشيء ما . ولم
يتبين كلماتها ، ولكنه فهم من صوتها أنها كانت
كلها لطيفة رقيقة .

علية تلو عليه ، ولأنها كانت مظلمة وبائسة
على حد سواء ، فقد كانت أحداها تشبه الأخرى .
ولم يعد الكسي ستيبانوفيتش يميز بينها ، وكان
يتصور أنه مشغول في علية واحدة لا تتغير . كان
الطريق الى اليابسة يقصر أكثر ، والشمس يقل
سطوعها ، والظل البارد يزداد ، ومن ذلك فقط كان
الكسي ستيبانوفيتش يدرك أن المساء وشيك ،
وان المبهج المرح آيل الى نهاية . وكان يأسف على
ذلك وهو المبلل الجائع ، ويخشى فقدان ما كان
يدور في رأسه الآن كالخمرة ، ويضئ روحه بنور
ضاحك . قبل ذلك لم يكن يعرف أنه كان يحب
الناس والشمس ، ولم يكن يفهم لماذا تغيروا في

عينيه هذا التغير ، ولماذا تدغدغه الرغبة في أن يضحك هو الآخر ويبكي ، وهو يحدق في وجه صبية مذعور ، أو يرفع عينيه المتقلصتين الى شعاع الشمس الأصفر الدافئ . ولكانه اكتشف لأول مرة فن ومتعة التنفس ، وأن ما كان يدخل في صدره هو النور والدفء والعيد في الغد ، ولم يجب أن يفكر ، بل أن يستنشيق فقط ، ولا يكف عن الاستنشاق .

حين كانوا يعودون الى الطاحونة كانت الشمس تجنح وراء الجسر ، الذي لم يكن يرى الآن في هذه النار المتوهجة ، والسدة العالية وحدها كانت تلقي ظلاً أزرق طويلاً . ارتفعت السماء عالية ، وامتلا الفضاء بينها وبين الماء بالهواء والرحابة والدفء الناعم ، وابتعدت المدينة والشيطان الغريقة حتى لكان العالم كله انداح عرضاً وطولاً فلا يجب الانسان دخول الحجرات الوطينة ، لتخنقه السقوف . كان الطحانون يتحدثون عما حصل ، ويضحكون من نيكيتا الذي وقع في الماء ، وهو الآن يجلس كنيباً مزرقاً من البرد ، يفكر في المرأة التي احتضنها في ظلام علي ، فلطمته . ومزح الكسي ستيبانوفيتش أيضاً ، ولم يندهش الطحانون من أن هذا المعتبر الكنيب الفخور صار بسيطاً لين الجانب .

- وصلنا ! - قال طحان حين مال القارب بجنبه الى شجرة الزال ، وارتطم بعتبة البيت . وحتى حجرة الكسي ستيبانوفيتش صارت بهيجة مريحة ، حين اشتعل فيها مصباح ساطع ووشوش

السماور مغنياً ، وقد نظف بمناسبة العيد . كان الكسي ستيبانوفيتش فياض المشاعر ميلاً الى الحديث فأجلس نيكيتا معه ، ولكن هذا احتسى خمسة أقداح من الشاي عابس السحنة ، وذهب رغم الحاح الكسي ستيبانوفيتش لينال اغفاءة قبل صلاة الصبح فقد اتعبه الهواء الطلق والعمل . ونصح الكسي ستيبانوفيتش :

- واستلق أنت أيضاً . كنت تركض نشيطاً كالمهر . هل ستذهب الى بيت المدير ؟
- نعم .
- رائع .

استلقى الكسي ستيبانوفيتش على سريره ، وقد شبك يديه خلف رأسه ، ولكنه وثب بعد بضع دقائق . اشتاق مرة أخرى الى الرحابة ، ورغب من جديد أن يقضي ذلك النهار المذهب منذ بدايته ، منذ أن داعبت الشمس عينيه المتعبتين من أحلام الليل والوحشة .

حين خرج الكسي ستيبانوفيتش الى الشرفة كان الليل قد هبط دافئاً هادئاً مهيباً مفعماً بسكينة رنانة . كان الماء يخفق مؤرجحاً القارب ، والنجوم تنعكس على سطحه الرقراق . وصار العالم أوسع وأكثر امتلاءً ، والماء لا ترى نهايته المتلاشية في الظلام الشفاف . كانت القرية قد اختفت تماماً . ولم تبق الا المدينة البعيدة تومض ، وتكرر نفسها على النهر بانعكاسات ضوئية حية دافئة لا تشبه إلا

النجوم . ترددت كركبة عربية لا تكاد تسمع على الجادة ، وسكنت على الفور ، وكان العربى توقفت أو استدارت في عطفة ، ولكن اذنه ظلت تلتقط اصداها وقتاً طويلاً . الى اليسار حيث كان الجسر غير المرئى الآن كان ثمة ضوء اخضر يشبه نجمة هبطت على انخفاض . اتكا الكسى ستيبانوفيتش على الدرازين ، وحدث طويلاً في المدينة التي كان يحس باناسها الاحياء ، وبما يجري فيها من عمل بهيج تحضيراً للعيد ولغفل . وكان يتمثل في خياله بوضوح تام الغرف المريحة المرتبة تتصاعد منها رطوبة ارضياتها المغسولة حديثاً والستائر الصينية البيض ، والقناديل الحمراء والخضراء امام الايقونات المتلاثة ، وحديث الناس المرح المكتوم ، وهم يرتدون احسن ثيابهم . وكل ذلك كان قد رآه في الطفولة .

ومثلما حدث له في الليلة البارحة بدا وكأنه سمع صوت استغاثة مرة أخرى .

غرز الكسى ستيبانوفيتش عينيه في الظلام يحذر ويصغي بانتباه وجهه شديدين حتى أن الدم اخذ يطن في اذنيه ، ولكن الاستغاثة لم تتكرر .

وفكر الكسى ستيبانوفيتش : «وهم مرة أخرى» . وفي تلك اللحظة لمع فجأة ضوء شاحب وامن ، حيث كان مصباح السكك الحديدية الاخضر ، في الاسفل ، وانطلقا على الفور . وتذكر الكسى ستيبانوفيتش السطح الاسود المعزول الذي لحظه في

الصباح وتفكيره في انقطاع المحبوسين تحت ذلك السطح ، وهو التفكير الذي خامره في الصباح ، ونسيه في النهار .

شتمه نيكيتا ، والنحاس ما يزال عالقاً في اجفانه ، فعزم على ركوب الزورق الصغير والذهاب لوحده . كان واثقاً من أن أهل البيت الغريق قد غادروه ، ولكن الاستغاثة المتخيلة أو الحقيقية كانت من الانقطاع والياس بحيث لم يكن في مقدوره ان لا يستجيب لها . اضطر الكسى ستيبانوفيتش الى التجذيف ضد التيار ، فتغطى جسده بالعرق لبضع دقائق . ولكن التيار جرفه الى الاسفل حين وصل الى وسط النهر ، الا أنه اتخذ مسراه الصحيح بصعوبة ، واستراح في شارع مغمور من القرية دفعه اليه التيار . كانت العليات الآن موحشة صامتة ، سوداء ، بل وبدت مرعبة بعض الشيء ، مثل اغطية توايت كبيرة ، زاخرة بحياة خفية وهمس مبهم وقوة مثل النهر الاسود نفسه . وكأنها كانت تصارع الكسى ستيبانوفيتش وتنتزع المجذافين ، وتهدر عند قيود الزورق بوعيد مرح . شق الكسى ستيبانوفيتش طريقه خلال الحداث الغريقة الشفافة بمحاذاة الشاطئ مرتعداً حين تمسه الأغصان الباردة الملتوية المتشبثة ، كأصابع غريق ، دافعاً الزورق عن السقوف السوداء ، وخرج الى طرف القرية ، حيث انبسط الماء مثل بحيرة عريضة كامدة للمعان ، جذف حدساً نحو السيدة التي صارت

تتميز عن السماء الداكنة مثل سنام أسود . كان يغمض عينيه ، وهو ينحني الى الأمام ، ويرفع المجذافين وينزلهما بنسق واحد ، وعند ذلك كان يبدو وكأن العالم كله قد تخلّف بعيداً الى الخلف ، وأنه يجذف منذ زمن بعيد ، منذ سنوات ، ويتوغل في فضاء أسود بلا حدود كل شيء فيه جديد يختلف عما خلفه وراءه . وعلى هذا النحو انقضت الدقائق ، وحين رفع رأسه رأى السدة قائمة أمامه عالية صارمة ، وعلى مقربة منه سطح رمادي منفرد ، أخرس مبهم وأحس الكسي ستيبانوفيتش بوجود أناس أحياء تحته ، وقد أشار صمتهم في محيط من الماء والليل خوفاً غير محدد ورهبة في نفس الميكانيكي . اقترب بزورقه حتى توقف لصق شرفة صغيرة بلا سياج ، باركة على الماء ، كان بابها الوطني المائل يؤدي الى الداخل . كان البيت كله قديماً جانحاً الى جنب ، مرقعاً كالشحاذ ، حتى ليستغرب المرء كيف لم يجرفه الماء القوي الكاسح .

- هل يوجد أحد ؟ - صاح الكسي ستيبانوفيتش ، وارتد صدى صوته عن السطح ، وجمد ، وانداح على النهر . ترددت في داخل العلبة أصوات ناخرة ، وكان شخصاً يُخنق . ربط الكسي ستيبانوفيتش الزورق بسرعة ، وقف الى الشرفة ، وعند الباب كاد يصطدم بأمرأة خرجت للقائه .

- هل كانت الصيحة منك ؟ - سأل الكسي

ستيبانوفيتش بنعومة مبتهجا بمرأى كائن حي ، ودخل العلبة بلا استئذان ، وقد تعود على أن يستقبل في كل مكان كواحد من رجال الانقاذ .

- نعم ، نعم - أجابت المرأة بنعومة ايضاً وبشيء من الشعور بالذنب ، وسارت معه الى ركن فيه طاولة عليها ايقونة تشتعل امامها شمعة نحيفة .

أجال الكسي ستيبانوفيتش نظرة خاطفة في العلبة التي كان طرفها الآخر يغيب في الظلام ، وأوقف بصره المندهش على الطاولة . كانت مغطاة بمفرش نظيف ، عليه بيضتان بنيتان داكنتان متقاربتان ، ورغيف خبز صغير مشترى من السوق يابس ، كما يبدو .

- ما هذا ؟ - سأل ، وهو يحرق في وجه المرأة الفتى رغم شحوبه ، المفتر عن ابتسامته مدوّرة متلهفة تزيد من مسحة الحزن في عينيها الواسعتين الطيبتين . وبدت له غير مفهومة وغريبة هذه المرأة الوحيدة ، والاستعدادات للقاء العيد هنا ، وسط الماء والليل .

- للعيد ، - ردّ من تحت صوت خشن وكأنه يتمطق بـ «العيد» . أنزل الكسي ستيبانوفيتش بصره مذعوراً الى موضع التقاء الجدار بالسقف ، ورأى كتلة داكنة لرجل مضطجع مغطى بشيء ما . وأنحنى أكثر ، وما رآه زرع فيه الخوف والنفور . لقد كان وجهاً غريباً بالفعل ، مدوراً منتفخاً مزرقاً نما شعر أشيب خشن على ذقنه وخديه ، فكان يشبه وجه

غريق ظل راقدًا في الماء بضعة أيام . كان هذا الرجل الحي الميت يبدو مقرفًا بجفنيه الثقيلين نصف المطبقين ، تطل من تحتها مقلة كامدة جامدة ، وبرائحتي المرهقة . كأن صدره يرتفع قليلاً فيعود يرسل أصواتاً صماء جارحة ، وشفتاه لا تكادان تتحركان ، وكان الذي تكلم شخص آخر في داخله .

- دانكوف ، الموظف في الدرجة التاسعة . . . سعيد بالتعرف عليك . واستنشق الهواء ، وأضاف :
- ولكن ليس لوقت طويل ، ها أنا ذا . . . تضر ! . . . سخافة جداً .

صمت الكسي ستيبانوفيتش ، ونظر الى المرأة . فقالت هذه ، وهي على ابتسامتها :
- تفضل ، اجلس . اعذروني على الازعاج .

ساعات حاله كثيراً ، فارتعبت . تكلمت بصوت سبط وبلا احساس . وحين اتمت قولها ، قعدت على الأرض ، قرب العجوز ، وأحاطت ركبتيه بيديها ، وراحت تحلق في الكسي ستيبانوفيتش من تحت غير صارفة بصرها عنه . كانت عيناها تكمل ما لم يعبر عنه صوتها ، تفصحان عن الثقة والخوف والفرح من رؤيتها انساناً حياً معافى .

سالت :
- معقول أنك لا تعرفنا ؟

رد دانكوف مقطوعاً بعض الكلمات :
- لهذا السبب جاء ، لأنه لا يعرفنا . ليس هو ابله . اسمع لي ان أعرفك بنفسي . كنت صاحب بنسيون ، وكنت أباً يعني ، والكل كن يطعمونني وهذا البيت ملكي . ولكنهن الآن هربن جميعاً . كالغتران .

وكان في صوته الأصم سخرية غريبة .
- أما هي ، الحمقاء ، فبقيت .
ردت المرأة بلا تحديد :

- والى أين كنت ساذهب ؟
- اسكتي حين يتكلم العقلاء ، يا حمقاء . . . دمدم العجوز ورفع الكلفة وسأل : - وأنت من الأوباش أيضاً ؟ أنا لا أتذكرك ؟

لزم الكسي ستيبانوفيتش الصمت . لقد تذكر الآن أنه كان يسمع في القرية أحياناً كلاماً عن دانكوف وبناته اللواتي كان يتحاشاهن أحقر الفتيان لقدارتهم وورثاة ثيابهن ورخصهن .

- وبش أيضاً ، - رد دانكوف بالاثبات ، وظهر على وجهه شيء مريع يشبه الابتسامة . - الجميع أوباش . أما هي فحمقاء . تركوني أموت كالكلب . انصرف ! سامع ؟

ابتسم الكسي ستيبانوفيتش في حراجة مرة ، ونظر الى المرأة . كان بصرها مثبتاً فيه لا يريم ، وكانما كانت تخشى ان تفقده فجأة .

سأل الميكانيكي ، وهو يرمق «الحمقاء» برقة :

وسكنت أولاً لحظة ، ثم تابعت كلامها ، والظاهر
أنه كان يفرحها سماعها لصوتها وامكانها أن
تحدث .

- في بعض الأحيان يضرب . حين يكون
سكران . من القهر . والا فهو انسان لطيف . حاصل
على ميدالية .

- أية ميدالية ؟

- على خدمته . كان في الماضي موظفاً . وهو
الآن يشعر بالضجر ، ويبكي طوال الوقت ، ولا
يريد أن يموت . وأحياناً يتفوه بأنواع الكلمات
الفظيعة . عن الشيطان .

فاستفسر الكسي ستيبانوفيتش بحنان :

- وكيف أنت هنا . . . وحدك ؟

- في النهار لا بأس ، ولكن في الليل
ر . . . به ، - قالت الفتاة مقطعة الكلمة الأخيرة .
- لا سيما البارحة . نفذ علينا المطر ، وأطفأ
الشعة . وهو يصرخ : س . . . موت . ثم راح
يغني الأغاني ، ويشتم . لا كما نشتم نحن ، بل
بأدب ، كما يشتم السادة .

وفجأة اهتز البيت من هدير القطار وصلصلته
وهو يسير على الجسر ، وبسبب دويهِ لم يعد
الكسي ستيبانوفيتش يسمع ما تقوله أولاً . وهدأت
الصلصلة بالتدريج ، وأنداح الصغير البعيد فوق
الماء .

نادى دانكوف دون أن يفتح عينيه :

- ما اسمك ؟

- أولاً . وأنت ؟

- الكسي ستيبانوفيتش . يجب ثقلكما .

أيعقل أن تبقى هنا ؟

دمدم العجوز :

- البارحة انهدت قطعة جليد . . . ما احقرها .

ردت الفتاة :

- لم تعد هناك حاجة لذلك . لا يجوز مسه ،

سيموت قريباً .

- أساس بليتي أنني أنزلت رأسي . فلا

تفعل ذلك ، وارفع رأسك ، فهممت ؟ أما هذه

فحمقاء . كنت أضربها . انها تكذب حين تقول لك

أنني ساموت .

تعود الكسي ستيبانوفيتش قليلاً على صوت

العجوز المزمجر . والآن ، وهو لا يرى وجه

العجوز ، لا يتصوره مرعباً البتة ، بل بانساً لا

غير . سال الميكانيكي أولاً :

- منذ مدة وانتما بهذه الحال ؟

- منذ أربعة أيام ، منذ الثلاثاء . حاله سيئة

جداً . قبيل مجيئك غلبني الخوف تماماً . - وانحنت

أولاً على العجوز : - ايفان دانييليتش ، هل أنت

نائم ؟

لم يجب العجوز ، فابتسمت ، وهمست :

- غفا . دائماً يغفو . لا تصدق بأنه كان

يضر بني . انه يتباهى بذلك أمام الغرباء .

- أولغا ! لا تذهبي ! هل انصرف ؟ الوبش .
وشوشمت أولا لالكسي ستيبانوفيتش ،
وأجابت : انصرف .

- يدك . . . - كان دانكوف ينطق الكلمات
بعسر . - ضعي يدك . . . حمقاء ، ليس هنا ، على
شفتي .

وضعت يدها ، وسحبتهما على الفور .

- أوه ، ما هذا ، يا ايفان دانيلوفيتش ! عدت
الى الحمامة .

- أنت لم تتعودي . عندما كنت شاباً ، كنت
دائماً أقبل أيدي السيدات . أيد عطرة . كنت
شاطراً . وأحمق .

سكنت أولا ، وهي منحنية على رأس الشيخ
المنتفخ القبيح الشكل . ورآها الكسي
ستيبانوفيتش ترفع طرف منديلها الى عينيها ، فخرج
الى الشرفة بهدوء ، وعلى أطراف أصابعه . وفي
الشرفة أسند رأسه على عمود ، وحين ألقى بصره
على النهر كان كل شيء يرتعش أمام عينيها ،
والنجوم تهتز وتتواضع مثل دوائر كبيرة شاحبة
الزرقة . أحلوك الليل ، وسرت برودة من النهر
الصامت .

من الشرفة كانت الشيطان لا ترى ، وإذا اتجه
البصر نحو المدينة بدا الماء وكأنه بلا حدود . ولو
لا ضوء ان او ثلاثة تبدو معلقة في الهواء لما حدس

المرء ان في الجانب الآخر مدينة عامرة بالناس تحيا
وتشعر .

وفجأة التمع ضوء ابيض ساطع في قمة التل ،
في موقع برج أجراس الكاتدرائية ، كما يفترض ،
وشق الظلام عمود ضوء كهربائي ضيق في بدايته ،
عريض في نهايته ، حيث سقط فالتعمت سطوح
مبللة ، وتألقت جدران مكسوّة بالملاط . وفي تلك
اللحظة بدا وكان النهر واللييلة الداجية والسماء
الزرقاء قد ارتعدت وراحت تطن ، وكان من الصعب
أن يتبين المرء مصدر هذا الصوت الكثيف المرتعش
لاكتظاظه ، الجبار ، النشط . وبعد أن انضمت
اليه اصوات أخرى ناعمة تنساب كال موجة من أقرب
برج أجراس أدرك الكسي ستيبانوفيتش عند ذلك
فقط أن قرع الأجراس قد بدأ ايذاناً بعيد الفصح ،
فبدا له ذلك وكان كوكبة من العمالقة استيقظت ،
وأخذت تتحدث فيما بينها ، حابسة صوتها الجبار في
صدرها النحاسي . وصار الصوت يتسع ويتنامى
باستمرار ، وسرعان ما غرقت كل اصوات الليل
الوادعة في هتافه الأسر البهيج . وانهمرت من كل
جوانب الافق المظلمة اصوات نحاسية ، بعضها مهيب
شائخ جدي في استغراقه ، والآخر فتي رنان ، مرح
وتشابكت فيما بينها في اكلييل متعدد الألوان ،
وانصبت ، كالجدول ، في العملاق الجبار لجرس
الكاتدرائية .

خلع الكسي ستيبانوفيتش قبعته ، ورسم

علامة الصليب . وحين التفت رأى أولاً واقفة
قربه ، وعلى وجهها الشاحب إلماعة ضوء أبيض
بعيد . كانت تمسك العمود باحدى يديها ، وتقبض
بالأخرى على منديل خفيف عند رقبتها .

وما هو الضوء البنغالي الأحمر يتوهج كالحرير
على برج اجراس كاتدرائية فاسيلي العظيم ، ويرتمي
على النهر الأسود شعلة حمراء . والأضواء الحمراء
والزرقاء تأخذ بالاشتعال في كل جوانب الأفق ،
الليلة العظيمة تزداد . والأصوات ماضية في
انهمارها . تتساقط من السماء ، وترتفع من قاع
النهر ، وتضطرب مثل حمامات مذعورة على السدة
العالية السوداء ، وتحلق الى الأعلى طليقة خفيفة
مظفرة . وخيل لالكسي ستيبانوفيتش ان روحه
ايضاً صوت من هذه الأصوات ، حتى خشي ان لا
يتحمل جسده تحليقها الطليق .

مسّت يديه يد أخرى حارة ، وبلغ أذنه همس
خافت خائف فرح :

- صحيح ان الذي يموت في ليلة الفصح يصعد
الى السماء رأساً ؟

ردّ بخفوت ايضاً . - نعم ، صحيح .

- لا اعرف . . . نعم ، صحيح .
والأصوات ما تزال تنسكب ، وبهجتها تصير
فيأضة متهللة . وكان الصدور النحاسية كانت
تتفجر غبطة ودموعاً دافئة .

على الشرفة الصغيرة شبحان داكنان مبهمان

لشخصين يحرق بهما الليل والماء . والواح الأرضية
تهتز اهتزازاً خفيفاً لا يكاد يحس به ، والبيت
الصغير الشائخ الخاطي بدا وكأنه يهتز بكليته من
العبرات الخفية ، والنشجات المكتومة .

٢١-٢٤ شباط ١٩٠٠

كان فيما مضى . . .

جاء لافرينتي بيتروفيتش كوشيفيروف التاجر الثري العازب الى موسكو للعلاج ، وقد قبلوه في مستوصف الجامعة ، لأن مرضه كان مثيراً للاهتمام . ترك حقيبة متاعه ومعطفه الفرائي في حجرة المعاطف في الأسفل . وفي الأعلى ، حيث كانت الردهة التي سيرقد فيها اخذوا منه بدلته الصوفية السوداء ، وملابسه الداخلية وأعاروه روباً رمادياً ميراً ، وثياباً داخلية نظيفة كتب عليها بالحبر الأسود «الردهة رقم ٨» وخفّين بيتيين . كان القميص صغيراً على لافرينتي بيتروفيتش ، فذهبت الممرضة للبحث عن قميص جديد . وقالت وهي تخرج من غرفة الحمام ، حيث كان المرضى يغيرون ملابسهم :

— آه من ضخامتك !

وانتظر لافرينتي بيتروفيتش بأناة وخضوع وهو شبه عار ، وأحنى رأسه الأصلع الكبير ، واستغرق بمعن النظر في صدره المرتفع المسترخي كصدر امرأة عجوز ، وفي بطنه المنتفخ المندلق على ركبتيه . كان لافرينتي بيتروفيتش يذهب الى الحمام العمومي كل يوم السبت ويرى فيه جسمه ، ولكن هذا الجسد

الشاحب المقشعر الآن من البرد بدا له مختلفاً ، غليلاً وبائساً رغم كل مظاهر القوة عليه ، غريباً عليه تماماً منذ أن خلع عنه ثيابه المعتادة ، حتى صار مستعداً لأن يفعل كل ما يأمرونه . عادت الممرضة ومعها القميص ، ومع أن ما تبقى لديه من القوة يكفي لأن يؤذي هذه الممرضة باصبع واحدة من أصابعه ، إلا أنه أذعن وسمح لها بأن تلبسه ، وحشر رأسه بحركة مرتبكة ، في القميص الذي جمعته الممرضة وأدخلته في رقبته كالنير . وبنفس الارتباك المطيع هذا أحنى رأسه ، وانتظر أن تربط الشراشيب عند الياقة ، ثم تبعها الى الردهة . سار على رجليه المعكوفتين كرجلي الدب في توجس وحذر كما يسير الأطفال ، حين لا يعرفون أين يقودهم الكبار ، فقد يقودونهم الى العقاب . كان القميص الجديد ضيقاً عليه أيضاً يشد على كتفيه عند السير ، ويخشخش ، ولكنه أحجم عن الإشارة الى ذلك للممرضة ، رغم أن نظرتة الصارمة وحدها في مدينته ساراتوف كانت تبعث الرعدة في أوصال العشرات من الناس .

— هذا سريرك ، — وأشارت الممرضة الى قراش عال نظيف ، وطاوله صغيرة قربة . كان ذلك موضعاً صغيراً جداً ، مجرد ركن في الردهة ، إلا أنه لهذا السبب بالذات راق لهذا الرجل الذي عذبتة الحياة ، نزع لافرينتي بيتروفيتش روبه وخلع نعليه بعجالة ، وكأنما يتخلص من ملاحقة . ومنذ تلك اللحظة زايله

ما كان يحنقه ويعذبه منذ الصباح ، وصار غريباً وتافهاً . واسترجعت ذاكرته بسرعة ، وبلوحة خاطفة واحدة كل حياته في السنين الأخيرة : المرض العضال الذي يفتت قوته يوماً بعد يوم ، الوحدة بين جمهرة أقاربه الجشعين ، في جو الكذب والكرامية والرعب ، وهروبه الى موسكو ، وبنفس الفجأة أيضاً غابت هذه اللوحة عن ذاكرته ، ولم تخلف في نفسه غير ألم ممض مقبض . وغطت لافرينتي بيتروفيتش في نوم عميق ثقيل بلا أفكار يخامرهم احساس لذيذ بنظافة الفراش والسكينة . وآخر ما تراءى في عينيه نصف المغمضتين الجدران الناصعة البياض ، وشعاع الشمس على أحد الجدران ، وبعدها جاءت ساعات النسيان التام .

في اليوم التالي ظهرت فوق رأس لافرينتي بيتروفيتش لوحة سوداء كتب عليها : «التاجر لافرينتي كوشيفيروف ، العمر ٥٢ ، تاريخ الدخول ٢٥ شباط» . وكانت لوحتان أخريان كهذه اللوحة معلقتين على سريري المريضين الآخرين شريكه في الردهة الثامنة ، كتب في الأولى : «الشماس فيليب سبيرانسكي ، العمر ٥٠» وفي الثانية : «الطالب قسطنطين توربتسكي ، العمر ٢٣» . وكانت الحروف البيضاء المكتوبة بالطباشير تبرز على اللوحة السوداء بجمال مشوب بكآبة فإذا انطرح المريض على ظهره وأغمض عينيه ، استمرت الكتابة البيضاء في الاعلان عنه وصارت مثل شواخص القبور الشاهدة على أن

شخصاً مقبور هنا ، في هذه الأرض الرطبة المتثلجة . وفي نفس اليوم وزنوا لافرينتي بيتروفيتش ، وتبين انه يزن ستة بودات وأربعاً وعشرين أوقية * . وحين نطق مساعد الطبيب بالرقم ابتسم ابتسامة خفيفة ، ومزح قائلاً :

- أنت أوزن انسان في المستوصف كله .
كان مساعد الطبيب شاباً متحدثاً يتصرف كطبيب ، لأن المصادفة وحدها حالت دون حصوله على تعليم عال . وكان يتوقع ان يبتسم المريض على نكته ، لأن جميع المرضى ، وحتى أشدهم مرضاً ، يبتسمون على نكات الأطباء المشجعة ، ولكن لافرينتي بيتروفيتش لم يبتسم ، ولم ينطق بكلمة . اطرقت عيناه الغائرتان تنظران الى الأسفل ، وانصكت وجنتاه اللحميتان المرقتان بشعر أشيب وكأنهما من حديد . وشعر مساعد الطبيب بالحراجة وعدم الارتياح ، وقد كان يتوقع جواباً ، وكان ، بالمناسبة ، يدرس علم قراءة الوجوه منذ زمن بعيد ، وقد صنفه مع السمحاء بسبب صلته العريضة في قمة الرأس فاضطر الآن الى أن ينقله الى الغضاب . الا ان مساعد الطبيب - واسمه ايفان ايفانوفيتش - لم يكن مقتنعاً بعد بملاحظاته ، فعزم أن يطلب من التاجر ، في مستقبل الأيام ، أن يكتب شيئاً بخط يده ، يتوصل من دراسة الخط الى تحديد أكثر دقة لصفاته النفسية .

* البود معيار روسي يساوي ١٦,٣ كيلوغراماً . والأوقية الروسية تساوي ٤٠,٩١٥ غرام . المترجم .

وبعد الوزن بوقت قصير فحص الأطباء لافرينتي بتروفيتش للمرة الأولى . كانوا يرتدون أرواباً بيضاء ويبدون بسببها وجهين جديين . وبعد ذلك أخذوا يفحصون مرة ومرتين في اليوم ، لوحدهم أحياناً ، وبصحبة الطلبة في الغالب . وكان لافرينتي بتروفيتش يطلب من الطبيب يخلع قميصه ، ويستلقي على السرير بنفس الطاعة ، وصدرة الضخم اللحم مرتفع . وكان الأطباء يدقون على صدره بمطارق صغيرة ، ويضعون السماعات عليه ، ويتسمعون ، ويتبادلون الملاحظات فيما بينهم ، ويوجهون انتباه الطلبة الى هذه الخاصية أو تلك . وفي الغالب كانوا يبدأون بسؤال لافرينتي بتروفيتش كيف كان يعيش في السابق ، فكان يرد على مضض ، ولكن بأذعان . وقد تبين من أجوبته المتقطعة انه كان يأكل كثيراً ويشرب كثيراً ويحب النساء كثيراً ، ويشغل كثيراً . ومع كل « كثيراً » كان لافرينتي بتروفيتش يبتعد عن نفسه أكثر ولا يعرف الشخص الموصوف بكلماته هو . وكان من الغريب التصور بأن يكون ذلك الشخص هو بالفعل ، أي التاجر كوشيفيروف الذي كان يتصرف بهذا الشكل السيء والمضر بنفسه . وصارت الكلمات القديمة جميعها - الفودكا ، الحياة ، الصحة - تمتلئ بمضمون جديد وعميق .

وكان الطلبة أيضاً يتسمعون الى صدره ويدقون عليه . وكانوا في الغالب يأتون بغياب الأطباء ،

ويطلبون منه ان يتعرق ، بعضهم باقتضاب ومباشرة ، وبعضهم بتردد وتهيب ، ويبدأ من جديد فحص بانتباه واهتمام تام . وكانوا يسجلون يوميات مرضه شاعرين بأهمية المهمة التي يقومون بها ، فكان لافرينتي بتروفيتش يتصور انه قد نقل الآن بكليته الى صفحات مذكراتهم . ومع كل يوم صارت تقل ملكيته لنفسه ، فقد كان جسده خلال اليوم كله تقريباً مكشوفاً للجميع خاضعاً لهم . وكان لافرينتي بتروفيتش ، بناء على أوامر الممرضات ، ينقل هذا الجسد متثاقلاً الى الحمام أو يجلسه الى المائدة حيث كان جميع المرضى الذين ما يزالون قادرين على الحركة يتغدون ويشربون الشاي . كان الآخرون يجسونه من كل الجوانب ، وينشغلون به كما لم ينشغل به أحد في حياته السابقة ، ومع ذلك كان الشعور بالوحدة الشديدة لا يفارقه طوال اليوم . وكان لافرينتي بتروفيتش يوغل في مكان بعيد جداً ، وكل ما حوله له طابع وقتي غير ملائم لحياة طويلة . كانت الجدران البيضاء الخالية من أية لطخة ، والسقف العالية تنفث اغتراباً بارداً ، وكانت الأرضية ملمعة كثيراً على الدوام ، ونظيفة ، والهواء نقياً للغاية ، مع أن الهواء ، حتى في أنظف البيوت مشوب برائحة معينة تخص هذا البيت وأهله بينما الهواء هنا غفل ، وبلا رائحة . كان الأطباء والطلبة مهتمين دائماً بمعاملين . كانوا يمزحون ، ويربتون على الأكتاف ، ويطمئنون ، ولكن لافرينتي بتروفيتش كان يتصاور ، حين

ينصرفون عنه ان الذين كانوا الى جانبه هم مثل مرافقي القطار في هذا السفر غير المرئي ، وقد رافقوا آلاف الناس من قبل ، ويرافقون كل يوم . وكل احاديثهم واسئلتهم كانت تنصب على التذاكر . وكلما ازداد انشغالهم في جسده كانت وحدة نفسه تتعمق وترعبه أكثر .

سأل لافرينتي بيتروفيتش الممرضة :
- في أي الايام تستقبلون الزوار ؟
وكان يتكلم باقتضاب ، دون ان ينظر الى مخاطبه .

ردت الممرضة وهي ميالة للحديث :
- في ايام الاحاد والخميس . ومن الممكن في الايام الأخرى أيضاً ، اذا رجوت الطبيب .
- وهل يمكن الا يسمح لاحد بزيارتي ؟

اندعشت الممرضة ، ولكنها ردت ان ذلك ممكن ، والظاهر ان جوابها هذا قد سر مريضها الودع . فكان طوال اليوم امرح قليلاً ، وان لم يجعله هذا أكثر ميلاً لمبادلة الحديث ، ولكنه كان يسمع بعبوس اخف كل ما كان الشماس المريض يفيض في الثرثرة معه بمرح وصوت عال .

وقد جاء هذا الشماس من ولاية تامبوف ، ودخل المستوصف قبل يوم من دخول لافرينتي بيتروفيتش ، ولكنه كان على معرفة جيدة بجميع مرضى الردهات الخمس الموجودة في الطابق الأعلى . كان ربع القامة نحيفاً جداً واذا خلع ملابسه كان كل ضلع في صدره

يبرز ، وبطنه منخفض وكان جسده الواهن هذا ، الأبيض النظيف ، يشبه جسد صبي في العاشرة غير مكتمل النمو . وكان شعره غزيراً طويلاً وخطه الشيب ، مصفراً في اطرافه ، ملتقفاً . وكان وجهه الصغير الداكن ذو القسمات المتناسقة على صغرها ، مطل من هذا الشعر كما تطل الصورة من اطار كبير لا يناسبها من حيث الحجم . وكان مساعداً الطبيب ايفان ايفانوفيتش قد وضع الشماس في صنف الصارمين العصبيين بسبب تشابه وجهه مع الوجوه الداكنة الناحلة في الايقونات القديمة ، ولكنه غير نظرتة بعد أول محادثة ، بل وخاب ظنه ، لفترة من الزمن ، في أهمية علم قراءة الوجوه . كان الأب الشماس ، كما يسميه الجميع ، يتحدث برحابة صدر وصراحة عن نفسه وعائلته ومعارفه ، مثلما كان يستفسر بتعطش وسذاجة عن الآخرين ، فلا يثير غضب احد ، فيحدثونه بنفس الصراحة ، وحين كان يعطس احد كان الشماس يهتف من بعيد بصوته المرح :

- فيها الخير ! يا روعي ! - وينحني له .
ولم يكن احد يزوره ، وكان مرضه شديداً ، ولكنه لم يكن يشعر بالوحدة ، لأنه كان يعرف كل المرضى وحتى زائريهم ، فلا يشعر بوحشة . كان يتمنى للمرضى الشفاء عدة مرات في اليوم ، ويتمنى للأصحاء ان يقضوا اوقاتهم بسرور وهناء ، ويجد للجميع كلمة طيبة وقولاً جميلاً . وفي كل صباح كان

يهنىء الجميع ، بالخميس اذا كان اليوم خميساً ،
وبالجمعة اذا كان اليوم جمعة ، ومهما يكن الجو الذي
لم يكن يراه كان يؤكد دائماً أن الطقس بديع اليوم
بشكل نادر . ويقول ذلك ، وهو يضحك دائماً ضحكة
طويلة غير مسموعة ، ويضغط يديه على بطنه
المنخسف ، ويربت على ركبتيه بيديه ، بل ويصفق
بعض المرات . وكان يشكر الجميع على شيء تصعب
معرفته أحياناً . وهكذا كان يشكر لافرينتسي
بيتروفيتش بعد الشاي على الصحبة ويقول :
- تمتعنا بشرب الشاي معا ، متعة سماوية !
ليس كذلك ، يا أب ؟
رغم أن لافرينتسي بيتروفيتش كان يشرب الشاي
لوحده ، ولا يستطيع أن يترك أحداً يصاحبه .
كان فخوراً جداً بدرجة الشمس الساطعة التي لم يحصل
عليها الا قبل ثلاث سنوات ، وقبلها كان قارى
تراويل . وكان يسأل الجميع مرضى أو زائرين عن
طول زوجاتهم . وكان يقول بعد كل جواب :
- زوجتي طويلة جداً . واطفالي طلعوا عليها .
يصلحون أن يكون رمة ، بالتأكيد !
وكان كل شيء في المستوصف - النظافة ، وقلة
التكاليف ، ودماثة الأطباء ، والأزهار في الممر -
يشير بهجته الشديدة وتأثره . فكان يفيض بعواطفه
أمام لافرينتسي بيتروفيتش الصموت ضاحكاً تارة ،
راسماً علامة الصليب تارة أخرى ، وحين تعوزه
الكلمات كان يهتف :

- يا روعي ! وحق الرب ، يا روعي !
وكان الطالب توربتسكي الأسود الشعر ثالث
المرضى في الردمة الثامنة . وكان لا يبارح الفراش
تقريباً ، وكانت تزوره كل يوم فتاة فارعة تغض
طرفها تواضعاً ، وتتحرك بخفة وثقة . وتقطع الممر
بسرعة ممشوقة أنيقة في ثوبها الأسود ، وتجلس
عند رأس الطالب المريض ، وتظل جالسة من
الساعة الثانية تماماً حتى الساعة الرابعة ، حين
ينتهي وقت الزيارات ، حسب جدول المواعيد ،
وتقدم الممرضات الشاي للمرضى . كان الطالب
والفتاة في بعض الأحيان يتحدثان كثيراً وبحرارة
مبتسمين مخفضين صوتهما ، الا أن بعض الكلمات
المتفرقة التي يجب أن تقال همساً كانت تفلت منهما
عرضاً : «يا فرحتي !» «أحبك» ، وأحياناً كانا
يفرقان في صمت طويل ، يرمق أحدهما الآخر
بنظرات غامضة غائمة . عند ذاك كان أبونا الشمس
يسعل ، ويفادر الردمة بهيئة حازمة جادة . أما
لافرينتسي بيتروفيتش فقد كان يتصنع النوم ،
ويراهما من خلال جفنيه نصف المطبقين يتبادلان
القبلات . فيلتهب قلبه ألماً ، وتضطرب خفقاته
وتتسارع ، وتتضرس وجنتاه اللحميتان ،
وتختلجان . كما كانت الجدران البيضاء أيضاً
تراهما بنفس الاغتراب البارد ، وتلوح في بياضها
الناصع ابتسامة ساخرة غريبة حزينة .

كان النهار يبدأ في الردهة في وقت مبكر ، حين يتسرب لون رمادي كدر من أشعة الفجر الأولى ، وكان النهار طويلاً مضيئاً خاوياً . في الساعة السادسة يقدم شاي الصباح للمرضى ، فيشربونه ببطء ، ثم يضعون المحرار و يقيسون الحرارة . والكثيرون ، منهم ، مثل أبينا الشماس ، كانوا يعرفون ، لأول مرة ، أن لديهم حرارة ، فقد كانت لهم فكرة غامضة عنها ، وقياسها اجراء مهم جداً . وصارت الأنبوبة الصغيرة بعلاماتها السوداء والحمراء دلالة على الحياة ، وكان عثر الدرجة ارتفاعاً أو هبوطاً يجعل المريض مبتهجاً أو حزيناً . وحتى أبونا الشماس الدائم المرح كان يستقط فريسة لجزع مبهم ، ويبدأ بهز رأسه حيرة ، حين تكون درجة حرارة جسمه اقل من الدرجة التي قالوا له انها طبيعية .

كان يقول للافرينتي بيتروفيتش ، وهو يمسك المحرار في يده ، ويتفحصه باستنكار :
- أوه ، يا بني ، هذه هي النهاية .

فيرد لافرينتي بيتروفيتش ساخراً :
- ضعه أكثر ، طول بالك .

وكان أبونا الشماس يطول باله ، واذا ما حصل على عشر درجة زيادة صار مرحاً ، وشكر لافرينتي بيتروفيتش بحرارة على درايته . وكان قياس درجة

الحرارة يستقطب الاذهان نحو مسائل الصحة طوال اليوم ، فتنفذ كل وصايا الأطباء بحذافيرها ، وبشيء من العزيمة على الانتصار . وكان أبونا الشماس يبعث بتصرفاته عزيمة ملحوظة ، وهو يضع المحرار . ويتطلع الأدوية ، او ينفذ توجيهاً معيناً ، ويضفي على وجهه المهابة والصرامة ، كما كان يفعل حين يتحدث عن ترقيته الى درجته الكهنوتية . وكانوا يعطونه بعض اقداح لأغراض التحليل ، فكان يصفها في ترتيب شديد ، ويطلب من الطالب أن يرقمها بواحد واثنين وثلاثة ، لأن خطه لم يكن جميلاً بقدر كاف . وكان يغضب على المرضى الذين يجهلون توصيات الأطباء . وكان الطبيب قد منع مينايف المريض السمين الراقد في الردهة العاشرة من اكل اللحم ، فكان أبونا الشماس قنعه دائماً وبجدية قاطعة أن يلتزم بأوامر الطبيب ، ولكن مينايف كان يسبل اللحم من جيرانه على مائدة الغداء ، ويزدرده ازدراداً دون مضغ .

ومنذ الساعة السابعة يغمر الردهة نور نهاري ساطع متدفقاً من النوافذ الواسعة ، وتصير متنورة كما في العراء وتتألق الجدران البيضاء والأفرشة والجفان المنظفة والأرضيات وتلمع في هذا الضوء . وكان من النادر أن يقترب أحد من النوافذ ، فالشارع والعالم كله وراء جدران المستوصف قد فقد طرافته . في العالم هناك خلق كثير ، يعيشون حياتهم وعربات سكة منطلقة ، فصيل غابر من

الجنود في ملابسهم الرمادية ، وجنود اطفاء لامعة ،
وابواب مخازن تفتح وتغلق . أما هنا فمرضى
راقدون على أسرتهـم لا يكادون يقوون على ادارة
رؤوسهم الواهنة نحو النور ، يرتدون ارواباً
رمادية ، ويجرجرون اقدامهم بونى على الارضيات
الصقيلة . هنا اناس ما بين مرض وموت . كان
الطالب يتلقى جريدة ، ولكن لا هو ولا الآخرون
كانوا ينظرون فيها ، فان اختلالاً في عمل معدة
مريض مجاور كان اكثر اقلاقاً وتأثيراً في النفس
من الحرب ومن الأحداث التي كانت توصف فيما بعد
بأنها عالمية . وكان الأطباء والطلبة يأتون في حوالي
الساعة الحادية عشرة ، ومن جديد يبدأ فحص مدقق
يستغرق ساعات . وكان لافرينتي بيتروفيتش يرقد
ساكناً على الدوام ينظر في السقف ، ويرد باقتضاب
وعبوس ، بينما كان الشماس يقلق ، ويتكلم
باسهاب وبشكل ملتبس تحدوه الرغبة في أن يريح
الجميع ، ويبدي الاحترام للجميع فكان من الصعب
فهمه أحياناً .

كان يقول عن نفسه :
- حين تشرفت بالدخول الى المستوصف . . .

ويقول عن الممرضة :
- تفضلت ، واعطتني حقنة . . .

وكان دائماً يعرف بدقة في أية ساعة وفي أية
دقيقة شعر بحرقه في المعدة أو غثيان ، وفي أية
ساعة من الليل استيقظ ، وكـم مرة استيقظ .

وعند انصراف الأطباء يصير أكثر مرحاً ، ويشكر ،
ويتلطف ، ويرتاح كثيراً ، اذا استطاع أن يحيى
كل طبيب بمفرده ، وليس تحية عامة لجميع الأطباء .
ويقول مزحاً :

- هذا اليق ، سماوي .
ويعرض مرة أخرى للافرينتي بيتروفيتش
الصموت ، وللطالب الباسم كيف أنحنى يحيى
الدكتور الكسندر ايفانوفيتش أولاً ، من بعده
الدكتور سيميون نيكولايفيتش .

كان مرضه عضالاً لا شفاء له ، وأيامه
معدودات ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك ، فيتحدث
بفرح غامر عن رحلة سيقوم بها الى دير ترويتسكو-
سيرغيفسكيا بعد شفائه ، وعن شجرة تفاح في
حديقة بيته ، كأن يتوقع أن تثمر في الصيف
الحالي . وفي النهار الصاحي ، حين تترع الجدران
وارضية الردهة أشعة شمس لا مثيل لها بقوتها
الجبارة وجمالها ، وحين تصير الظلال على الأفرشة
الناصعة البياض شفافة مزرقه ، صيفية تماماً ، كان
الشماس يغني بصوت عال أغنية مؤثرة :

«نشيد الأغاني للسماء الشاهقة ، وللشمس
سلطانة العالم في بهي اشاركها تريحناً من
القسم ! . . .»

وكان صوته الواهن من طبقة التينور العاطفي ،
ياخذ بالارتعاش ، فيرفع الشماس منديله الى عينيه
من التأثر الذي يحاول أن يخفيه من المحيطين به ،

ويبتسم . وبعد ذلك كان يسير في الردهة ، ويدنو من النافذة تماماً ، ويرفع عينيه الى السماء الشاهقة الصافية التي كانت برحابها وبعدها عن الأرض ، وجمالها الرائق تبدو بحد ذاتها أغنية إلهية جليلة كان ينضم الى رناتها الظافرة صوت انساني راعش متهيب مفعم باللهفة العاطفية المختلجة :

«جسدي لا يقوى لكثرة آثامي ، وكذلك روحي ، فأضرع اليك ، يا منبع الخير ، وأمل اليائسين ، فاسعفني ! . .»

وكان الغداء يقدم في ساعة معينة ، ومرة أخرى الشاي ، والعشاء ، وفي الساعة التاسعة مساءً يأخذ المصباح الكهربائي بالاهتزاز بظليلته الزرقاء من القماش ، وتبدأ ليلة طويلة وموحشة كالיום . وتهمد حجرات المستوصف .

ويبقى الممر وحده مضاء ، وأبواب الردهات ، مفتوحة عليه باستمرار ، والساھرات على المرضى يحوكن فيه الجوارب ، ويتهاوسن ، ويتشائمسن بخفوت ، ومن حين لآخر كان أحد المستخدمين يمر قارعاً الأرض بقدميه قرعاً عالياً فتتجلى في الصمت كل خطوة من خطواته ، وتتلاشى بتدرج دقيق . وفي نحو الحادية عشرة تتلاشى أيضاً هذه الفلول الصوتية ليوم منقضى ، ويهبط سكون مرّن رنين الزجاج يلتقط كل نامة برهافة ، وينقل من ردهة الى أخرى أنفاس الناقهين الغافية ، وسعال المرضى المدنفين وآناتهم الضعيفة . ان هذه الأصوات

الليلية خفيفة وخادعة ، وغالباً ما كانت تنطوي على غموض مفزع ، فهل ان المريض كان يشخر ، أم هو الموت يطوف بين الأفرشة البيضاء والجدران الباردة .

وما عدا الليلة الأولى التي غرق لافرينتي ببتروفيتش فيها في نوم عميق لم يذق طعم النوم في كل ما تلاها من الليالي التي كانت تمتلئ بهواجس جديدة ومرهقة . كان يلقي ذراعيه المشعرين وراء رأسه ، ويجمد ، ويحدق متفرساً في السلك الملتوي المتراني من خلال الظليلـة الزرقاء ، ويفكر في حياته . لم يكن يؤمن بالرب ، وما كان يحب الحياة ، أو يخشى الموت . لقد اتفق كل ما كان له من قوة وحياة ، واستنزفها بلا ضرورة ، بلا حياة ، بلا فائدة ، بلا فرحة . وحين كان شاباً وشعره يتجعد على رأسه كان يسرق من الذي كان يعمل عنده ، وكانوا يكتشفونه ، ويضربونه ضرباً مبرحاً وبلا رافة ، فكان يكره الذين يضربونه . وفي اواسط عمره كان يخنق الصغار بما له من رأسمال ، ويزدري الذين كانوا يقعون في يديه ، فكانوا يردون عليه بالكره الشديد وبالخوف . وجاءت الشيخوخة ، وجاء المرض ، وصار الآخرون يسرقونه أيضاً ، وكان اذا اكتشف غير الحذرين منهم ضربهم بقسوة وبلا رحمة . . . وبهذا الشكل انقضت حياته كلها ، وكانت كلها كدراً مريراً متواصلاً وكراهية انطفأت فيها بسرعة ومضات الحب

العابرة ، دون أن تترك في نفسه غير الرماد البارد .
وهو الآن يريد أن يهجر الحياة وينسى ، ولكن
الليل الساكن كان قاسياً لا يراف ، فكان تارة
يضحك من حماقة الناس ، وحماقة نفسه ، وتارة
يصك فكيه الحديدين بتشنج خائفاً أنه طويلة .
ومن تشككه بأي انسان يمكن أن يحب الحياة كان
يدير رأسه نحو السرير المجاور حيث كان الشمس
ينام . ويتمعن طويلاً في اللفة البيضاء غير المحددة
المعالم ، ورقعة الوجه الداكنة واللحية ، ويهمس
بلؤم :

- أح . حق !
وبعد ذلك ينظر الى الطالب النائم الذي قبل
الفتاة في النهار ، ويهمس بلؤم أشد :

- أح . حق !
وفي النهار كانت روحه تجمد ، وجسده ينفذ
طائعا كل ما يؤمر به ، ويتناول الدواء ، ويتقلب .
ولكنه كان يضعف مع كل يوم يمر ، وسرعان ما
يصير في سكرينة تامة تقريباً ، جامداً ، جسيماً تلك
الجسامة الغادعة التي تبدو معافاة قوية .

والشمس أيضاً كان يضعف . فقد كان تنقله
في الردهات يقل ، وضحكه يتضاءل ، ولكن الشمس
حين تطل على الردهة كان يبدأ بالكلام الكثير
المرح ، ويشكر الجميع - والشمس والأطباء -
ويزداد تذكره لشجرة التفاح في حديقة بيته . وبعد
ذلك كان ينشد أغنية «السما الشاهقة» ، ويصير

وجهه الداكن الناحل أكثر وضاحة ، وأكثر مهابة
أيضاً ، فيعرف السامع على الفور أن الذي ينشد هو
شماس ، وليس قارئاً . وحين كان يفرغ من أغنيته
كان يقترب من لافرينتي بيتروفيتش ، ويحكي له
عن الورقة التي سلموها له عند تنصيبه في
الشماسة .

- بهذا الحجم ، - يقول مشيراً بيديه ، -
وكلها حروف ، سوداء مظلمة بلون مذهب . تحفة ،
وحق الرب !
ويرسم علامة الصليب عند الايقونة ، ويضيف
باحترام لنفسه :

- وفي الأسفل ختم الأسقفية ، ضخمة ، وحق
الرب ، بحجم الكعكة . تماماً ، يا روجي ! حقاً ، يا
بني ؟

وكان يفرق في الضحك ، وتغيب عيناه البراقتان
بشبكة من التجاعيد الدقيقة . ولكن الشمس كانت
تتوارى وراء السحابة الثلجية الرمادية ، ويخفت
النور في الردهة ، ويرقد أبونا الشمس في سريره
متنهداً .

٣

كان الثلج ما يزال في الحقول والحدائق ،
ولكنه أزيل من الشوارع منذ زمان ، فكانت
الشوارع جافة ، بل وكان الغبار يتصاعد من المناطق

المطروقة كثيراً بوسائل النقل . سوى أن خطوط الماء النحيلة كانت تخرج جارية من حدائق الدور الصغيرة المسيجة بأسيجة حديدية مشبكة ، ومن أفنية البيوت ، وتسيح بركا على الأسفلت المنبسط ، وكانت تمتد من جانبي كل واحدة من هذه البرك آثار أقدام مبللة ، تكون في بدايتها قائمة ، ومتتابعة ، وبعد ذلك خفيفة باهتة ، وكان الذين مروا بها رفعهم الهواء فجأة ، ولم يتركهم إلا في البركة التالية . كانت الشمس تفيض على الردهة بسيول داهقة من النور ، وتشيع حرارة في الجو ، يتحاشاها الناس ، كما في الصيف ، فلا يصدق أن الهواء خلف زجاج النوافذ الرقيق بارد وطري ورطب . والردهة نفسها بسقفها العالية كانت تبدو في هذا النور كوة ضيقة خائفة لا يبسط المرء ذراعيه فيها دون أن يصطدم بالجدران . كان صوت الشارع لا ينفذ إلى المستوصف من خلال الأطر المزدوجة ، ولكن حين كانت فتحة التهوية الكبيرة ذات المصراع الواحد تفتح في الردهة في الصباحات كان ينفذ إليها هزيج العصافير النشوان المرح الضاح فجأة وبدون عوائق . وتهدأ كل الأصوات الأخرى أمامه متواضعة كالمتكدره ، بينما يسري في الممرات ظافرا ، ويرتقي السلالم ، ويقتحم المختبر بجساره ، ويرن بين القواريير الزجاجية . وكان المرضى المعزولون في الممر يبتسمون لهذا الهزيج الساذج الصبياني الجسور ،

ويغمض الشماس عينيه ، ويمد ذراعيه إلى الأمام ، ويهمس :

- عصافير ! يا روجي ، عصافير !
وكانت فتحة التهوية تغلق ، وينقطع هزيج العصافير الصداح فجأة ، كما طلع فجأة ، ولكن المرضى كانوا يدخلون الردهة سراعا ، وكأنهم ما يزالون يأملون بأن يجدوا أصداه . المختفية ويتلفتون في أرجاء الردهة قلقين ، ويستنشقون بنهم موجات الهواء الطلق المنسابة .

والآن صار المرضى يقتربون من النوافذ أكثر فأكثر ، ويتوقفون قربها طويلا ، يمسحون بأصابعهم زجاجها النظيف أصلا ، يضعون المحرار دون رغبة ، ولا يتحدثون إلا عن المستقبل الذي كانت صورته منيرة جميلة لديهم قاطبة ، حتى لدى ذلك الصبي في الردهة الحادية عشرة ، الذي نقله الحراس في صباح أحد الأيام إلى حجرة منفردة ، ثم اختفى ولا أحد يعرف أين . «خرج من المستشفى» - كما كانت الممرضات تقول . قد رآه مرضى كثيرون ينقل مع فراشه إلى الحجرة المنفردة ، حملوه ورأسه إلى الأمام ، وهو جامد لا حراك له ، وعيناه الداكنتان الغائرتان تنتقلان بين هذا الشيء وذاك ، يطل منهما تعبير حزين خنوع مرهق لم يستطع أحد من المرضى أن يتحمل نظرتيهما فكانوا يشيحون وجوههم . وفيما بعد حدس الجميع أن الصبي مات ، ولكن هذا الموت لم يقلق أحدا

ولم يفزعه ، فقد كان الموت هنا اعتيادياً وبسيطاً كما هو في الحرب ، في أغلب الظن . خلال هذه المدة مات مريض آخر من الردهة الحادية عشرة نفسها . وكان عجوزاً قصير القامة ما تزال عليه بعض النظارة ، هذه الشلل ، فكان يسير متخلخلاً واحدى كتفيه الى الامام ، وكان يقص على المرضى جميعاً قصة لا تتغير عن دخول روسيا في المسيحية في عهد القديس فلاديمير . وقد ظل سر تأثيره بهذه القصة مجهولاً ، لأنه كان يتكلم بخفوت شديد وبشكل مبهم ، مدوراً الكلمات ، مبتلعاً نهاياتها ، ولكنه كان يحس بغبطة شديدة من هذه القصة كما يبدو ، ويهز ذراعه اليمنى ، ويقلّب عينه اليمنى ، فقد كان النصف الأيسر من جسده مشلولاً . وحين يكون مزاجه رائقاً كان يختم حكايته بهتاف ظافر وعال بشكل غير منتظر : «الله معنا !» وبعد ذلك كان ينصرف مسرعاً ، ضاحكاً باضطراب ، مغطياً وجهه بيده بسداجة . ولكنه كان حزيناً في أغلب الأحيان ، يشكو من أنهم يحرمونه من الحمام الدافئ الذي سيشفيه حتماً . وقبل بضعة أيام من وفاته سمحوا له بأخذ حمام دافئ في المساء ، فكان يردد طوال اليوم : «الله معنا !» ويضحك ، وحين قعد في الحمام سمع الذين مروا به مهمته السريعة المترعة بالهناء ، حين كان يعيد للمرة الأخيرة على مسامع الحارس الذي كان يراقبه قصة دخول روسيا في المسيحية في عهد القديس فلاديمير .

ولم تحصل تغيرات ملحوظة في وضع مرضى الردهة الثامنة . كان الطالب توربتسكي يتماثل للشفاء ، ولافرينتي بيتروفيتش والشماس يزدادان ضعفاً كل يوم . فقد كانت الحياة والقوة تنسلان منهما بهدوء لنيم ، حتى أنهما لم يفطنا الى ذلك . ولكأنهما كانا يقضيان الوقت كله راقدين في سريرهما ساكنين ، ولم يتمشيا في الردهة قط .

وظل الأطباء والطـلاب يترددون بانتظام في ارديتهم البيضاء ، وينصتون بسماعاتهم وينقرون ، ويتحدثون فيما بينهم .

في يوم الجمعة ، من الأسبوع الخامس من الصوم الكبير أخذوا الشماس لعرضه في محاضرة ، وقد عاد منها منفعلًا كثير الكلام . وكان يغرق في الضحك ، كما في الفترة الأولى ، ويرسم علامة الصليب ويشكر ، ويرفع منديلـه الى عينيه من حين الى آخر ، وبعد ذلك تصير عيناه محمرتين .

سأل الطالب :

- لماذا تبكي ، يا أبانا الشماس ؟

- آه ، يا بني ، دعك عن هذا ، - ردّ

الشماس بحنان ، - ما الـطف ذلـك ، يا روجي ! اجلسني سيميون نيكولايفيتش على كرسي وثير ، وظل هو واقفاً الى جانبي وقال للطلبة : «ها هو الشماس . . .» .

واتخذ أبونا الشماس سحنة الوقار ، وقطب حاجبيه ولكن الدموع ترقرت في عينيه مرة أخرى ،

فأدار الشماس وجهه استحياء وأوضح قائلاً :
 - تحدث سيميون نيكولايفيتش المحترم بشكل
 مؤثر جداً ، وبشكل جعل روعي تتقلب في داخلي .
 قال : من المؤسف أن الشماس . . .
 وانتحب أبونا الشماس .
 - كان فيما مضى شماس . . .
 ولم يستطع الشماس متابعة حديثه لتدفق
 الدموع في عينيه ، ولكنه حين رقد في سرير
 واستراح ، همس من تحت البطانية بصوت مكتوم :
 - وحكى حياتي كلها . كيف كنت قارئاً لا أكاد
 اسد رمقي ، ولم يتطرق الى زوجتي مشكوراً .
 وتحدث بشكل مؤثر جداً ، وكأنني قد مت وهو يلقي
 رثائي . قال : كان الشماس . . .
 وبينما كان الشماس يتكلم صار واضحاً للجميع
 أن هذا الرجل على عتبة الموت ، صار واضحاً ذلك
 الوضوح القاطع الرهيب حتى لكان الموت نفسه
 وقف قائماً بينهم . لقد كان هذا الشماس المرح
 يبت في النفس برودة مرعبة وقتاً ما ، وحين اختفى
 تحت البطانية ، وهو ينشج من جديد ، فرك
 توربيتسكي يديه المتثلجتين بعصبية ، بينما ضحك
 لافرينتي بيتروفيتش بفضافة ، وأخذ يسعل .
 كان لافرينتي بيتروفيتش شديد القلق في الأيام
 الأخيرة ، لا يفتأ يدير رأسه نحو السماء الزرقاء
 المتألقة من خلال النافذة . فقد تخلص عن جموده ،
 وراح يتقلب على الفراش بتشنج ، يثج ويغضب على

المرضات . وكان يقابل الطبيب بهذا القلق نفسه
 عند فحصه اليومي ، وقد لاحظ الطبيب ذلك في آخر
 الأمر . وكان رجلاً طيباً لطيفاً فسأله :
 - ماذا بك ؟
 - وحشة ، - قال لافرينتي بيتروفيتش ذلك
 وقد قاله بصوت كصوت الأطفال المعذبين ،
 وأغمض عينيه ليخفي دموعه . وظهرت ملاحظة
 جديدة في «سجله» المرضي بين الملاحظات الأخرى
 التي تسجل عدد نبضات قلبه وتنفسه ، وكم مرة
 تغوط وهذه الملاحظة تقول : «المرضى يشكو من
 الوحشة» .
 وكما من قبل ظلت تزور الطالب الفتاة التي
 كان يحب ، وكانت وجنتاهما تتوهجان من
 الهواء الطلق نضارة حية رقيقة ، حتى أن النظر
 اليهما يريح النفس ويحزنهما قليلاً في ذات الوقت .
 وكانت تقول ، وهي تنحني على وجه الطالب :
 - انظر كيف يتوهج خدائي .
 وينظر الطالب ، ولكن بشفتيه لا بعينه ،
 ينظر طويلاً ، وبقوة شديدة ، لأنه كان يسترد
 عافيته ، ويزداد قوة . الآن لم يعودا يستحيان من
 المرضي الآخرين ، فيتبادلان القبل علانية . كان
 الشماس عند ذلك يدير وجهه بأدب ، أما لافرينتي
 بيتروفيتش الذي لم يعد يتظاهر بالنوم ، فقد كان
 ينظر اليهما بتحد وسخرية . ولهذا كانا يحبان
 الشماس ، ولا يحبان لافرينتي بيتروفيتش .

يوم الـ... تسلم الشمس رسالة من أهله .
وقد ظل ينتظرها أسبوعاً كاملاً ، وكان جميع من
في المستوصف يعرفون أن الشمس ينتظر رسالة ،
فكانوا قلقين مثله . نهض من سريره طافحاً
بالحيوية مرحاً ، وطاف في الردهات ببطء ، يظهر
الرسالة للجميع ، ويتلقى التهاني ، ويشكر . وكان
الجميع يعرفون منذ زمان أن زوجته فارعة الطول
جداً ، إلا أنه يبلغهم الآن بصفة جديدة عنها :
- زوجتي تشخر كثيراً . حين ترقد على الفراش
لا تستطيع أن توقظها حتى لو ضربتها بعصا غليظة .
تمضي بشخيرها ولا تتوقف . روعة ، وحق الرب !
وبعدها يغمز أبونا الشمس بشيء من المكر ،
ويهتف :

- هل رأيت مثل هذه التحفة ؟ ها ، يا بني ؟
وكان يعرض الصفحة الرابعة من الرسالة ،
وفيها رسمت بخطوط مختلة ركيكة كف مفرودة
الأصابع ، وفي وسطها ، وعلى الراحة بالضبط
كتبت : «توسيك وضع يده» والظاهر أن توسيك
كان ، قبل أن يضع يده ، مشغولاً بعمل متعلق
باستعمال الماء والطين ، لأن آثار بقع واضحة بقيت
على الورقة في مواضع قبالة انحناءات الكف
والأصابع .

أليس حفيدي لطيفاً ؟ لم يتجاوز الرابعة من
العمر ، ولكنه ذكي الى حد لا يستطيع أن اصفه
لكم . وضع يده ، ها ؟

ويضرب أبونا ركبتيه بيديه ابتهاجاً بهذا العمل
الظن ، ويجمد بسبب نوبة ضحك خافت لا يكبح
وللحظة يصير وجهه الشاحب المصفر من بقائه
طويلاً لا يلامس الهواء الطلق وجه رجل معافى ما
تزال أيامه غير معدودات . ويصير صوته قوياً
رناناً ، وتفيض حيوية رنات أغنية المؤثرة :

«نشيد الأغاني للسماء الشاهقة ، وللشمس
سلطانة العالم في بهي اشراقها تريحنا من
القسم . . .» .

في هذا اليوم اخذوا لافرينتي بيتروفيتش الى
المحاضرة . وقد عاد منها منفعلاً مرتعش اليدين ،
يلتوي فمه بابتسامة ساخرة ، ودفع في غضب ،
المرضة التي كانت تساعد ليرقد في فراشه ،
واغمض عينيه في الحال . ولكن أبونا الشمس
الذي كان قد مر بتجربة المحاضرة ، انتظر حتى فتح
لافرينتي بيتروفيتش عينيه ، وبدأ يستطلع عن
تفاصيل العرض بتعاطف :

- مؤثر ، يا بني ، ها ؟ اظنهم قالوا عنك
ايضاً : كان فيما مضى تاجر . . .
تقلص وجه لافرينتي بيتروفيتش حنقاً ،
وحدج الشمس بنظرة حارقة ، وأدار له ظهره ،
ثم عاد فأغمض عينيه غير ملتفت الى شيء .

فتابع الشمس يقول :
- لا بأس ، يا بني ، لا تقلق . ستشفى ،
وتعود الى ديدنك ، بل وأكثر ، بشكل سماوي .

وكان يرقد على ظهره وينظر حالماً الى السقف الذي كان ينعكس عليه شعاع شمس لعوب لا يعرف مصدره . خرج الطالب ليدخن ، وفي لحظات الصمت لم تسمع الا انفاس لافرينتي بيتروفيتش الثقيلة القصيرة .

- نعم ، يا بني ، - تكلم ابونا الشمساس ببطء وفرح هادي . - اذا صادف ان تمر في انحنائنا ، زرني في بيتي ، فهو يبعد عن المحطة خمسة فراسخ ، ويمكن ان يدلك عليه اي شخص . بحق الرب ، تعال ، وسأضيئك بكل سرور ، يا روحي . عندي كفاس لا اقدر ان اصفه لك لكثرة حلاوته . وتحسّر الشمساس ، وسكت برهة ، ثم مضى يقول :

- سأخرج من المستشفى في عشية عيد العنصرة . وسأقدم كفارة الخبز المقدس عن اسمي . ثم اتجول في الكاتدرائيات ، وأخذ حماماً في الحمامات . . كيف يسمونها ؟ التجارية ، ربما ؟ لم يجب لافرينتي بيتروفيتش ، فحسم ابونا الشمساس الأمر بنفسه :

- نعم ، التجارية . ومن هناك ، يا روحي ، الى البيت !

وصمت الشمساس في هناة ، وفي الصمت المخيم بدت انفاس لافرينتي بيتروفيتش القصيرة اشبه بهسيس حائق لقاطرة بخارية محبوسة على خط احتياطي . وقبل ان تتلاشى امام خيال الشمساس

الصورة التي رسمها عن سعادته الدانية نفذت الى أذنه كلمات مرعبة غير مفهومة . وكان الرعب يتجسّد في رنينها ، يتجسّد في الصوت الغليظ الحائق الذي كان يقذف هذه الكلمات القاسية الخالية من المعنى :

- ستروح الى مقبرة فاغانكوفو ، هنا ! قال الشمساس غير فاهم :
- ماذا تقول ، يا بني ؟
- الى مقبرة فاغانكوفو ، أقول : حان أجلك ، فاغانكوفو .

- ردّ لافرينتي بيتروفيتش ، ودار وجهه نحو الشمساس ، بل وأنزل رأسه من المخذة ، حتى تصيب كلماته الشخص الموجهة اليه ، وتابع قوله : - والا فسيسحبونك الى المشرحة ، ويشرحونك ، يا روحي !

وضحك لافرينتي بيتروفيتش . فتمتم ابونا الشمساس :

- ماذا حصل لك ، الله يجازيك !
- لم يحصل شيء لي . أما كيف يدفنون الموتى هنا ، فأنس وتسلية . في البداية يقطعون الذراع ويدفنونها ، ثم يقطعون الرجل ، ويدفنونها ، وهكذا يظلون سنة كاملة يجرجرون الميت التعيس دون ان يتعبوا .

سكت الشمساس ، وثبتت بصره في لافرينتي

بيتروفيتش ، بينما مضى هذا يتكلم ، كلاماً منفرداً وقاسياً في صراحته الوقحة .

- انظر الى نفسك ، يا ابانا الشماس ، وفكر : ما انت عجوز ، وبليد الى حد الطهر . ولكنك تهذر بشكل مقرف : « اخرج في عيد العنصرة ، واذهب الى الحمام » . او ما تهذر به عن شجرة التفاح . لم يبق من حياتك غير اسبوع ، بينما انت . . .

- اسبوع ؟

- نعم ، اسبوع . الاطباء يقولون هذا لا انا . كنت قبل ايام مستلقياً اتظاهر بأنني نائم ، وكنت انت خارج الردهة . واسمع الطلبة يقولون : عن قريب سيرحل شماسنا الى الآخرة . قد يمهلـه الموت اسبوعاً .

- يمهلـه ؟

- وهل تحسبه يحن عليك ؟ - وشدة دلافرينتي بيتروفيتش على حرف « الهاء » بقوة تعبيرية مخيفة . ثم رفع قبضته الضخمة المقرنصة الى فوق ، وتمعن في خطوطها الجسيمة في حزن ، وتابع قوله : - انظر ، اذا أنزلتها على شخص ستكون النهاية ، نفس النتيجة . آه ، يا شماس يا فارغ العقل . « اخرج في عيد العنصرة ، واذهب الى الحمام » . الذين عاشوا احسن منك ، لم ينجوا من الموت . فكيف انت !

صار الشماس اصفر الوجه كالزعفران . وعجز عن الكلام ، وعن البكاء ، وحتى عن الأنين . أنزل

رأسه على المائدة بصمت وببطء ، في البطانية مجاهداً أن يتحاشى الضوء وكلمات لافرينتي بيتروفيتش ، وخمد . ولكن لافرينتي بيتروفيتش لم يستطع ان يسكت ، وكان بكل كلمة يطعن بها الشماس يقتنص لنفسه الفرح والارتياح . وكان يكرر بطيبة نفس مصطنعة :

- نعم ، يا ابانا . بعد اسبوع . كيف تقول : النهاية ؟ هذه هي نهايتك . بينما تتخيل نفسك في الحمام . الا اذا سلقونا انا وانت بالماء الساخن في الآخرة ، وهذا محتمل جداً .

ولكن الطالب دخل في تلك اللحظة ، فسكت لافرينتي بيتروفيتش على مضض . حاول أن يتغلى بالبطانية ، مثلما يفعل ابونا الشماس ، ولكنه اخرج رأسه من الظلمة بعد قليل ، وراح يحرق في الطالب بسخرية ، وسأله بنفس الطيبة المصطنعة والابتسامة الساخرة :

- أرى أختك لا تأتي اليوم أيضاً ؟ فرد الطالب من النافذة بجواب عابس : - نعم ، مريضة .

فقال لافرينتي بيتروفيتش : - يا خسارة ! ماذا بها ؟

ولكن الطالب لم يرد . يبدو أنه لم يسمع السؤال . كانت الفتاة التي يحبها قد تغيب عن الموعد ثلاث مرات . واليوم أيضاً لا تأتي . تظاهر الطالب بالنظر الى الشارع من النافذة بلا غاية ، ولكنه في

الواقع كان يحاول أن ينظر الى اليسار ، حيث يختفي المدخل الى المستشفى ، ويضغط جبينه على الزجاج تماماً . وهكذا مضى الموعد المعتاد للزيارة ، وهو ما بين الثانية والرابعة ، امضاء بين النافذة والساعة الحائطية منقلاً بصره بين هذه وتلك . وشرب قدح شاي بلا رغبة وهو متعب ممتقع الوجه ، واستلقى على فراشه دون أن يلحظ سكوت الشماس الغريب ، ولا ميل التاجر العجيب الى الكلام .

— الأخت لم تأت !
قال التاجر ذلك ، وابتسم ابتسامة غير لطيفة .

٤

كانت تلك الليلة خاوية طويلة بشكل معذب وكذلك كان المصباح في اشتعاله تحت الظليلة الزرقاء وكان السكون المرن يرتعش ويرعب ناشراً في الردهات الأناث الخفيفة والشخير وأنفاس المرضى الغافية . سقطت على الأرض في مكان ما ملعقة شاي ، فكان صوتها صافياً كصوت جرس ، وبقي لوقت طويل عالقاً في الهواء الخافت الساكن . في تلك الليلة لم ينم احد في الردهة الثامنة . ولكن اثنين من مرضاها كانا يرقدان هادئين يتظاهران بالنوم ، والطالب توربتسكي وحده ظل يتقلب قلقاً غير مفكر في وجود غرباء في الردهة ينبطح تارة على ظهره ، وتارة على وجهه ، ويزفر زفرات عميقة ، ويعدل

البطانية النازلة عنه . هم مرتين أن يدخن ، ولكنه غفا أخيراً ، لأن بدنه المتشافي تغلب أخيراً . وغط بنوم عميق ، وراح صدره يعلو ويهبط بأنفاس متساوقة خفيفة . ولربما جاءت أحلام لطيفة أيضاً ، فقد لاحظت ابتسامة على شفثيه بقيت لوقت طويل غريبة ومؤثرة في النفس بينما كان جسمه ساكناً ، وعيناه مغمضتين .

في قاعة المحاضرات المظلمة الداكنة دقت الساعة الثالثة عن بعد ، وعند ذلك بلغ أذن لافرينتي بيتروفيتش صوت هادي راعش ملغز بزغ بعد دقائق الساعة الموسيقية ، وبدا للموهلة الأولى رقيقاً جميلاً مثل أغنية حزينة تأتي من بعيد . وأرهف لافرينتي بيتروفيتش سمعه : كان الصوت يتسع ويتنامى منغماً كما كان ، حتى صار يشبه نحيباً خافتاً لطفل حُبِس في غرفة مقفلة ، فهو يكتب في صدره النشجات والزفرات . وفي اللحظة التالية استيقظ لافرينتي بيتروفيتش تماماً ، وحس اللغز في الحال : ان الذي كان ينتحب نحيباً رجل راشد ، ينتحب نحيباً قبيحاً حابساً دموعه شاهقاً .

— من هذا ؟ — سأل لافرينتي بيتروفيتش مذعوراً ، ولكنه لم يتلق جواباً .

خدم النحيب ، وبخموده صارت الردهة أكثر كآبة ووحشة . كانت الجدران البيضاء جامدة وباردة ، ولا مخلوق حي يمكن أن تشكى اليه الوحدة والخوف ، وتطلب منه الحماية .

وكرر لافرينتي بيتروفيتش :
 - من يبكي ؟ أهذا أنت ، يا شماس ؟
 سكن النحيب قريباً من لافرينتي بيتروفيتش ،
 والآن لم يعد يعيقه شيئاً ، فافلت . أخذت البطانية
 التي تغطي الشماس تتماوج ، وارتطمت اللوحة
 المعدنية بشيء حديدي فأرسلت قرعاً مهتزاً . تمتم
 لافرينتي بيتروفيتش :
 - كفاك ، كفاك ! لا تبك .

ولكن أبانا الشماس كان يبكي ، وجسمه المنتحب
 المهتز المضطرب يزداد ارتطاماً باللوحة المعدنية .
 قعد لافرينتي بيتروفيتش على فراشه ، واستغرق
 يفكر ، ثم أنزل قدميه المنتفختين على الأرض ببطء .
 وحين وقف عليهما ، رطم رأسه شيء دافئ هادر ،
 وكان عشر رحي صارت تدور وتهدر في دماغه .
 انقطعت أنفاسه ، وترامى السقف بسرعة الى الأسفل .
 استرد لافرينتي بيتروفيتش أنفاسه ، وهو لا يكاد
 يقف على رجله من نوبة الدوار ، شاعراً بدقات
 قلبه بوضوح ، وكان مطرقة تدق في داخل صدره ،
 وقطع بعزيمة المسافة التي كانت تفصله عن
 الشماس ، وهي لا تزيد عن خطوة ونصف . وبعدها
 اضطر الى أن يستريح من جديد . ووضع يده ،
 وهو يتنفس من أنفه تنفساً متقطعاً ثقيلاً ، على
 الكومة الراجعة ، وقد تنحت لتتركه يجلس على
 السرير ، وقال متوسلاً :

- لا تبك . ما الذي يبكيك ؟ ! تخاف أن
 تموت ؟
 جذب أبونا الشماس البطانية من رأسه بحركة
 حادة ، وصاح متشكياً :
 - آواه ، يا بني !
 - ولكن ماذا بك ؟ متخاف ؟
 - لا ، يا بني ، لا أخاف ، - أجاب الشماس
 بنفس الصوت المترنم بالشكوى ، وهز رأسه
 بحيوية . - لا ، لا أخاف ، - قال ذلك ، واستدار
 على جنبه من جديد ، وجعل يشن ، ويرتعد من
 النحيب .
 رجاه لافرينتي بيتروفيتش :
 - لا تزعل مني على ما قلته لك قبل .
 بلاهة ، يا أخ ، أن تزعل .
 - ولكنني غير زعلان . ولماذا أزعل ؟ وهل أنت
 الذي دعوت الموت الي ؟ هو الذي يأتي من تلقاء
 نفسه .
 وزفر أبونا الشماس زفرة عالية متصاعدة .
 فسأل لافرينتي بيتروفيتش بنفس البطء والحيرة :
 - ولماذا تبكي ، إذن ؟
 أخذت الشفقة على الشماس تزول ، وتخالطها
 حيرة معذبة . فراح ينقل بصره المتسائل من وجه
 الشماس القاتم الى لحيته الشائبة ، ويشعر بجسمه
 النحيل يضطرب في عجز تحت يده ، تاخذه الحيرة ،
 فيروح يسأل بالحاح :

- ولماذا تولول ؟

امسك ابونا الشمس وجهه بيديه ، ونطق بصوت مترنم عال مطوَّحاً رأسه :

- اواه ، يا بني ، يا بني ! حسرة على الشمس . . . ليتك تعرف كيف هي عندنا . . . في ولاية تامبوف ، كيف هي تشرق . يا . . . رو . . . حي !

- ما علاقة الشمس ؟ سأل لافرينتي بيتروفيتش غير فاهم ، واغتاط من الشمس . ولكنه تذكر على الفور دفق الضوء الحار الذي كان ينصب نهاراً من النافذة ، ويذهب ارضية الردهة ، وتذكر كيف كانت الشمس تتوهج في ولاية ساراتوف على الفولغا ، وعلى الغابة ، وعلى اللب المترب في الحقل ، وصفق كفاً بكف ، وضرب بهما صدره ، وسقط على المخدة عند راس الشمس ينتحب نحيباً متحسراً . وهكذا

اخذ الاثنان ينتحبان . ينتحبان على الشمس التي لن يرياها بعد الآن ، وعلى شجرة التفاح التي ستثمر بدونهما ، وعلى الظلام الذي سيلفهما ، على الحياة الحلوة والموت القاسي . وكان السكون المرن يتلقف النشجات والزفرات ، وينشرها على الردهات خالطاً اياها بالشجير المعافى للساهرات على المرضى وقد تعبن خلال النهار ، وبانات وسعال المرضى المدنفين وانفاس المتشافين الخفيفة . كان الطالب نائماً ، ولكن البسمة اختفت من شفتيه ، وارتمت ظلال زرق على وجهه الجامد ، الحزين المعذب في جموده هذا . كان المصباح الكهربائي يصدر ضوءاً راعشاً لا حياة

فيه ، والجدران البيضاء العالية تطل بلامبالاة وبلادة . ومات لافرينتي بيتروفيتش ، في الساعة الخامسة من الليلة التالية . وكان قد غفا غفوة عميقة منذ المساء ، واستيقظ يخامره احساس بأنه يحتضر ، وبأن عليه أن يفعل شيئاً . أن يطلب النجدة ، يصرخ ، أو يرسم علامة الصليب ، وفقد الوعي . ارتفع صدره عالياً وهبط ، واختلجت رجلاه ، وانفرجتا ، وتدلّى رأسه المثقل من على المخدة ، وهوت قبضته اللحيمة من صدره وسمع ابونا الشمس صريف السرير ، من خلال النعاس ، فسأل دون أن يفتح عينيه :

- ماذا بك ، يا بني ؟

ولكن اي صوت لم يرد عليه ، وغط في اغفاء مرة أخرى .

في النهار اكد له الأطباء أنه سيعيش ، فصدق بهم ، وكان سعيداً بذلك . ظلّ ينحني من السرير برأسه وحده ، ويهني الجميع بالعيد .

وكان الطالب سعيداً ايضاً ، فنام نوماً عميقاً ، كنوم الأصحاء . في ذلك اليوم جاءت الفتاة لزيارته ، وقبلته بحرارة ، وجلست أطول من الساعة المحددة بعشرين دقيقة تماماً . وطلعت الشمس .

١٦-٥ شباط ١٩٠١

حياة فاسيلي فيفيسكي

كانت حياة فاسيلي فيفيسكي كلها مثقلة بقدر صارم مبهم . فكان ، كالملعون بلعنة مجهولة الأصل ، يزرع منذ صباه ، تحت عبء الكتابة والمرض والشقاء ، ولم تكن الجراح النازفة في قلبه تندمل قط . كان وحيداً بين الناس ، مثل كوكب بين الكواكب ، يحيط به هواء غير اعتيادي مهلك ومدمر ، كسحابة شفافه غير مرئية . كان ، وهو ابن قس من قساوسة الأقاليم النائية خنوع وصبور ، خنوعاً وصبوراً مثل أبيه ، ظل زمناً طويلاً لا يفطن الى ذلك الكيّد اللئيم الخفي الذي كان يهيل المصائب على رأسه القبيح الأشعث . كان يسقط ، وينهض ببطء . ومثل نملة دؤوبة كان يعيد بناء بيته على طريق الحياة الكبير قشة وراء قشة ، وحبّة رمل وراء حبّة . وحين صار قساً تزوج فتاة لطيفة ، وأنجب منها ولداً وبناتاً ، واعتقد أن كل شيء استقام له ورسخ ، مثل سائر الناس ، وسيظل كذلك الى الأبد . وكان يمجّد الرب ، لأنه كان يؤمن به إيماناً

جليلاً وبسيطاً ، إيمان قس ، وإيمان انسان وديع . وقد حدث هذا الحادث في العام السابع من فترة حياته الميمونة ، في ظهيرة قائظة من شهر تموز ، اذ خرج اولاد القرية للمسباحة ، ومعهم ابنه فاسيلي المسمى على اسمه ، والوديع الأسود الشعر مثل أبيه . وغرق فاسيلي الصغير . وقد ركضت زوجة القس الشابّة الى الشاطئ مع الناس ، وظلت عالقة في ذهنها الى الأبد الصورة البسيطة والرهيبه لموت انسان : ضربات قلبها المدمدمة الصماء ، وكان كل ضربة ستكون الأخيرة ، وشفافية الهواء غير الاعتيادية التي كان تتحرك فيها شخوص الناس المألوفين والبسطاء ولكنهم في تلك اللحظة بدوا متفردين وكأنما انسلخوا عن الأرض ، وراثاة الأقوال المضطربة التي كانت كل كلمة منها تدور في الهواء وتذوب ببطء وسط كلمات تولد من جديد . وظلت طوال حياتها تشعر بالرعب من النهارات الباهرة الشمس . فتتخيل ظهوراً عريضة مغمورة بالشمس ، وأقداماً حافية تقف راسخة وسط كرات الكرب المهشمة ، وخفقات منسقة لشيء أبيض ساطع يدور متقلّباً في قعره جسد خفيف قريب اليها غاية القرب ، وبعيد عنها غاية البعد ، ومغترب الى الأبد . ولزمن طويل ، بعد أن دفن فاسيلي الصغير ، ونما العشب على قبره ، ظلت زوجة القس تكرر دعاء جميع الأمهات المنكوبات : «الهي ، خذ حيائي ، على أن ترد لي ولدي !» .

وبعد قليل صار جميع من في بيت الأب فاسيلي يخافون النهارات الصيفية المشرقة ، حين تسطع الشمس بنور فياض ، وتلهب النهر الغداع ببريق لا يحتمل . في مثل هذه النهارات التي يفرح بها جميع البشر والدواب والحقول كان أهل بيت الأب فاسيلي جميعهم ينظرون الى زوجته بفزع ، ويتحادثون بصوت عال عن قصد ويضحكون ، بينما كانت الزوجة تنهض متكاسلة كامدة ، وتحدهم بنظرة متفرسة غريبة تجعلهم يفضون الطرف عنها ، وتطوف في البيت بفتور باحثة عن هذا الشيء أو ذاك ، عن مفاتيح ، أو ملعقة ، أو قدح . بينما كان أهل البيت يسعون الى وضع كل الأشياء اللازمة ظاهرة للعيان . ولكنها كانت تمضي في بحثها ، وكان بحثها يزداد عناداً وهدأً كلما ازداد ارتفاع الشمس الساطعة البهيجة في السماء . وكانت تقبل على زوجها ، وتضع يدها الباردة على كتفه ، وتكرر مستفسرة :

- فاسيا ! فاسيا ؟

- ماذا ، يا عزيزتي ؟ - كان الأب فاسيلي يجيب بخضوع ويأس ، ويعدل شعرها المبعثر بأصابعه الملوحة الراعشة ذات الأظافر الطويلة الملوثة بالتراب . وكانت هي ما تزال شابة وجميلة ، فكانت يدها تنطرح على غفارة زوجها البيئية القديمة بيضاء ثقيلة كالمرمر . - ماذا ، يا عزيزتي ؟ حبذا لو تشربين قدحاً من الشاي . أنت لم تشربي بعد ؟

* صيغة التحجب من «فاسيلي» . المترجم .

- فاسيا ، فاسيا ؟ - كانت تكرر متسائلة ، وتلقي عن كتفه يدها وكأنها زائدة غير لازمة لها ، وتظل تبحث بمزيد من اللهفة ومن القلق . وبعد أن طافت في كل حجرات البيت غير المرتبة كانت تخرج الى الحديقة ، ومن الحديقة الى الفناء ، ثم تدخل البيت ثانية ، والشمس تزداد ارتفاعاً ، والنهر الهادئ الدافئ يتراعى لامعاً من خلال الأشجار . وكانت ابنتها فاسيا تجر نفسها وراءها في جهامة خطوة خطوة متشبثة في فستان أمها بيدها جدية كنيبة ، وكان المستقبل بظله الأسود قد خيم على قلبها منذ الآن ، وهي ما تزال في السادسة . وكانت تجاهد لتلحق خطواتها الصغيرة بخطوات أمها الواسعة السائبة ، وتحدهج موحشة ونظرة شزراء الحديقة المألوفة والغامضة الغادية أبداً ، وتمد يدها الطليقة الى ثمار الريباس الحامضة ، وسحنتها عابسة ، وتقطفها خلسة مخدشة ذراعها الأشواك الحادة . فتجعلها هذه الأشواك الحادة كالأبر ، وثمار الريباس الحامضة المقرقشة أكثر وحشة ، حتى لتود أن تكشف ، مثل جرو منبوذ .

وحين كانت الشمس ترتفع الى السمات ، كانت زوجة القس تحكم اغلاق الصفاقات على النافذة في حجرتها ، وتشرب في الظلام الى حد السكر ، مؤجلة بكل قدح شجنأ حاداً ، مؤرنة في قلبها الذكرى على ابنها الراحل . فكانت تبكي ، وتحدث بصوت متلجلج متعسر كهصوت قارى مبتدى يقرأ كتاباً صعباً ،

تحدث عن شيء واحد لا يتغير ، عن ذلك الصبي
الأسود الشعر الوداع الذي كان يعيش ويضحك ثم
اختطفه الموت ، فكانت كلماتها المرتلة المستعارة
من الكتب تحيي عينيه وابتسامته ، وكلامه العاقل
ككلام الشيوخ . أقول له : «فاسيا ، يا فاسيا ،
لماذا تغايط القطعة ؟ لا يليق بك ، يا حبيبي . الرب
أمر الجميع بالشفقة على الخيول والقطط والفراخ» .
فيرفع حبيبي الي عينيهِ الصافيتين ، ويقول :
«ولماذا لا تشفق القطعة على فراخ الطيور ؟ الحمامات
تفرخ مختلف الفراخ ، والقطعة تأكل الحمامات
والفراخ تظل تبحث عن أمهاتها» .

والأب فاسيلي يصغي إليها في طاعة ويأس ،
وفي الخارج كانت ناستيا تجلس على الأرض تحت
الصفاقة الموصدة ، ووسط الأرقطين والريباس
والقراص الشائك ، وتلعب بالدُمى في ضجر . كانت
لعبتها المفضلة دائماً أن تجعل الدمية لا تطيعها ،
فتعاقبها بلي ذراعيها ورجليها الى حد الألم ،
وتسوطها بالقراص .

وحين رأى الأب فاسيلي لأول مرة زوجته في
حالة سكر ، وأدرك من وجهها المنفعل المتمرد في
قناع من البهجة المريرة أن ديدنها هذا سيستمر ،
انقبض بكليته ، وضحك ضحكة هادئة بلهاء ، فاركاً
يديه الجافتين العاريتين . وظل يضحك طويلاً ،
 ويفرك يديه طويلاً ، وكان يبدي صلابة ، ويحاول
أن تلج ضحكه الناشز ، ويدير وجهه عن زوجته

الباكية ، ويضحك في سره كالتلميذ . ولكنه بعد
ذلك انقلب جاداً فجأة ، وانصك فكاه وكأنهما من
حديد ، ولم يستطع أن يلفظ كلمة تسرية لزوجته
اللائبة ، ولا كلمة حلوة . وحين غفت الزوجة ، رسم
القس علامة الصليب عليها ثلاث مرات ، وبحث عن
ناستيا في الحديقة ، ومسند على شعرها ببرود ، وخرج
الى الحقل .

سار في الدرب وقتاً طويلاً وسط سنابل
الشوفان العالية ، ونظر في الأسفل الى التراب الأبيض
الناعم الذي ما يزال يحتفظ بأثار عميقة لكعوب ،
ومعالم مدوّرة حية لأقدام حافية . كانت السنابل
القريبة من الطريق معكوفة ومكسورة ، وبعضها
مطروحاً في عرض الدرب مسحوقاً مسوداً مسطحاً .

وتوقف الأب فاسيلي عند منعطف الدرب .
كانت السنابل الثقيلة بسويقاتها النخيلة تمتد أمامه
وبعيداً حوله في كل الجهات ، وفوقه سماء تموزية
لاهبية مترامية الأطراف مبيضة من وقدة الحر ، ولا
شيء آخر - لا شجرة ، ولا مبنى ، ولا إنسان ، الا
هو ضائعاً وسط السنابل المتكاثفة أمام وجه السماء
الملتبهة . رفع الأب فاسيلي بصره الى فوق ، وكانت
له عينان صغيرتان غائرتان سوداوان كالفحم ،
وكان لهب السماء المنعكس عليهما يشعلهما بنور
ساطع . وضع الأب يديه على صدره ، وهمّ أن يقول
شيئاً . اهتز فكاه المصكوكان الحديديان ، ولكن لم
ينفرجا ، فصرف الأب بأسنانه ، وفصلهما بقوة ،

وبحركة شففيه هذه ، الشبيهة بتثاؤبسة مكبوحة
صدرت كلمتان واضحتان بعلو صوت :
- انا أو من .

ضاع صدى صيحة الدعاء هذه الشبيهة بتحد
مخبول في صحراء السماء وكثافة السنابل . فكرر
ثانية ، وكأنه يفرض على أحد ، ويؤكد لأحد ويحذره
بلهفة :

- انا أو من .
وحين عاد أخذ يعيد من جديد بناء بيته المهدم
قشة وراء قشة ، كالنملة ، وراقب كيف تحلب
البقرات ، ومشط بنفسه شعر ناستيا الطويل
الخشن ، ورغم الساعة المتأخرة خرج راكباً ، وقطع
عشرة فراسخ الى طبيب المقاطعة يستشيريه في مرض
زوجته . واعطاه الطبيب قنينة قطرات .

٢

لم يكن الأب فاسيبي محبوباً من اتباع الأبرشية
ولا من حاشيتها . فقد كان يؤدي القداس بشكل
سيء تعوزه المهابة : كان صوته جافاً ، متمتماً ،
يسرع أحياناً ، حتى لا يكاد الشماس يلحق به ،
ويتباطى أحياناً أخرى . ولم يكن نفعياً ، ولكنه كان
يتلقى النقود والهبات بطريقة جعلت كل الناس
يعتبرونه شديد الطمع ، ويستهنون به في غيابه .
وكان جميع أهالي الناحية يعرفون انه منكود جداً

في حياته ، فكانوا يتجنبونه بازدراء ، معتبرين الالتقاء
به والحديث معه علامة نحس . وكان في عيد شفيعة
القديس ، المصادف ٢٨ تشرين الثاني يدعو العديد
من الضيوف الى الغداء ، فيوافقون تحت رجائه
الحار ، ولكن لا يأتي منهم غير الحاشية ، ولا يلبي
الدعوة أحد من رجال الأبرشية . فيشعر بالخجل أمام
الحاشية ، وتتكرر زوجته أكثر من الآخرين ، لأن
ما جلبته من المدينة من أطايب الطعام والنبيد
سيذهب هباء .

- لا أحد يريد حتى المجيء إلينا ، - كانت
تقول وهي صاحبة حزينة ، حين ينصرف الضيوف
الذين أسرفوا في الشرب ، وتجاوزوا حدود المجاملة ،
غير مقدرين أنواع النبيد الغالية ، ولا أطايب
الطعام وسقطوا على الطعام حتى أتوا عليه .

وكان ايفان بورفيريتش كوبروف عمدة على
الكنيسة أسوا الناس معاملة للقس . فقد كان يحتقر
هذا المنكود علانية بل وامتنع عن تقبيل يد القس ،
بعد ان شاع في القرية سكر زوجته المتكرر . فكان
الشماس الدمث الخلق يحاول عبثاً أن يعيده الى
الأصول :

- اخجل من نفسك ! انت تقدم احترامك
لدرجة كهنوتية وليس لشخص .

ولكن ايفان بورفيريتش يتصلب ، ولا يريد ان
يفصل الدرجة الكهنوتية عن حاملها ، ويعترض
قائلاً :

- انه شخص غير لائق . لا يستطيع ان يسيطر على نفسه ، ولا على زوجته . وهل من اللياقة ان تسكر زوجة القس ، بلا حياء ولا ادب ؟ لو سكرت زوجتي لعلمتها كيف تكون عاقبة السكر !

فكان الشماس يهز راسه في عتاب ، ويتحدث ما ابتلى به ايوب من بلايا ، وكيف كان الرب يحبه واعطاه ، للشيطان ليختبره ، وبعد ذلك اغدق عليه سابغ نعمائه تعريضاً عن كل عذاباته . ولكن ايفان بورفيريتش كان يضحك في لحيته ضحكة ساخرة ، ويقطع ، دون وازع ، الكلام الذي لم يعجبه :

- لا حاجة الى ان تقول ذلك . فانا أعرفه من قبل . ايوب التقي قديس ، وهذا من ؟ أية تقوى له ؟ الأفضل ، يا شماس ، ان تتذكر المثل القائل : كل امرئ فيه ما يرمى به . فهو مثل لا يخلو من موعظة .

- طيب ، انتظر ، وسيريك القس عاقبة الامتناع عن تقبيل يده . سيطرده من الكنيسة .

- سنرى .

- سنرى .

وتراهما على ذلك برقع جردل من نبيذ الكرز . وربح العمدة الرهان - فقد بقيت يد القس الملوحة الممدودة عالقة في الهواء ، حتى صد العمدة عنها بجسارة ، واحمر الأب فاسيلي بشدة . ولم ينطق بكلمة .

وبعد هذا الحادث الذي صارت القرية كلها

تتحدث به تمسك ايفان بورفيريتش في رأيه القائل بأن القس شخص سيئ وغير لائق ، واخذ يعرض الفلاحين على ان يشكوا الأب فاسيلي الى الاسقفية ، ويطلبوا استبداله بقس آخر . وكان ايفان بورفيريتش هذا غنياً ومحظوظاً جداً ، ومحترماً من قبل الجميع . وكانت له طلعة وجيهة ، بوجنتيه البارزتين الصلبتين ، ولحيته الضخمة ، وكان نفس هذا الشعر الأسود ينتشر في جسمه كله ، لا سيما في رجليه وصدره ، وكان يعتقد ان هذا الشعر بشكل خاص يجلب اليه يُمناً . وكان يؤمن بذلك ايماناً قوياً كايماانه بالرب ، ويعتبر نفسه مصطفى بين الناس ، وكان فخوراً ، واثقاً بنفسه ، دائم المرح . وفي حادثة صدام رهيبه جداً من حوادث السكك الحديدية مات فيها خلق كثير لم يفقد هو غير طاقيته التي ابتلعها الطين . فكان يوظف هذا الحادث ويعتبره خدمة تسدى له ، يضيف في رضى عن النفس :

- ومع ذلك فقد كانت قديمة !

وكان ، من صميم قلبه ، يعتبر جميع الناس اوغاداً ومافونين ، ولم تخامره الشفقة على الأولين والآخرين ، وكان يشنق بيديه الجراء التي كانت تضعها كل عام بكثرة كلبته السوداء تسيفانكا ، وكان يترك الجرو الأكبر حجماً للتوليد ، واذا طلبوا منه الجراء الأخرى اعطاها بطيب خاطر ، لأنه كان يعتبر الكلاب حيوانات نافعة . وكان ايفان بورفيريتش

سريعاً في محاججاته ، التي لم تكن قائمة على أساس ،
فكان يتخلى عنها بسهولة ودون أن يلاحظ ذلك في
الغالب ولكن تصرفاته كانت قوية حازمة ، وصائبة
دائماً تقريباً .

وكل ذلك جعل العمدة في نظر الأب المرء—سوب
رهيباً وغير اعتيادي . فكان الأب عند اللقاء يبادر
في رفع قبعته العريضة الحواشي بعجالة غير محتشمة ،
ويشعر ، عند الابتعاد عنه ، كيف تصير خطواته
أسرع وأكثر لئمة ، خطوات رجل يشعر بالخجل
والفرع ، فتتشربك رجلاه المعروقتان في مسوحيه
الطويل . وكان كل قدره القاسي المبهم قد تجسم في
تلك اللحية السوداء الضخمة واليدين المشعرتين ،
والخطو المستقيم الصلب ، وإذا كان الأب فاسيلي
لا ينكمش بكل كيانه ، ويتنحى ، ويلوذ في جدران
بيته ، فإن هذا الجرم الضخم سيسحقه كمنملة .
فكان كل ما يعود الى ايفان بورفيريتش كوبروف
ويمسه ، يشغل اهتمام الأب الى حد أنه في بعض
الاحيان كان غير قادر ولايام كاملة على التفكير الا في
العمدة وزوجته وأطفاله وثروته . وحين كان الأب
فاسيلي يعمل في الحقل مع الفلاحين ، وهو نفسه لا
يختلف عنهم بجزمته الخشنة الصبغ وقميصه الكتاني ،
كان أول ما يرى بعد الكنيسة ، اذا التفت صوب
القرية ، السطح الحديدي الأحمر لبيت العمدة ذي
الطابقين . وبعد ذلك كان يلتقط بصره بصعوبة
سطح بيته الخشبي المسود وسط خضرة الصفصاف

الرمادية المائلة عن الريح ، وكان في هذين السطحين
غير المتشابهين ما يفعم قلب القس بالرهبة
والابتئاس .

ذات يوم عادت زوجة القس من الكنيسة في
عيد رفع الصليب المقدس مغرورة العينين بالدموع ،
وذكرت أن ايفان بورفيريتش اهانها : مرت لتجلس
في مكانها ، فقال من وراء المنصة بصوت عال سمعه
الجميع :

— الأخرى أن تمنع هذه السكيرة من الدخول
الى الكنيسة نهائياً . عيب !
كانت الزوجة تحكي وتبكي ، ورأى الأب فاسيلي
بوضوح مريع فظ كيف هرمت زوجته وتداغت خلال
السنوات الأربع التي مرت على وفاة ابنهما فاسيا .
كانت ما تزال شابة ، ولكن خيوط الشيب غزت
شعرها ، واسودَّت أسنانها البيضاء ، وانتفخت
عينها . كانت تدخن في تلك اللحظة ، وكان يشير
الغرابة والألم منظرها وهي تمسك بالسكارة بطريقة
غير متقنة ، نسائية ، بين اصبعين منتصبتين ،
كانت تدخن وتبكي ، والسكارة ترتجف في شفيتها
المنتفختين بالدمع .

— يا ربي ، على أي شيء هذا ؟ يا ربي !
كانت تكرر ملئحة ، وتنظر في النافذة بتفرس
كليل ، ومطر أيلول ينث وراءها .
كان زجاج النافذة مكدرأ بالماء ، وشجرة البتولا
المثقلة تتمازج بظل شفاف منفرش . ولسم تكن

التدفئة قد بدأت في البيت اقتصاداً للحطب ، فكان الهواء رطباً بارداً لا يبعث الراحة في النفس كما في الخارج .

وكان القس يرد مبرراً ، وهو يفرك يديه الحارتين الجافتين :

- ليس في مقدورنا أن نفعل شيئاً ، يا ناستيا ! يجب التحمل بالصبر .

- يا ربي ، يا ربي ! لا حماية لأحد ! وتبكي ، وكانت ناستيا الجهوم قابعة في ركن

عينها الذئبويتان تتقدان جامدتين جافتين من خلال شعرها الخشن المرسل .

وعند حلول الليل سكرت الزوجة ، وعند ذاك بدأ للأب فاسيلي نفس الشيء الرهيب الرذيل الحقير

الذي لم يكن قادراً على التفكير فيه دون أن ينتابه فزع طهري وخجل لا يطاق . ففي الظلام السقيم الذي

يشيعه اغلاق الصفاقات ، وبين الأوهام الفظيعة التي تولدها الخمرة ، وعلى نقرات الكلمات النادبة الملحاحة

عن موت الابن البكر كانت تتشبث في ذهن الزوجة فكرة مجنونة ، وهي أن تلد ابناً آخر يبعث فيه الابن

الذي اقتطفه الموت مبكراً . تبعث بسمته الحبيبة ، تبعث عيناه المشعتان نوراً هادئاً ، وكلامه الرصين

العاقل ، يبعث هو بكليته في جمال طفولته الطاهرة ، كما كان في ذلك اليوم الفظيع من تموز ، حين كانت

الشمس تشرق ساطعة ، والنهر الخادع يخطف البصر بلالائه كانت وهي تتلظى بأمل مخبول ، جميلة

ومشوهة بغرامها تطلب من الزوج أن يغازلها متضرعة اليه أن يفعل ذلك . كانت تتزين ، وتداعبه ، ولكن

الفزع لم يكن يغادر وجهه القاتم . كانت تحاول بعذاب أن تصير من جديد عذبة مشتتة كما كانت

قبل عشر سنين . كانت تتخذ مجاً عذروباً خفياً ، وتهمس بكلمات عذروية رقيقة ، ولكن لسانها الثمل

لم يكن يطاوعها . كانت نار الشهوة العارمة تتوهج من خلل أهدابها أقوى وأوضح ، والفزع لم يكن

يغادر وجه الزوج القاتم . فكان يغطي وجهه الملهب بيديه ، ويهمس في عجز :

- لا حاجة ! لا حاجة ! عند ذلك كانت تتركع على ركبتها ، وتتوسل بصوت مبجوح :

- اشفق عليّ ! أعد لي فاسييا ! أعد ، يا قس ! أقول لك - أعد ، يا ملعون !

والمطر الخريفي يضرب ملحاحاً على الصفاقات المحكمة الاغلاق ، والليل الرطب يزفر أنفاساً ثقيلة

عميقة ، وهماً ، والجدران والليل يعزلانها عن الناس والحياة ، يبدوان وكأنهما يدوران في دوامة

حلم وحشي لا ينتهي ، ومعهما تدور التأوهات الوحشية واللعنات بلا انقطاع . والجنون بشخصه

ماثل عند الباب ، الهواء اللاذع أنفاسه ، وذباله المصباح الحمراء عيناه ، تهف في قساع الزجاجاة

المسخمة السوداء .

- لا تريد ؟ لا تريد ؟ - تصرخ الزوجة ، وفي

عطش الأمومة الضاري تمزق ثيابها عنها ، وتتعري
كلياً بلا حياء مسعرة ورهيبه كربة خمر ، مؤثرة
تدر الشفقة كام تحن الى وليدها :

- لا تريد ؟ اذن ، سأقول لك قسماً بالرب :
سأخرج الى الشارع ! سأخرج عارية ! وارتمي على
رقبة أول رجل أقابله . أعد لي فاسيا ، يا ملعون !
ويتغلب سعيير العاطفة على القس الطاهر . وتحت
الأنات الطويلة لليل الخريفي ، ورنات الكلمات
المخبولة ، حين تكون الحياة الأفائة ابدأ تبدو هي
الأخرى وكأنها قد عرّت بطونها القاتمة المبهمة كانت
فكرة شنة تلمع كالبارقة في واعيته المدلهمة فيفكر
في بعث اعجوبي ، في احتمال بعيد واعجوبي . فكان ،
وهو الطاهر الخجول يرد على سعيير زوجته العاطفي
المخبول بسعيير عاطفي مخبول مثله كان يحوي كل
شيء : الأمل النير ، والدعاء ، والاستماتة التي
حولها لمجرم كبير .

وفي قلب الليل ، حين غفت الزوجة تناول الأب
فاسيلي قبعته وعصاه ، وخرج الى الحقل في ردائه
الكتاني القديم دون أن يرتدي ثيابه كاملة . كانت
طبقة رطبة باردة من الغبار البليل الرقيق تجثم
فوق الأرض ، وكانت السماء سوداء كالأرض ،
والليل الخريفي لا يوحى براحة . وفي ظلماته توارى
رجل دون أن يخلف أثراً . دقت عصاه على حجر
متصلب وهذا كل شيء ، وخيم صمت طويل . كان
الغبار الميت البليل يخنق بأحضانها الجليدية كل

نائمة هيّابة ، وأوراق الشجر الذاوية ساكنة لا تبدي
حركة ، وما من صوت ، ولا صيحة ، ولا أنة . لا
شيء غير سكون ميت طويل .

وبعيداً وراء القرية ، وعلى مسافة فراسخ عديدة
عن السكن صدر في الظلام صوت غير مرئي . مهشم ،
مخنوق ، مكدوم ، وكأنه أنين هذا الجو المقبض
الواسع . ولكن الكلمات التي نطقها كانت واضحة
مثل نار سماوية .

قال ذلك الصوت غير المرئي :

- أنا أو من .

وكان فيه وعيد ودعاء ، وتحذير وأمل .

٣

في الربيع حملت زوجة القس ، ولم تشرب طوال
الصيف ، وسادت بيت الأب فاسيلي سكينه هادئة
مبهجة . وكما من قبل كان عدو غير منظور يوجه
ضربات . مرة نفق خنزير مسمّن أعد للبيع ، ومرة
انتشرت في جسد ناستيا كله بثور لم ينفع معها
علاج ، ولكن كل ذلك سهل تحمله ، بل وكانت زوجة
القس مسرورة في دخيلة نفسها ، فهي ما تزال غير
واثقة من السعادة العظيمة التي ستهل عليها ،
فكانت كل هذه المنغصات تبدو أجراً لهذه السعادة .
وحتى وان نفق خنزير ثمين آخر ، ومرضت ناستيا ،
ووقع مكروه آخر ، فما من أحد يجرؤ على أن يمسّ

وليدها المقبل ويتناول عليه . ومن أجله يمكن أن تضحي لا ببيتها وناستيا بل وبنفسها فرحة بالمغييب القاسي الذي كان يتطلب تضحيات لا تنتهي .

وكانت قد ازدادت حسناً ، ولم تعد تخاف ايفان بورفيريتش في الكنيسة أيضاً . فكانت وهي تسير لتحل مكانها تبرز بطنها المدور بفخر ، وتلقي على الناس نظرات جريئة واثقة ، وخوفاً من أن تلحق أي أذى بحملها كفت عن القيام بالعمل المنزلي الصعب ، وتقضي أياماً كاملة في الغابة الحكومية المجاورة تجمع الفطر . وكانت تخاف المخاض كثيراً ، فكانت تستخير الفطر فيما إذا سيأتيها سهلاً أم عسيراً وفي الغالب تكون الخيرة إلى جانب المخاض السهل . أحياناً كانت تجد مجموعة من الفطر الأبيض بين أوراق الشجر الساقطة منذ الخريف الفائت ، والداكنة الفواحة تحت السقف المقوس المتناسك الذي كونه الأغصان العالية . فتبدو لها مثل أفراد عائلة يزحم بعضها ، داكنة الرؤوس ساذجة ، مثل أطفال صغار يثيرون في النفس رقة عميقة وحناناً . فكانت تحفر الأرض المتليفة الرمادية حول الجذر وعلى قممها تلك الابتسامة الصادقة التي تطل عادة على شفاه الناس حين تداءبهم أفكار جميلة ، وهم لوحدهم . وكانت تجلس قرب الفطر ، وتستمتع بمرآة طويلة ، وقد علاها شحوب خفيف بسبب ظلال الغابة الخضراء ،

ولكنها جميلة وهادئة ولطيفة . وبعد ذلك كانت تمشي ثانية مشية متطوّحة حذرة لامرأة حامل ، وكانت الغابة الكثيفة التي كان الفطر الصغير يختفي فيها ، تبدو لها حية أريبة حنوناً . وذات مرة أخذت معها ناستيا ، ولكن هذه راحت تنط وتضج ، وتطوف وسط الأجمات مثل ذئبة صغيرة أطاشها المرح ، وتعيق أمها عن التفكير ، فلم تأخذها بعد ذلك .

ومر الشتاء لطيفاً هادئاً كانت زوجة القس تخطط في أمسياته أثواباً وأقماطاً للوليد المقبل ، معدلة القماش في سهوم بأصابعها البيض المضاء بضوء المصباح الساطع . كانت تعدل وتسوي القماش الناعم بيدها ، وكأنها تمسده ، وتفكر في شيء أمومي خاص بها ، فكان وجهها الجميل يبدو للقس في ظل أباجرة المصباح منوراً من الداخل بنور ناعم رقيق . راح الأب فاسيلي يتمشى في الحجرة بهدوء ، وهو يخشى أن يبدد بحركة غير محترسة تفكيرها الجميل البهيج . فكانت قدماه بخفيه الناعمين تطأان الأرض بلطف وبلا صوت . كان تارة يتفحص الغرفة المرتبة اللطيفة المريحة الأليفة ، وتارة ينظر إلى زوجته . كان كل شيء حسناً ، كما هو عند الناس الآخرين ، ينم عن سكون سارة عميقة . فتبسّمت روحه بوداعة ، فلم يكن يلحظ ولا يعرف أن ظلاً شفافاً لفاجعة عظيمة يرتمي ما بين حاجبيه . ذلك لأن القدر الصارم المبهم كان يخيم على حياته حتى في هذه الأيام من السكون والراحة .

في عيد الغطاس وضعت زوجة القس في الليل حملها فكان طفلاً اسمه فاسيلي . كان له رأس كبير ، ورجلان نحيلتان ، وعينان مستديرتان تنم نظرتهما الجامدة عن بلاهة غريبة وغباوة . وقضى القس وزوجته ثلاث سنوات في خوف وشكوك ورجاء ، وبعد هذه السنوات الثلاث صار واضحاً أن ابنهما الجديد فاسيلي ولد مختل العقل .
فان الذي حملت به أمه في ساعة خبل ولد مخبولاً .

٤

وانقضت سنة أخرى في ذهول البلية المرهق ، وحين أفاق الناس ، ونظروا فيما حولهم ، كانت صورة الأبله الرهيبة تستحوذ على أفكارهم وحياتهم . ظلت المواقف تشعل في البيوت كما كانت ، والشؤون المنزلية تدور والناس يخوضون في أمور دنياهم ، ولكن شيئاً جديداً رهيباً كان قد طرا عليهم . لم تعد لأحد منهم الرغبة في الحياة ، وبسبب ذلك شاع التخلخل في كل شيء . صار العاملون يتكاسلون ، ولا يؤدون ما يؤمرون به ، وغالباً ما يغادرون بلا سبب ، والجدد منهم كانوا يقعون فريسة لضجر غريب وعدم اكتراث بعد يومين أو ثلاثة من العمل ، وتظهر الغلظة في تصرفاتهم . وكان الغداء لا يقدم في مواعده فإما أن يتأخر وإما أن يُقدّم في وقت مبكر ، ودائماً يتغيب أحد الأفراد عن المائدة . اما الزوجة ،

واما ناستيا ، واما الأب فاسيلي نفسه . ولا أحد يعرف كيف تكوّنت كثرة من البياضات والشياب الممزقة ، فكانت زوجة القس لا تفتأ تقول ان عليها أن ترفأ جوارب زوجها ، وتظن أنها قد رفاتها ، ومع ذلك فهي دائماً ممزقة حتى حكّت قدم الأب فاسيلي . وفي الليالي كان الجميع يتقلبون ، ويضنيهم البق الذي كان يخرج من جميع الشقوق ، ويدب على الجدران أمام الأنظار ، وما من شيء يمكن أن يوقف زحفه المقيت .

والناس ، اينما ساروا ، وأي عمل زاولوا ، كانوا لا ينسون لحظة واحدة أن تلك الحجرة شبه الظلمة تضم مخلوقاً فظيماً غير متوقع هو ثمرة جنون . وحين كانوا يخرجون من البيت الى النور ، كانوا يحاولون أن لا يلتفتوا ، ولا ينظروا الى الخلف ، ولكنهم كانوا لا يصطبرون ، ويلتفتون . وعند ذاك كان يبدو لهم أن البيت الخشبي نفسه يعني هذا التغيّر الرهيب ، فكان وكأنه ينكمش على نفسه ، ويتقلّص ، ويتنصّص الى ذلك الرهيب التي يقبع في أعماقه ، وكل نوافذه المبخلقة ، وابوابه المحكمة الاغلاق لا تكاد تحبس صيحة الهلع القاتل . وكانت زوجة القس غالباً ما تخرج للزيارة ، وتقضي ساعات كاملة جالسة عند زوجة الشمساس ، ولكن حتى هناك لم تجد راحة . وكان خيوطاً رفيعة كنسيج العنكبوت كانت تمتد بينها وبين وليدها الأبله ، وتشدهما بقوة والى الأبد . حتى ولو رحلت الى

آخر الدنيا ، واختبأت وراء أسوار دير عالية ، وحتى لو مائت ، لامتدت اليها في ظلام القبر تلك الخيوط الرفيعة كنسيج العنكبوت ، ولفتها بالقلق والخوف . ولياليهم أيضاً لم تكن هادئة . فقد كانت وجوه النائمين خالية من الأحاسيس ، بينما كانت جماجمهم تنطوي على عالم هولة تشيده الكوابيس وأضغاث الأحلام ، وسلطانه هو نفس تلك الخلقة الغريبة المخيفة التي نصفها طفل ونصفها الآخر وحش .

كان في الرابعة ، ولكن لم يبدأ بعد بالمشي ، ولا يعرف أن ينطق الا بكلمة واحدة هي : «هات» . وكان حنوقاً كثير الطلبات ، وإذا لم يلب طلبه صاح صيحة حيوانية حانقة عالية ، ومدّ الى الامام يديه بأصابع معكوفة كبرائن حيوان كاسر . وكان في قضاء حاجاته المعتادة دنساً كالحيوان ، فقد كان يفعلها تحته ، على الفراش ، وكان تغييره في كل مرة عذاباً . فقد كانت يتحين الفرصة بخبث ماهر ، حتى تحنى امه او اخته راسهما عليه ، فينشب يديه بشعرهما ، ويجذب خصلات بكاملها . وذات مرة عضّ اخته ناستيا ، فالقته على السرير ، وظلت تضربه ضرباً قاسياً لوقت طويل ، وكانما لم يكن انساناً ، ولا طفلاً ، بل قطعة لحم خبيثة ، وبعد هذا الحادث صار يجب أن يعرض ، ويكسر أسنانه كالكلب تشكيرة متوعدة .

وكان اطعامه صعباً ايضاً . فكان وهو النهم اللهوف لا يستطيع السيطرة على حركات ، فكان

يدلق القدح ، وتبهر أنفاسه ، ويمد أصابعه المعكوفة على الشعر بحقد . وكان شكله منفراً ومرعباً . فقد كانت تعلو كتفيه الضيقتين لطفل لم يكبر بعد جمجمة صغيرة لها وجه ضخم جامد عريض كوجوه الكبار . وكان في هذا التنافر الوحشي بين رأسه وجسده شيء منحوس ومفزع ، وكان هذا الطفل قد تقنّع لسبب ما بقناع ضخم مرعب .

وعادت الزوجة المعذبة الى الشرب ، كما كانت من قبل . وصارت تسرف فيه الى حد فقدان الوعي والمرض ، ولكن حتى الخمرة الجبارة لم تستطع أن تخرجها من الطوق الحديدي الذي كانت تتسلطن في وسطه تلك الخلقة الرهيبة غير الاعتيادية التي نصفها طفل ، ونصفها الآخر وحش . وكما من قبل كانت زوجة القس تسترجع في الخمرة ذكريات بكرها الكاوية الفاجعة ، ولكن الذكريات لم تكن تستجيب لها ، ولم يهدمها الفراغ المرهق الميت طيفاً ولا صوتاً . كانت تستدعي بكل قوى ذهنها المتأجج الوجه الحبيب لطفلها الوديع ، وتغني الأغاني التي كان يغنيها ، وتبتسم كما كان يبتسم ، وتتخيّل كيف اختنق ، وعبّ الماء الصموت ، وعندها كان يبدو وكأنه قريب ، وتلدع قلبها كربة عظيمة مرغوبة باشتياق ، فكان كل شيء يتداعى فجأة وبشكل لا يدركه بصر ولا سمع ، ويتلاشى ، ويظهر في الخواء البارد الميت قناع الأبله المفزع الجامد . وكان يبدو لزوجة القس أنها كانت تدفن فاسيلي

للمرة الثانية ، وتواريه عميقاً في باطن الأرض .
فتريد أن تحطم رأسها الذي كان تتسلطن في عمقه
وبوقاحة تلك الخلقة الغريبة المقرزة . فكانت في
رعبها تروح وتجيء في الغرفة لائبة ، وتنادي
زوجها :

- فاسيلي ! فاسيلي ! تعال اليّ بسرعة !
فكان الأب فاسيلي يأتي ، ويجلس صامتاً في
ركن غير مضاء ، هادئاً فاتراً ، وكأنما لم يسمع
صيحة ، ولا كان هناك جنون ولا فزع ، وعيناه
مختفيتان ، وتحت تقويس الحاجبين الثقيل بقعتان
سوداوان عميقتان كانتا تجعلان وجهه المرعوب أشبه
بالجمجمة . فكان يسند عنقه على يده العظمية ،
ويجمد في صمت ثقيل ساكن حتى تهدأ زوجته وتسد
باب حجرة الطفل الأبله بغيرة جنونية ، فتدفع
المناضد والمقاعد وتكدس الوسائد والثياب ، ولكن
ذلك يبدو لها قليلاً . فكانت بعرامة السكران تزيج
الصوان الثقيل عن مكانه ، وتدفعه نحو الباب فتخدش
أرضية الحجرة .

- ابعد المقاعد !

كانت تصرخ بزوجها لاهثة ، فينهض هذا صامتاً ،
ويفرغ المكان ، ويعود الى الجلوس في ركنه من
جديد .

وتهدأ الزوجة برمة ، وتجلس حابسة بيدها
انفاسها الثقيلة ، ولكنها كانت تقفز من مكانها في
اللحظة التالية ، وتزيج من أذنها شعرها المحلول ،

وتتسمع مذعورة الى ما كانت تتخيله صادراً من
وراء الجدار :

- أسمع ؟ فاسيلي ، تسمع ؟
وتحدق فيها البقعتان السوداوان بجمود ، ويرد
صوت ناء لا حرارة فيه :

- ستكون هناك . انه نائم . اهدئي ، فاسيتيا .
وتبتسم الزوجة بفرح وصفاء ، كالطفل ، وتجلس
على حافة مقعد في قلق .

- صحيح ؟ نائم ؟ رأيته بنفسك ؟ لا تكذب ،
فالكذب إثم .

- نعم ، رأيته . نائم .

- ومن الذي يتكلم هناك ؟

- لا يوجد أحد هناك . هذا خداع سمع .

فيغمر الزوجة فرح شديد ، حتى تضحك ضحكاً
عالياً ، وتهزّ رأسها بمزاح ، وتدفع ذراعيها بحركة
غير محددة ، وكأن شخصاً خبيثاً أراد أن ينكّث عليها
ويخيفها ، ولكنها أدركت لعبته ، وهي الآن تضحك .
ولكن ضحكتها المعزولة كانت مثل حجر سقط في
هاوية لا قرار لها وغاب دون صوت ، وعند ذاك
يطل رعب بارد من عينيها ، وفمها ما يزال معوجاً
بتلك الضحكة . ويسود صمت تام ، وكان أحداً لم
يضحك قط في هذه الحجرة بوسائدها المبعثرة ،
ومقاعد المقلوبة ، والغريبة جداً ، حين ينظر اليها
الرائي من الأسفل ، وبالصوان الثقيل المزاح بشكل
أهوج من مكانه المعتاد فكان يطل عليها من كل ناحية

توقع بارد لمحنة رهيبة ، لفظاعات غير مرئية لم يقاسها أي انسان من قبل . فكانت تلتفت الى زوجها ، فيترأى لها في الركن المظلم شيء رمادي طويل منتصب باهت المعالم كالشبح ، فتميل مقتربة منه ، فتري وجهها ينظر اليها ، ولكن لا بعينييه المخفيتين بظل الحاجبين الاسود ، بل بتلك البقع البيض الطالعة من عظمي الوجنتين البارزين ومن الجبهة . فكانت تتشكى بخفوت ، وانفاسها تتلاحق عالية من الفزع :

- فاسيا ! أنت تخفيني . أي شكل لك ، حقاً ! تعال الى هنا ، الى النور .

فيقدم الأب فاسيلي من الطاولة طائعا ، ويسقط ضوء المصباح الدافئ على وجهه ، دون أن يبت الدفء فيه . ولكنه هادي ، ولا خوف فيه ، وكان هذا كافياً للزوجة . فتقرب شفيتها من أذن القس فاسيلي تماماً ، وتسأل همساً :

- قس ، يا قس ! هل تذكر فاسيا . . . فاسيا القديم ؟

- لا .

- اها ! - وتفرح الزوجة . - وانا ايضاً .

الا تشعر بالرهبة ، يا قس ؟ ها ؟ لا تشعر ؟

- لا .

- فلماذا تنن في نومك ، اذن ؟ لماذا تنن ؟

- لا شيء . مجرد توقعك .

ضحكت الزوجة في غيظ :

- أنت ؟ متوعل ؟ أنت متوعل ؟ - وغررت اصبعها في صدره العظمي والعريض المتين ، مع ذلك . - لماذا تكذب ؟

وكان الأب فاسيلي يصمت . فتنظر زوجته في غل الى وجهه البارد ، ولحيته التي لم تحلق منذ وقت بعيد فكانت تبرز من خديه الغائرين خصلات هزيلة ، وترفع كتفيها باشمئزاز :

- اوه ! أي شخص صرت ! كريها ، حاقداً ، بارداً كضفدعة . اوه ، وهل انا المذنبه في ان يولد بهذا الشكل ؟ هيا ، قل ، فيم تفكر ؟ فيم تفكر وتستمرار ؟

يسكت الأب فاسيلي ، ويتمعن بنظرة فاحصة مضايقة وجه زوجته الشاحب المذهول . وحين تتلاشى الرنات الأخيرة لكلامها المفكك كان صمت حديدي مطبق يقبض على رأسها وصدرها بأصابع حديدية ، ويعتصر من هناك ، كما يبدو ، كلمات عجولاً غير متوقعة :

- ولكنني اعرف ! . . . اعرف ! انا اعرف ، يا قس .

- ماذا تعرفين ؟

- أعرف فيم تفكر . أنت ، - وتتوقف الزوجة ، وتبتعد عن زوجها مذعورة . - أنت . . . لا تؤمن بالرب . هذا أنت !

وعندما تفوهت بذلك شعرت بفضاعة ما نطقت به ، ولاحت ابتسامة بائسة تتوسل الاعتذار تشق

شفتيها المتورمتين المعضوضتين المحروقتين من شرب الفودكا ، المحمرتين بلون الدم . وابتهجت ، حين ردّ القس بحدة وعظّة ، وقد شحب وجهه : - هذا غير صحيح . فكري فيما تقولينه ، أنا مؤمن بالرب .

ويهبط الصمت مرة أخرى ، ولكن الزوجة تشعر فيه بشيء رقيق لامسها مثل الماء الدافئ ، فتطرق بصرها ، وتسأل بخجل :

- هل تسمح ، يا فاسيا ، أن أشرب قليلاً ؟ فسأنام بسرعة بعد ذلك ، والوقت متأخر .

وكانت تصب ربع قدح من الفودكا ، وتضيف إليه قليلاً في تردد ، وتشربه إلى الآخر بجرعات صغيرة متواصلة ، كما تشرب النساء . وتلهب الحرارة صدرها ، فتريد نوعاً من التسلية ، ضجيجاً ، ضواً ، وأصواتاً آدمية عالية .

- هل تعرف ماذا نفعل ، يا فاسيا ؟ تعال نلعب الورق ، لعبة «الخاسر أحق» ، ناد ناستيا . وسيكون ذلك متعة ، فأنا أحب هذه اللعبة . فاسيلي ، يا عزيزي ، نادها ! سأقبلك على ذلك .

- الوقت متأخر . هي نائمة الآن . فتضرب الأرض بقدمها . - ايقظها ! هيا ، عجل .

جاءت ناستيا نحيلة طويلة كأبيها بيديها الكبيرتين الجاسيتين من العمل . وكانت ترتجف من

البرد ، وهي ملتفة في منديل قصير ، وتتأكد من كمال شدة الورق صامتة .

وجلسوا صامتين ليلعبوا لعبة الورق المرحسة المضحكة ، في فوضى الأشياء المقلوبة المنقولة من أماكنها ، في ساعة متأخرة من الليل ، حين كان كل شيء قد هجع منذ وقت طويل : الناس والدواب والحقول . وراحت زوجة القس تمزح وتضحك ، وتسرق الأوراق الراحبة من شدة الورق ، وتتصور أن الجميع يضحكون ويمزحون ولكن حالما يتلاشى آخر رنين لكلامها كان يخيم عليها وعلى الآخرين سكون مطبق منحوس . وكان يبعث في نفسها الخوف منظر زوجين من الأيدي الخرس العظمية تتحرك على الطاولة ببطء وبلا صوت ، وكان هذه الأيدي هي وحدهما الحية ولا وجود لمن يحركها . جفلت الزوجة ونظرت إلى ما فوق الطاولة بتوقع مخمور معتوه لشيء خارق فترات وجهين باردين ، وجهين شاحبين ، وجهين عبوسين يطلعان من الظلام بحركة متشابهة ، ويهتزان في رقص أبكم غريب . تمتعت الزوجة بشيء ، وشربت شيئاً من الفودكا ، ومن جديد تحركت الأيدي العظمية بلا صوت ، وأخذ الصمت يطن ، وظهر إلى الطاولة شخص جديد ، رابع . قلبت الورق أصابع معكوفة كاسرة ، ثم دنت من زوجة القس ، وركضت على ركبتيهما كالعناكب ، وتسلمت إلى حنجرتها . . . - من هذا ؟

راحت تصرخ ، ونهضت ، وأدهشها أنهم جميعاً
قد وقفوا ينظرون إليها برعب . ولم يكونوا غير
شخصين ، زوجها وناستيا .

- اهذهني ، ناستيا . ولا يوجد احد غيرنا .

- وهو ؟

- نائم .

جلست ، وكف الامتزاز للحظة ، وعاد كل شيء
الى مكانه ثابتاً . وعادت الطيبة الى وجه القس فاسيلي
ايضاً .

- فاسيا ! ماذا سيكون من امرنا اذا بدا
يمشي ؟

ردت ناستيا :

- اليوم تهيات لأعشيهِ ، فرايته يحرك رجله .
قال القس :

- غير صحيح .

ولكن كلمته رنت بعيدة جوفاء .

وأخذ كل شيء يدور بدوامه جنونية دفعة واحدة ،
وتراقصت الأضواء والظلام ، وتدافعت على زوجة
القس أشباح بلا عيون . اهتزت ، وزحفت عليها
عُمياً ، وراحت تتلمسها بأصابعها المعكوفة ، وتمزق
ثيابها ، وتمسك بخناقها ، وتنغرز أصابعها في
شعرها ، وتسحبها الى حيث لا تدري . انشبت الزوجة
اظافرها المهشمة في الأرضية ، وصرخت .

واخذت زوجة القس تتمايل برأسها ، وتندفع
الى حيث لا تدري ، وتمزق ما عليها من ثياب . وقد

مدتها نوبة الجنون بقوة أعجزت الأب فاسيلي وناستيا
عن السيطرة عليها ، فاضطرا الى استدعاء الطباعة
وشغيلة . فتغلب عليها أربعتهم ، وربطوا يديها
ورجلها بفوطتين ، وأرقدوها في السرير ، وبقي الأب
فاسيلي وحده معها . وقف عند السرير بلا حراك
ينظر الى جسدها يتلوى مرتعصاً ويتكوّر ، والدموع
تسح من تحت جفניה المطبقين . راحت تتوسل
بصوت مبجوح من الصياح :

- اغيثوني ! اغيثوني !

وكان صوت الاستغاثة المعزول شاكياً وحشياً
ورعيباً ، وما من مجيب . كان السكون المطبق الأصم
يلفه كالكنف ، فكان ميتاً في لباس الموتى هذا ، كانت
قوائم المقاعد المقلوبة ترتفع على نحو آخرق متواضعة
بشكل مخجل والصوان القديم قد مال مذهولاً ،
والليل قد سكن . وصار صوت الاستغاثة المعزول
يزداد وهناً وشكاًية .

- اغيثوني ! انا اتالم ! اغيثوني ! فاسيا ، يا

عزيزي فاسيا . . .

رفع القس فاسيلي يديه بإشارة باردة هادئة
بشكل غريب ، ودون أن يتحرك من مكانه ، وأمسك
رأسه كما فعلت زوجته قبل نصف ساعة ، وأنزلها
بنفس التباطؤ والهدوء ، وكانت خيوط طويلة من
الشعر الأسود الأشيب تهتز بين أصابعها .

كان انزال القس فاسيلي عن الناس وشؤونهم واحاديثهم واضحاً ، مثل اغترابه التام عن كل شيء وكأنما لم يكن انساناً ، بل غمامة متحركة لانسان . كان يفعل كل ما يفعله الناس ، ويتحدث ، ويعمل ، ويشرب ويأكل ، لكن كان يبدو احياناً وكأنه يحاكي الناس الاحياء في افعالهم لا غير ، بينما هو نفسه يحل في عالم آخر منيع عن كل انسان . وكل من يراه كان يسأل نفسه - فيم يفكر هذا الانسان ؟ فقد كان التفكير العميق مرسوماً في كل حركاته . كان في مشيته الثقيلة ، في بدء كلامه المتقطع ، حين كانت تتخلل كل كلمة يقولها ثغرات عميقة من التفكير الخفي البعيد . وكان يخيم على عينيه كغشاء سميك ، فكانت نظراته البعيدة ضبابية ، تتوأمض غبشاء من تحت جفنيه المسبلين . واحياناً كانوا يضطرون الى ان ينادوه مرتين الى ان يسمع النداء ويلبي . وكان ينسى ان يسلم على الآخرين فكانوا ، بسبب ذلك ، يعتبرونه متكبراً . وعلى سبيل المثال نسي ذات مرة ان يسلم على ايفان بورفيريتش فدهش هذا في البداية ، وبعد ذلك أسرع ليلحق بالقس البطيء السير ، وقال له ساخراً :

- اخذت تتكبر ، يا ابانا ! فلا تريد ان تسلم .

نظر القس فاسيلي اليه باستغراب ، واحمر وجهه قليلاً ، واخذ يعتذر :

- أعذري ، يا ايفان بورفيريتش . لم الحظك .

اراد هذا العمدة ان ينظر الى القس بحدة ، من فوق الى الأسفل ، ففطن لأول مرة ان القس أطول منه قامة ، رغم انه كان يعتبر نفسه أطول انسان في المنطقة . وأحس بشيء مريح في اكتشافه هذا ، وقال يدعوه وبشكل مفاجئ حتى لنفسه :

- زرني ذات مرة .

وراح يستدير ويتفحص القس بعينه لوقت طويل . وارتاح القس فاسيلي أيضاً ، ولكن لبرهة فقط : فبعد خطوتين كان تفكيره الدائم الثقيل المتوتر قد سحق ، كما تسحق الرحي ، كل ما دخل في ذاكرته من كلمات العمدة الطيبة ، وسحق ابتسامة هادئة ساخرة ، وهي في طريقها الى شفثيه . وغرق القس من جديد يفكر في الرب وفي الناس ، وفي الأقدار الغامضة لحياة الانسان .

صادف مرة أثناء الاعتراف ان القس فاسيلي الغارق في تفكيره المثقل وبينما كان يطرح الأسئلة المعتادة على عجوز في شروود ذهل من غرابة ما كان يقوم به ، وهو شيء لم يلاحظه من قبل . انه يقف ويسأل بهدوء عن أخفى الخواطر والمشاعر ، والمعرفة تنظر اليه خائفة ، وتفضي بالحقيقة التي لا يمكن ان يعرفها آخر غيره . وفجأة صار لوجه

العجوز المتغضن مسحة خاصة ومنورة ، وكانما تنور وحده بضوء النهار ، بينما كان ظلال الليل حوله . وفجأة سأل قبل أن تتم جملتها :

- وهل أنت تقولين الحقيقة ، يا شيخه ؟

ولكنه لم يسمع ما ردت به الشيخة . سقط الضباب عن وجهه ، وراح ينظر في اندهاش وبعينين لامعتين ، كالمغسولتين الى وجه المرأة وكان ذامسحة خاصة ارتسمت عليه حقيقة ما واضحة وملغزة عن الرب والحياة . لاحظ القس فاسيلي مفرق رأس العجوز تحت المنديل القطنى الذي تعتصب به ، خطأ ليلقياً من الجلد وسط شعر صفّ بعناية . ان هذا المفرق اليأس ، هذه العناية العنود برأس هرم قبيح غير نافع كانا ايضاً حقيقة ، حقيقة محزنة عن حياة الانسان التي هي في وحدة دائمة وفجيعة دائمة . وفي تلك اللحظة أدرك القس فاسيلي فيفيسكي ، لأول مرة خلال الأربعين عاماً من حياته ، أدرك ببصره وبسمعه وبكل حواسه أن على الأرض ، بالاضافة اليه ، انساناً آخرين مخلوقات مثله ، لهم حياتهم الخاصة ، ومصائبهم الخاص ، ومصيرهم الخاص .

سأل بسرعة ، وهو يقطع العجوز من جديد :

- وهل لديك اولاد ؟

- ماتوا ، يا أبانا .

قال القس مندهشاً :

- ماتوا جميعاً ؟

- ماتوا جميعاً ! - كررت المرأة ، واكتست عيناها بعض الحمرة .

فسأل القس فاسيلي في حيرة :

- وكيف تعيشين ؟

- واية عيشة عيشتنا ؟ - واخذت العجوز

تبكي . - اعيش على الصدقات .

مدّ القس فاسيلي عنقه الى الامام ، ومن ارتفاع قامته الطويلة غرز عينيه في العجوز وسكت . فبدأ وجهه العظمي الطويل المحاط بشعر مرتفع غير اعتيادي غريباً في نظر العجوز ، فأحست بالبرودة تسري في يديها المطويتين على صدرها .

وصدر من فوقها صوته الصارم :

- طيب ، لك ان تنصرفي .

... وبدأت أيام غريبة بالنسبة للقس فاسيلي فقد كانت تراود ذهنه افكار لم تراوده من قبل . قبل هذا كان الأمر كالآتي : كان يعرف أن هناك أرضاً ضئيلة المساحة يعيش فيها شخص جسيم هو القس فاسيلي وحيداً مع بليته الجسيمة وشكوكه الجسيمة ، أما الناس الآخرون فكأنهم لم يكونوا في الوجود . أما الآن فقد كبرت الأرض ، وصارت مترامية الأطراف مأهولة كلها بالناس الشبيهين بالقس فاسيلي . وهم خلق غفير ، وكل واحد منهم كان يعيش بطريقته الخاصة ، ويتعذب عذابه

الخاص ، ويأمل ويتشكك على طريقته الخاصة ،
واحس القس فاسيلي بينهم وكأنه شجرة وحيدة في
حقل نمت حولها فجأة غابة كثيفة بلا حدود .
واختفت الوحدة ، ولكن اختفت معها الشمس والآمال
المنبسطة المنوَّرة ، وصار ظلام الليل أكثر كثافة .
كان الناس جميعاً يقولون له الحقيقة . وحين
كان لا يسمع أقوالهم الصادقة كانت تتراى له
بيوتهم ووجوههم ، وقد انطبعت على الوجوه والبيوت
حقيقة الحياة القاهرة . وكان يشعر بهذه الحقيقة ،
ولكن لا يستطيع أن يسميها ، فكان يبحث بتعطش
عن وجوه وأقوال جديدة . ولم يكن المعترفون في
عيد الميلاد كثيرين ، ولكن قسنا أبقى كل واحد
منهم ساعات كاملة في الاعتراف يسأله مستنقصاً
ملحاً ، غائصاً الى حنايا المعترف القصوى ، التي
نادراً ما يلتفت اليها المعترف نفسه ، وإذا التفت
فبفرع . وكان القس لا يعرف عم يبحث ، فكان
يقلَّب بلا رحمة كل ما يشد نفس المعترف وما تحيا
عليه . وكان في أسئلته قاسياً لا يخجل ، ولا تعرف
الوجل الفكرة التي كانت تتولد في ذهنه . وسرعان ما
أدرك القس فاسيلي أن هؤلاء الناس الذين يعترفون
له ، كما يعترفون أمام الرب . هم أنفسهم لا
يعرفون حقيقة حياتهم ، وأن حقيقة واحدة عظيمة
حاسمة لكل شيء تتخلل الآلاف من حقائقهم الصغيرة
المجزأة المتعادية ، وكان الجميع يشعرون بها ،
وينتظرونها ، ولكن لا أحد استطاع أن يسميها بكلمة

من الكلمات البشرية . أن يسمى هذه الحقيقة الهائلة
عن الرب ، وعن الناس ، وعن المقادير المبهمة لحياة
الإنسان .

وبدا القس فاسيلي يستشعرها ، وكان
يستشعرها كيأس ورعب مخبول تارة ، وكاشفاق
وحنق وأمل تارة أخرى . وظل كما هو صارماً وبارداً
في مظهره ، بينما كان العقل والقلب يسيحان في نار
الحقيقة غير المدركة ، وحياة جديدة تلج الجسد
القديم .

في يوم الثلاثاء من الأسبوع الأخير قبل حلول
الصوم الشتائي قبيل عيد الميلاد عاد القس فاسيلي
من الكنيسة في ساعة متأخرة . فاقفته يد في
الرواق المظلم البارد ، وهمس صوت مبحوح .
- فاسيلي ، لا تدخل الى هناك .

وعرف من نبرة الفزع في الصوت أن المتكلم هو
زوجته فتوقف . قالت الزوجة وأسنانها تصطك من
رعدة مفاجئة :

- أنا أنتظرك منذ ساعة ، تثلجت تماماً .
- ماذا حصل ؟ لنذهب .
- لا ! لا ! اسمع ! ناستيا . . . دخلت
فرايتها تقف أمام المرأة ، وتمثله في وجهه ،
وحركات يديه .
- لنذهب .

ودفع زوجته الى الغرفة بالقوة ، وهي تقاوم ،
وحين دخلتها حكمت وهي تتلفست وترتجف برداً

وفزعاً ، أنها دخلت الحجرة لتسقي الزهور ، فرأت ناستيا تقف هادئة أمام المرأة وقد انعكس وجهها على المرأة ، ولكن ليس على طبيعته الدائمة ، بل مخبولاً بشكل غريب معوج الفم بوحشية ، محول العينين . وبنفس الطريقة رفعت ناستيا ذراعيها بهدوء بعد ذلك ، وعكفت أصابعها ، كما يعكفها الأبله ، ومدتها الى صورتها في المرأة ، وكان كل شيء هادئاً في الحجر وغريباً جداً وغير واقعي حتى ان الزوجة أرسلت صيحة ، وأوقعت الابريق من يديها . وولت ناستيا هاربة . والزوجة لحد الآن لا تعرف هل وقع هذا فعلاً ، أم هو وهم توهمته . أمر القس قائلاً :

- نادي ناستيا ، وأخرجني أنت .

جاءت ناستيا ، وتوقفت عند الباب . كان وجهها طويلاً عظيماً ، كوجه أبيها . وقفت كما تقف عادة عند الحديث ، وقد مدت عنقها الى الامام قليلاً ، وراحت تنظر جهماً من تحت حاجبيها ، وقد رفعت يديها الى الخلف ، كما يفعل أبوها .

سألها بصرامة ولكن بخفوت :

- ناستيا ! لماذا تفعلين هذا ؟

- ماذا أفعل ؟

- أمك رأتك أمام المرأة . لماذا تفعلين

ذلك ؟ انه مريض .

- لا ، ليس مريضاً . انه يجذ شعري .

- ولماذا تقلدينه ؟ وهل يعجبك وجهاً مثل وجهه حقاً ؟

أشاحت ناستيا بصرها بعبوس ، وقالت :

- لا اعرف .

وحدقت في عيني أبيها بصراحة غريبة ، وازافت بتصميم :

- يعجبني .

تفرس القس فاسيلي فيها ، وسكت فسألت ناستيا بما يشبه التأكيد :

- وأنت الا يعجبك ؟

- لا .

- فلماذا تشغل فكرة فيه ، اذن ؟ لو كان بيدي لقتلته .

وبدا للقس فاسيلي ان ناستيا الآن ايضاً تقلد بوجهها وجه الأبله ، فقد رف شيء بليد وبهيمي في وجنتيها ، وتقاربت عيناها .

قال بحدة :

- أخرجني !

ولكن ناستيا لم تتحرك من مكانها ، وحدقت بنفس الصراحة الغريبة تلك في عيني أبيها . ولم يكن وجهها يشبه قناع الأبله الكريه .

وقالت ببساطة ، وكأنها تنطق بحقيقة اعتيادية :

- ولكنك لا تفكر في .

وعند ذاك حصل بينهما ، بين الشبيهين

والمختلفين معاً ، حديث قصير وغريب في الظلام
المتنامي للغسق الشتائي .

- أنت ابنتي ؟ لماذا لم اكن اعرف ذلك من
قبل ؟ هل تعرفين ؟

- لا .

- تعالي قبليني .

- لا اريد .

- الا تحبينني ؟

- لا . انا لا احب احداً .

- مثلي انا !

وانتفخ منخرا القس من ضحكة مكتومة .

- وأنت أيضاً لا تحب احداً ؟ ولا تحب ماما

ايضاً ؟ انها تشرب كثيراً . كنت سأقتلها ايضاً .

- وتقتليني ايضاً ؟

- لا اقتلك . فانت تتحدث معي . احياناً ارثي

لك . صعب جداً على اب ان يكون له ابن معتوه

كهذا . انه خبيث جداً . أنت ما تزال لا تعرف كم

هو خبيث . انه يأكل الصراصير الحية . اعطيته

عشرة صراصير فأكلها كلها .

ودون ان تبعد عن الباب جلست على طرف

مقعد بحذر ، كالخادمة ، وطوت يديها على ركبتيها ،

وراحت تنتظر . فقال القس ساهماً :

- وحشة ، يا ناستيا !

وافقته قائلة على مهل ووجامة :

- وحشة ، بالطبع .

- والرب ، هل تصلين له ؟

- أصلي ، طبعاً . ولكن في الأمسيات فقط ، في

الصباح لا وقت لي عندي اشغال كثيرة ، اغسل ،

وارتب الأفرشة واغسل الصحون ، واعد الشاي

لفاسكا ، أنت تعرف كثيرة الاشغال .

- مثل وصيفة ، - قال القس فاسيلي بغموض ،

فتساءلت ناستيا غير فاهمة :

- ماذا تقول ؟

صمت القس فاسيلي ، وقد أحنى رأسه بشدة ،

فكان ضخماً أسود على خلفية النافذة الشاحبة

البياض ، وبدت كلماته لناستيا سوداء كالخرز .

انتظرت طويلاً ولكن اباهما لزم الصمت ، فنادت

بتوجس :

- بابا !

هز القس فاسيلي ذراعه مرة ثم أخرى بإشارة

أمره ، دون أن يرفع رأسه . تنهدت ناستيا ،

ونفضت ، وعندما استدارت نحو الباب ، شعرت عند

ذلك فقط بضجة خلفها ، واذا بذراعين عظيمتين

قويتين ترفعانها في الهواء ، وصوت مضحك يهمس

في أذنها :

- طوقي رقبتني . سأحملك .

- كيف هذا ؟ لست صغيرة .

- لا يهم . امسكي .

تعسر عليها أن تتنفس بسبب الذراعين اللتين

كانتا تعصرانها كالكلابتين ، واضطرت الى الانحناء

عند الباب حتى لا يرتطم رأسها به ، وكانت لا تعرف أحس بالراحة أم بالغربة فقط . ولم تكن تدري هل أن أباهامس لها بالفعل : «إرثي لأمك» أم هذا ما توهمته .

ولكنها بعد أن صلت للرب ، وتهيأت للنوم ، جلست طويلاً على سريرها تفكر . وقد احدودب ظهرها النحيل كثيراً بدفتيه النائتين ، وحلقات عمودها الفقري البارزة ، وسقط الثوب القذر من كتفها النائي . فطوقت ركبتها بيديها ، وتمايلت فكانت مثل طائر أسود غاضب أدركه الصقيع وهو في العراء ، وراحت تحديق إلى الأمام بعينين لا ترمشان ، بسيطتين وملغزتين ، مثل عيني وحش . وهمست بعناد سادر :

— على كل حال كنت سأقتلها .

وفي هزيع متأخر من الليل ، حين كان الجميع نياماً ، دخل القس فاسيلي الحجرة بهدوء ، ووجهه بارد صارم . ودون أن ينظر إلى ناستيا ، وضع المصباح على الأرض ، وانحنى على ابنه المعتوه الذي كان يغط في نوم هادي منطرحاً على ظهره ، وقد برز صدره القبيح ، وارتمت ذراعاها ، وانطرح إلى الوراء رأسه الصغير المرصوص ، ولاح حنكه المبتور أبيض . وفي الضوء الشاحب المنعكس من السقف لم يكن وجهه المستغرق في النوم بجفنيه المسبيلين على عينيه المخبولتين على تلك الدرجة من الفظاعة التي كان يبدو بها في النهار . كان وجهاً

متعباً ، كوجه ممثل أنهكه تمثيل مضم ، وقد ارتوى حول فمه العريض المطبق ظل حزن ضار . وكانما كانت في جسد روحان ، حين تنام أحداهما تستيقظ الأخرى العليمة بكل شيء ، والمفجوعة .

رفع القس فاسيلي جذعه ببطء ، وسار إلى غرفته بنفس الوجه الصارم الخالي من العاطفة ، دون أن ينظر إلى ناستيا . سار بطيئاً خطواته الثقيلة الميتة خطوات رجل مستغرق في تفكير عميق ، كان الظلام يتراكم أمامه ، ويتراجع خلفه ظللاً طويلاً ، ويختبئ تحت أعقابها لعوباً . كان وجهه أبيض في ضوء المصباح ، وعيناه تتفرسان محدقتين إلى الأمام ، بعيداً إلى الأمام ، في العمق الذي لا قرار له ، طالما كانت قدماء تخطوان خطوات بطيئة ثقيلة . وكان ذلك في الهزيع الأخير من الليل ، بعد أن صاحت الديكة صياحها الثاني قبل طلوع الفجر .

٦

وجاء الصوم الكبير . وراح الناقوس الأصم يقرع رتيباً ، ولم تستطع رناته الشائخة الحزينة المتواضعة الصدى أن تمزق السكون الشتائي الذي كان ما يزال مخيماً على الحقول المغطاة بالثلج . فكانت تنط حية من برج الجرس إلى لجة الهواء المظلم ، وتسقط إلى الأسفل ، وتتلاشى ، ولكن هذا النداء الهادي المتزايد في إلحاحه ، والمتزايد في

تشبثه لم يلق استجابة من الناس ولوقت طويل لم يظهر أحد منهم .

في نهاية الأسبوع الأول جاءت عجوزان رماديتان مقبضتان صماوان كهواء الشتاء الآخذ بالاندثار ، وراحتا تمطقان طويلاً من فمين بلا أسنان ، وترددان دون انقطاع - اعترافتهما مهشمة جوفاء لا بداية لها ولا نهاية . وكان الدموع والكلمات قد شاخت أيضاً من طول الاستعمال ، وتريد أن تستريح . وانتهت العجوزان من الاعتراف بخطاياهما ، ولكنهما لم تدركا ذلك ، وظلتا تتوسلانه وتطلبان شيئاً صماوين مقبضتين مثل مزق من حلم مزعج . ووراءهما اصطف الناس . وانحبس في نفس القس فاسيلي الكثير من الدموع الطازجة الحارة ، والكثير من الكلمات الطازجة المشحودة الوهاجة .

عند ذلك سلم الفلاح سيميون موسياغين بثلاث انحنيات تبلغ الأرض ، وتقدم من القس في مشية حذرة ، ففترس القس فيه ، ووقف وقفة اعتبار وصرامة ملتزماً مكانه ، ورفع عنقه الى الامام ، وطوى ذراعيه على صدره ، وراح يتلمس لحيته باصبع واحدة . اقترب موسياغين منه تماماً ، واخذته الدهشة حين رأى القس ينظر اليه ، ويبتسم ابتسامة خفيفة ، وينفخ منخريه كالحصان .

وقال القس وهو يكشر بسخرية :

- أنا اتوقعك من زمان . لماذا جئت ، موسياغين ؟

- للاعتراف ، -ردّ موسياغين بسرعة وطواعية ، وكشّر في مودة عن أسنان بيض متساوية ، وكانها منظومة نظماً .

- يعني تحس بتنفيس ، حين تعترف ؟ - مضى القس يقول ، وضحك ضحكة مقتضبة مرحة وودية ، كما بدا لموسياغين . فرد بنفس الابتسامة :

- أكيد .
- صحيح أنك بعث حصانك ، وآخر غنمة لك ، ورهنت عربتك ؟

نظر موسياغين الى القس بجدية وعدم ارتياح . كان وجهه خالياً من العاطفة ، وعيناه منكستين . صمت الاثنان . استدار القس فاسيلي نحو المقرأ ببطء ، وأمر :

- طيب ، أدل بخطاياك .

تنحنح موسياغين لينظف حنجرته ، وأخذ الامتثال ، ودفع رأسه وصدره نحو القس ، وأخذ يتحدث بهمس عال . وكلما كان يتقدم في اعترافه كان وجه القس يصير أكثر مناعة وصرامة . وكانا كان يتحجر تحت وابل كلمات هذا الفلاح الموجهة المقبضة . كان يتنفس أنفاساً عميقة متلاحقة ، وكأنه كان يختنق في ذلك الشيء العبثي الكليل الوحشي الذي كانوا يسمونه حياة سيميون موسياغين ، ويلتف حوله مثل حلقات سود لأفعى

- والرب ؟

زفر سيميون ، واكتسى وجهه حزناً .

- الرب ؟ ربما لا أستحق عونه .

وشعر موسياغين بالوحشة من أسئلة القس غير اللازمة ،لقى نظرة عبر كتفه الى الكنيسة الفارغة ، وعدّ بحذر شعرات لحية القس الخفيفة ، وفطن الى أسنانه السود التالفة ، وفكر : «أظنه يكثر من اكل السكر» ، وزفر .

- ماذا تنتظر ؟

- ماذا أنتظر ؟ وما هذا الذي سأنتظره ؟

وهبط الصمت من جديد . كانت الكنيسة مظلمة ، وباردة ، وصار البرد يتسلل تحت ثوب الفلاح . وسأل القس :

- يعني ، ستبقى الحال كما هي ؟

ورثت كلماته بعيدة جوفاء مثل حفنة تراب القيت على تابوت أنزل في قبره . فكرر موسياغين متشرباً كلماته :

- ستبقى الحال كما هي ، ستبقى كما هي .

وكان يتمثل في خياله ما شهد في حياته من وجوه اطفال جائعة ، وتقريعات ، وعمل شاق ، وغم ثقيل على القلب يرغبه في احتساء الفودكا والعراك . وسيتكرر ذلك ، يتكرر لوقت طويل وباستمرار حتى تحل المنية .لقى موسياغين على القس نظرة رطبة مضطربة وهو يرمش بسرعة ، فالتقت بعيني القس الحادثين اللامعتين ، ورأى أحدهما في الآخر

شيئاً قريباً منه متواشجاً معه ، وحزيناً بشكل غريب . وتقارب أحدهما من الآخر بحركة غير واعية . وضع القس فاسيلي يده على كتف الفلاح ، فانطرحت عليها برفق ورقة مثل شبكة من خيوط العنكبوت الخريفية . حرك موسياغين كتفه بلطف ، ورفع عينيه مؤتمناً ، وقال ، ونصف فيه مشغول بابتسامة ساخرة بائسة :

- أو ربما تخف ؟

رفع القس يده بهدوء ، وسكت . وراحته اهدابه البيض ترمش أسرع ، وشعرات لحيته الصهباء الوهاجة تتراقص أكثر مرحاً ، وراح لسانه يغمغم بشيء غير مفهوم وغامض .

- نعم ، بهذا الشكل لا تخف الحال . بالطبع ،

انت محق في قولك ولكن القس لم يدعه يكمل جملته . ضرب الأرض بقدمه بتحفظ ، ولذع الفلاح بنظرة حانقة عدائية ، وفح كالأفعى وقد ظهر عليه الغضب :

- لا تبك ! لا تجسر على البكاء ! الناس تجار شاكية . وماذا تستطيع أن أفعل ؟ - وضرب صدره باصبعه . - ماذا تستطيع أن أفعل ؟ فهل أنا الرب ؟ وجهه دعاءك اليه . طيب ، ادع الرب ، أياك اخاطب .

ودفع الفلاح :

- اركع .

وركع موسياغين :

١ - صل ! - هذه هي الحياة هذه الحياة

الى الخلف كانت الكنيسة تمتد فارغة معتمة ،
وفوق راسه كان القس الغاضب يصرخ : « صل » ،
صل ! » ، أسرع موسياغين فرسم علامة الصليب
دون أن يعي ، وأخذ يسجد ومن حركات رأسه
السريعة الرتيبة وغرابة كل ما حصل معه ، ومن
احساسه بأنه خاضع بكلية الآن إلى ارادة قوية
غامضة صار موسياغين يشعر بالرهبة التي تبعث
الراحة في النفس . لأن في هذا الخوف ذاته من كائن
قدير صارم تولد أمل في الحماية والرحمة . وصار
يضغط بجبهته على الأرض الباردة بشكل متعاطف في
شدته ، وعند ذاك أمره القس باقتضاب :

٢ - كفى ! - لا تمشي هكذا

نهض موسياغين ، ورسم علامات الصليب لكل
الايقونات القريبة منه ، وحين تقدم من القس ثانية
أخذت الشعرات الصهباء الوهاجة تتراقص وتدور
بطواعية مرحة . الآن صار يعرف في يقين الشيء
الذي يخفف عنه ، وأخذ ينتظر بهدوء ما يؤمر به
بعد ذلك .

ولكن القس فاسيلي ظل ينظر اليه بفضول
صارم ، دون أن يأمر بشيء آخر ، وعفا عن
خطاياهم . استدار موسياغين عند الباب . كان القس
يبدو في مكانه الأول شبحاً أسود غير واضح
المعالم . لم يستطع ضوء الشمعة الواهن أن يبرز
شخصه كاملاً ، فلاح هائلاً أسود ، وكانها بلا

معالم محدودة ولا حدود ، فلم يكن إلا جزءاً من
الظلام الذي كان يملأ الكنيسة .

ومع كل يوم كان يتوافد المزيد والمزيد من
الراغبين في الاعتراف ، فكانت الوجوه المغضنة
والفتية تتوالى أمام القس فاسيلي بلا انقطاع . فكان
يسأل الجميع بنفس الالاح والصرامة ويستمع
ساعات كاملة إلى أقوالهم المتخوفة المشوشة وكان
كل قول يحمل معنى المعاناة والفزع والترقب
العظيم . كان الجميع يدينون الحياة ، ولكن لا أحد
كان يريد أن يموت ، والجميع يترقبون شيئاً بلهفة
ولوعة . ولم يكن لترقبهم من بداية ، فكان الترقب
خلق منذ أن خلق الانسان الأول ، وصاحب كل
العقول والأفئدة سواء ما فني منها أو تلك التي ما
تزال حية ، وبسبب ذلك صار على ما هو عليه من
سلطان وجبروت . صار مريراً لأنه تشبع بكل
أحزان الآمال التي لم تتحقق ، كل مرارة الايمان
المخدوع ، كل الوحشة اللاهبة للوحدة المتناهية .
وسقته عصارات أفئدة الناس الأحياء والأموات
جميعاً فطلع شجرة جبارة تظلل الحياة . وفي بعض
الأحيان كان القس يتيه بين النفوس ، مثلما يتيه
المسافر في غابة بلا حدود ، ويضيع كل ما تحمله ،
وتوَجَّ رأسه بالبلاء الشديد ، فيأخذ هو الآخر
بترقب شيء ما ، يترقب بأناة ، يترقب بهول .
الآن لم يعد يريد دموعاً يذرفها انسان ، ولكنها
كانت تسح فائلة ، غير خاضعة لارادته ، وكانت

كل دمة مطلباً ، وكلها كانت تنغرز في قلبه مثل
ابر مسمومة . فأخذ يدرك وهو يحس احساساً مبهماً
بفضاعة وشيكة ، أنه ليس سيداً على الناس ، وليس
جارهم ، بل خادمهم وعبدهم ، وعينا الترقب العظيم
اللامعتان تبحث عنه ، وتأمراه - تناديه . فكان
يقول أكثر فأكثر ، وبحق مكتوم :
- اياه ادع ! اياه ادع !
ويشيع بوجهه .

وفي الليل كان الناس الأحياء يتحولون الى ظلال
شفافة تسير معه في حشد صامت ، وتفكر معه ،
فتجعل جدران بيتهم شفافة ، وجميع الأفعال
والحصون مضحكة . وتخرج الأحلام المعذبة الوحشية
من تحت جمجمته وتتكشف مثل شريط ناري .

في الأسبوع الخامس من الصوم ، حين فاحت
الحقول برائحة الربيع ، وصارت أغباش المساء
زرقاء شفافة مرت زوجة القس بدورة من دورات
السكر . ظلت تشرب أربعة أيام متتالية ، وصارت
تصرخ من الرعب والمرض وتتخبط ، وفي اليوم
الخامس ، وكان ذلك في مساء السبت ، أطفأت
السراج في غرفتها ، وعقدت فوطة على شكل
انثوطة ، وعلقت نفسها . ولكن ما كادت الانثوطة
تخنقها ، حتى ارتعبت وراحت تصرخ . وكان الباب
مفتوحاً فدخل القس فاسيلي وناستيا على الفور

راكضين ، وانزلاها . ولم ينجم عن ذلك كله غير
الهلع ، وما كان من الممكن أن ينجم عن أكثر من
هذا لأن الفوطة قد شددت شداً غير متقن ، وما كان
من الممكن أن تخنق وكانت زوجة القس أكثرهم
هلعاً . فأخذت تبكي ، وتطلب المعذرة . وكانت
يذاها ورجلاها ترتجف ، ورأسها يرتعش ، وأبقت
زوجها عندها طوال المساء ، لا تدعه يتركها ،
وتجتهد أن تجلس على مقربة منه . وبرجاء منها
أشعل من جديد السراج الذي أطفأته في حجرتها ،
ثم أمام جميع الايقونات ، فصار البيت وكأنه في
عشية عيد كبير بهيج . وبعد اللحظة الأولى من الهلع
هذا القس فاسيلي وصار لطيفاً ببرود ، بل وراح
يمزح . روى شيئاً مضحكاً جداً عن حياته في
المدرسة الدينية ، ثم انقل إلى طفولته البعيدة
جداً ، وكيف كان يسرق التفاح مع الأولاد . وكان من
الصعب التصور بأن الحارس سحبه من أذنه ، حتى
أن ناستيا لم تصدق ، ولم تضحك ، رغم أن القس
نفسه ضحك ضحكة طفولية خافتة ، وكان وجهه
ينم عن صدق وطيبة . وهذات زوجة القس شيئاً
فشيئاً ، وكفت عن النظر خلسة الى الزوايا المظلمة
وحين أرسلوا ناستيا لتنام ، سألت زوجها وهي
تبسم بهدوء وتخوف :

- ارتعبت ؟

غاضت الطيبة والصدق من وجه القس ،

وانفجرت شفاته وحدهما بابتسامة ساخرة حين
اجاب : *لا بد من ان لا نلجأ الى*
- ارتعبت ، بالطبع . ما هذا الذي تفتق عنه
عقلك ؟
ارتعدت الزوجة ، وكأنما من اثر هبة ريح
مفاجئة ، وقالت بتردد . واصابعها المرتعشة تعبت
بشراشيب منديلها السميكة . *يا فاسيا*
- لا ادري ، يا فاسيا . احس بوحشة
شديدة ، وبالخوف من كل شيء ، من كل شيء .
هناك شيء يحدث لا اعرف ما هو . ها هو الربيع
قادم ، وبعده سيحل الصيف ، ثم الخريف مرة
اخرى ، والشتاء . ومرة اخرى سنقعد كما نقعد
الآن . انت في ذاك الركن ، وانا في هذا الركن . لا
نزعل ، يا فاسيا ، انا افهم ان من الصعب تغيير
الوضع . . ومع ذلك . . *يا فاسيا*
وزفرت ، ومضت تقول دون ان ترفع بصرها عن
المنديل :
- من قبل كنت على الاقل لا اخاف من الموت ،
فاتصور ان حالي اذا ساءت اقضي على نفسي وينتهي
الامر . ولكنني الآن اخاف الموت . فماذا افعل ، يا
عزيزي فاسيلي ؟ واعدود الى الشرب من جديد ؟
ورفعت الى القس فاسيلي عيني حائرتين فيهما
ضجر قاتل ويأس لا حد له ، وضراعة صامتة خاشعة
لطلب الرافة . ذات مرة رأى فيفيسكي في المدينة
التي درس فيها تترياً ملطخاً يسوق الى المسالخ

حصاناً كان حافره المكسور يتدلى من الجلد ، فكان
الحصان يطأ الحجارة على كعبه المدمى مباشرة . كان
الجو بارداً ، وكان الحصان مغلفاً بغمامة من البخار
الابيض ووبره المبلل بالعرق يرسل لمعاناً ، وعيناه
تحدقان الى الامام جامدتين ، وكانتا مرعبتين بما
فيهما من وداعة . كعيني زوجة القس الآن . ففكر
القس لو ان احداً حفر قبراً ، ورمى يديه هذه
المرأة فيه ، وهال عليها التراب ، وهي حية ، لما
جانب الصواب .
حاولت الزوجة عبثاً ان تمص بشفتيها
المرتجفتين سيكارة انطفأت منذ وقت طويل ،
ومضت تقول :
- من جديد هو . انت تفهم من اقصد . اقصد
الطفل بالطبع . انا اشفق عليه ، ولكنه عن قريب
سيبدأ بالمشي ، وسيعذبنني . وما من عون من
أحد . ها انا قد شكوت اليك ، ولكن ما الجدوى من
ذلك ؟ ما العمل ؟ لا اعرف .
وتنهدت ، وباعدت كفيها بهدوء . وتنهدت معها
الحجرة الواطئة المخنوقة ، وتخايلت في الوحشة ظلال
الليل التي كانت تحديق بالقس فاسيلي بحشد
صامت . كانت تنتحسب مخبولة ، وتمد اذرعها
العاجزة ، وتدعو طالبة الرافة ، والرحمة والحق .
- آه
رد عليها صدر القس العظمي بانه طويلة .
وقف على قدميه واثباً ، فكفا المقعد بحركته

الحادة ، وراح يذرع الحجرة بمشية سريعة ، وذراعه
المطويتان ترتعشان ، هامساً بشيء ما ، مصططماً
بالمقاعد والجدران ، كالأعمى أو المجنون . وحين
كان يصطدم بالجدار كان يمرر عليه أصابعه
العظمية بسرعة ، ويعود راجعاً ، وهكذا ظل يدور في
القفص الضيق للجدران الصماء مثل أحد الظلال
الخيالية ، متخذاً هيئة مفزعة غير مألوفة . بينما
صارت عيناه جامدتين كعيني الأعمى على الضد من
حركة جسده المخبولة ، واغرورقتا بالدموع ، لأول
مرة منذ وفاة ابنه فاسيا .

نسيت زوجته ما هي عليه ، وراقبت زوجها
بفرع ، وصاحت :

- ماذا بك ، يا فاسيا ؟ ماذا بك ؟

استدار القس فاسيلي بحدة ، وتقدم من زوجته
بسرعة ، وكأنما كان يريد أن يسحقها ، ووضع على
راسها يده الثقيلة الناطة . وظل ممسكاً به وقتاً
طويلاً في صمت ، وكأنه يباركها ويعيدها من الشر .
وقال وكل نبرة عالية في كلمته كانت مثل دمعة مرنة
قُدَّتْ من معدن :

- مسكينة ، مسكينة .

وعاد الى مشيته السريعة ضخماً رهيباً في قنوطه
مثل وحش تنتزع منه صغاره . كان وجهه يغتليج
بتبكد ، وشفتاه النابضتان تهشمان الكلمات
المتقطعة المفعمة بشجن لا حد له .

- مسكينة ، مسكينة . الجميع مساكين .
الجميع يبكون . وما من عون ! أووه !
وتوقف ، ورفع الى فوق بصره المتفرس خارقاً به
السقف وعتمة الليل الربيعي ، وصاح بصوت ثاقب
كامد :

- وانت تصبر على ذلك ! تصبر ! اذن . . .
ورفع قبضته المضمومة عالياً ، ولكن زوجته
كانت قد طوقت ركبتها بيديها ، وراحت ترتعص
بهستيرية ، وتغمغم ، شاهقة بالدموع والضحك .
- لا داعي ! لا داعي ! عزيزي ، حبيبي . لن أفعل
بعد الآن ! . . .

استيقظ المعتوه ، وراح يصرخ وجاءت ناستيا
راكضة مذعورة وانطبق فكا القس وكأنهما من حديد .
أخذ يعتني بزوجته صامتاً بارداً في مظهره ، وأرقدها
في السرير ، وحين غفت أمسك السرير بكلتا يديه
ولازمه قاعداً حتى الصباح . ظلت القناديل تشتعل
أمام الايقونة طوال الليل الى طلوع الصباح ، وكأنما
في عشية عيد كبير بهيج .

في اليوم التالي كان القس فاسيلي ، كما هو
دائماً ، بارداً هادئاً ، لم يشر بكلمة واحدة الى ما
حدث . ولكن صوته ، حين كان يتحدث مع زوجته ،
ونظراته ، حين يصوبها اليها ، كانا مشوبين برقعة
كانت زوجته وحدها القادرة على التقاطها بما لها من
قلب معذب . وقد كانت تلك الرقة الرجولية الصموت
من القوة بحيث صار قلبها المعذب يبتسم بتهيب ،

ويحتفظ بها في أعماقه كهدية نفيسة . كانا قليلاً ما يتحدثان فيما بينهما ، وكانت أحاديثهما اللطيفة بسيطة واعتيادية ، وكان نادراً ما يكونان سوياً ، وقد فصلتهما الحياة ، ولكن أحدهما كان يبحث عن الآخر باستمرار بقلبه المثقل بالعذاب . وما من أحد ، ولا حتى القدر القاسي نفسه كان في إمكانه أن يحدد بأية لوعة يائسة وحنان كان أحدهما يحب الآخر . منذ زمان ، منذ أن ولد ابنهما المعتوه لم يعودا زوجاً وزوجة ، بل صارا مثل عاشقين رقيقين تعيسين ليس لهما أمل في سعادة ، وحتى الحلم نفسه يتهيب أن يتخذ عندهما شكلاً معاشاً . عاد إلى المرأة الخجل الذي فقدته والرغبة في أن تكون جميلة ، وكانت تحمر ، حين كان زوجها يرى ذراعيها العاريتين ، كما أنها فعلت شيئاً لوجهها وشعرها مما جعلهما يبدوان فتيين نضرين وبديعين بشكل غريب في حزنهما القاسي ذلك . وحين كانت نوبة السكر تعتريها كانت تلوذ بحجرتها ، مثلما تختبئ الكلاب ، حين تستشعر بداية السعار ، وتصارع الجنون والأشباح التي يخلقها بوحدة وصمت .

وفي كل ليلة ، حين كان يهجم كل شيء ، كانت زوجة القس تنسل إلى سرير زوجها غير مسموعة الخطى ، وترسم علامة الصليب على رأسه ، طاردة عنه الوحشة والأفكار الخبيثة . وتود لو تقبل يده ، ولكنها لم تكن تجرؤ . فتعود بأذيالها بهدوء من حيث أتت ، وشبهها يلوح أبيض مغبشاً في الظلام ،

مثل تلك الطيور المضطربة الكثيرة التي تنهض في الليل فوق المستنقعات وقبور الميتين والمنسيين .

٧

كان ناقوس الصوم الكبير يقرع بنفس الرتابة والسام ، فيبدو وكأنه بكل قرعة صماء منه يزداد سلطاناً على ضمير الناس ، فكان يتجمع المزيد منهم ، فكانت تتقاطر نحو الكنيسة من كل الجهات شخوص الناس ذات لون واحد ، كقرع الناقوس نفسه ، صامتة . كان الليل ما يزال يخيم على الحقول المعرّاة ، والجداول المتجمدة لم تترقق بعد ، حين أخذ الناس يظهرون على جميع الدروب وجميع الطرق يتحركون صوب هدف واحد غير مرئي منحرّتين ومتراپطين بسلسلة كثيفة . وفي كل يوم كانت تقف أمام القس فاسيلي ، منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من المساء وجوه إنسانية مضاءة مرة بضوء الشموع الأصفر حتى تبدى كل غضونها واضحة ، وضالعة مرة أخرى من الزوايا المظلمة مغبشة ، وكان هواء الكنيسة نفسه كان يتحوّل إلى ناس ينتظرون الرحمة والحقيقة . كان الناس يتزاحمون متدافعين في لهجة ضاربين الأرض بأقدامهم ، ويركعون على ركبهم بحركة لبخة متنافرة ، ويتنهّدون ، ويعرضون على القس ذنوبهم وبلواهم بإلحاح لا يفتّر .

وكان في كل عذاب وبلوى ما يكفي لعشرات من

الحيوات الانسانية ، فكان يبدو للقس الذاهل
المصعوق وكان العالم الحي كله قد حمل اليه دموعه
وعذاباته ينتظر منه الغوث ، ينتظر بمسكنة وطاعة .
من قبل كان القس يبحث عن الحقيقة ، اما الآن فقد
كان يغص بها ، يغص بحقيقة العذاب هذه التي لا
تعرف الرافة ، وفي احساسه المضني بالعجز كان يود
لو يهرب الى آخر الدنيا ، لو يموت حتى لا يرى ولا
يسمع ولا يعرف . لقد دعا اليه بلوى الناس ، وما
قد جاءت اليه تسعى . لقد كانت روحه تتوهج كما
يتوهج المذبح ، وكان يود ان يعانق كل من يفزع
اليه عناق الاخاء ، ويقول : « تعال ، يا صديقي
المسكين ، نصارع سوية ، ونبكي ، ونبحث . لأن
الانسان لا يجد غوثاً من أي جهة » .

ولكن المعذبين لم يكونوا ينتظرون هذا منه ،
فكان يردد بلوعة وحنق ويأس :
- اياه ادعوا ، اياه ادعوا !
وكانوا يصدقون به في حزن ، وينصرفون ، فتحل
محلهم صفوف رمادية جديدة ، فيكرر من جديد
كالمخبول كلمات رهيبه عاجزة :
- اياه ادعوا ! اياه ادعوا !

كانت الساعات القليلة التي يستمع فيها الى الحقيقة
تبدو له سنين ، ويصير ما كان في الصباح قبل
الاعتراف شاحباً كامداً مثل كل صور الماضي
البعيد . وعند ذاك كان آخر من يغادر الكنيسة ، وقد
خيم الظلام ، وراحت النجوم تتواضع بهدوء ، وهواء

الليل الربيعي الصامت يداعب الوجه برقة . ولكنه
لم يكن يصدق بهدوء النجوم ، ويخيل اليه ان انات
وصيحات واستغاثات صماء تأتي من هناك ايضاً ، من
تلك العوالم البعيدة . فيشعر بخجل شديد ، حتى
لكانه ارتكب كل الجرائم المرتكبة في العالم ، وأراق
جميع الدموع ، ومزق وقطع قلوب الناس كلها . كان
يخجل من البيوت المسحوقة التي يمر بها ، ويخجل
من الدخول في بيته ، حيث كانت الصورة الرهيبة
لذلك الذي نصفه طفل ، ونصفه وحش تخيم بجبروت
ووقاحة ، سلطاناً للشر والجنون .

وفي الصباحات ايضاً ، كان يسير الى الكنيسة
كما يسير الناس الى اعدام شائن فظيع ، حيث الجميع
جلادون : السماء الخالية من الاحساس ، والناس
الحائرون ، الضاحكون بسفاهة ، وفكره المجرد من
الرافة . كان كل انسان معذب جلاداً بالنسبة له ،
الكاهن العاجز للرب القدير على كل شيء ، فكان
الجلادون بعدد الناس ، والسياط بعدد النظرات
المؤملة المنتظرة . والجميع كانوا جادين بشكل
لا يلين ، ولم يهزأ احد من القس ، ولكن القس كان
يتوقع مرتجف الاوصال ان ينفجر ، بين لحظة
واخرى ، ضحك شيطاني رهيب ، فكان يخاف ان
يدير ظهره للناس . فان كل ما هو وحشي وخبيث
يولد وراء ظهر الانسان ، وطالما هو ينظر لا يجرو
احد على مهاجمته ، فكان ينظر موجعاً بصره ، وغالباً

ما كان يوجه نظره الى الجهة التي يقف فيها ايفان بورفيريتش كوبروف وراء المقرأ .

كان هذا وحده يتكلم بصوت عال في الكنيسة ، ويتاجر بالشموع بهدوء ، ويرسل الحارس والصبيان مرتين في اليوم ليجمعوا النقود . وبعد ذلك كان يعد القطع النقدية ، فترن بين يديه ، وكان يجمع الأوراق النقدية ضبات ، وكثيراً ما يصلصل بالقفل ، وحين كان الجميع يركعون على ركبهم كان هو يكتفي بحني رأسه ، ويرسم علامة الصليب ، والظاهر أنه يعتبر نفسه انساناً قريباً الى الرب ومهماً له ، ويعرف ان الرب بدونه سيجد صعوبة في ان ينظم كل شيء جيداً وبهذا النسق . وكان كوبروف قد زعل على القس فاسيلي منذ زمن ، منذ بداية الصوم ، لان القس يطيل الاعتراف ، ولم يكن في مقدوره ان يفهم اية ذنوب كبيرة وذات شأن يمكن ان تكون لمثل هؤلاء الناس لتستحق هذا الحديث الطويل . فكان يعزو ذلك الى عدم قدرة القس فاسيلي على العيش والتعامل مع الناس . فكان يقول للشماس الدمث الذي انهكته اشغال الصوم الكبير الشاقة ، مثلما انهكت جميع خدم الكنيسة :

- وهل تتصور انهم يقدررون ذلك ؟ لا ، ابدأ . بل سيضحكون منه .

ولكن كان يعجب بجهامة القس فاسيلي ، مثلما كان معجباً بطول قامته . فقد كان يتصور الكاهن الحقيقي مثل مقال دقيق نزيه لا بد ان يطالب بحساب

دقيق نزيه . وايفان بورفيريتش نفسه كان يصوم دائماً في الاسبوع الاخير من الصوم ، وينتهي الى الاعتراف مسبقاً ، وقبل وقت طويل منه ، محاولاً ان يتذكر ويستجمع كل الذنوب الصغيرة . وكان يفخر بأن ذنوبه على نسق اعماله .

في الأربعاء من اسبوع الآلام ، حين اخذت قوى القس فاسيلي تنضب كان لديه عدد كبير جداً من المعترفين . وكان آخرهم الفلاح العاجز تريفون ، وهو كسيح كان يجرجر نفسه على عكازيته بين قرية زناهمينسكويه والقرى المجاورة . كانت له بدلاً من رجليه اللتين حطمتا اثناء العمل في المصنع ، وقطعتا الى الحقددين قرمتان قصيرتان من الخشب مغلفتان بجلد . وكان له رأس قدر مغطى بما يشبه نسالة الكتان يقعد بين كتفيه المرفوعتين عالياً بضغط العكازتين ، ولحية ناسلة بمثل قذارة رأسه ، وعينان وقحتان مثل عيني شحاذ سكير ولص . كان كريهاً قذراً كحيوان وكان يزحف كالأفعى في الوحل والغبار ، ذا نفس وضيعة مدلهمة كنفوس الحيوانات . وكان من الصعب ان يفهم المرء كيف كان يعيش بهذا الشكل ، ولكنه كان يعيش ويشرب الى حد السكر ، ويتعارك ، بل وكانت له نساء خرافيات غير معقولات قليلات الشبه بالانسان ، مثلما هو .

اضطر القس فاسيلي الى الانحناء الى الأرض ليتناول اعتراف الكسيح ، وتكشف للقس في عطن جسد الكسيح الهاري الصريح ، وفي الطفيليات التي

كانت تدب لزجة في راسه وعلى رقبتة ، مثلما يدب هو نفسه على الأرض ، كل البؤس الفظيع المخجل المنافي للضمير ، بؤس هذه النفس الكسيحة . وأدرك بوضوح مخيف ما يحمل من فظاعة ولا عودة حرمان هذا الانسان من كل ما هو انساني كان محققا به مثلما الملوك في بلاطاتهم ، والقديسيون في صوامعهم . واعترفته رعدة . قال :

- اذهب . الرب سيغفر لك ذنوبك .
- انتظر . عندي شيء آخر أقوله ، - قال الشحاذ بصوت أجش رافعا الى فوق وجهه المحتقن بحمرة .

وروى أنه قبل حوالي عشرة أعوام اغتصب في الغابة فتاة قاصرة ، وقد بكت فأعطاهها ثلاثة كوبيكات وبعد ذلك أخذه الأسف على تقوده ، فخنقها ، ودفنها . ولم يعثروا عليها حتى الآن . وقد روى هذه الحادثة عشر مرات لعشرة قسس ، حتى بدت له من التكرار بسيطة واعتيادية ، ولا تمسه ، وكأنها حكاية من الحكايات الشعبية . وأحيانا كان يُغير في رواية الحادثة ، فيبدل الصيف بالخريف ، ويصف الفتاة تارة بأنها شقراء ، وتارة بأنها سمراء ، ولكن الكوبيكات الثلاثة بقيت على حالها . وكان بعض الناس لا يصدقون به ، ويضحكون منه ، مؤكدين أن أي حادث قتل لم يقع في المنطقة خلال الأعوام العشر الماضية ، ولم تفقد أية فتاة فيها وكانوا يكشفونه في متناقضات جمّة فظة ، ويشبتون بوضوح أنه قد اختلق هذه

الحادثة الفظيعة كلها حين كان سكران مطروحا في الغابة . فكان هذا يشير ضراوته فيصرخ ويقسم ، بالشيطان بقدر ما يقسم بالرب ، ويأخذ برواية تفاصيل مقززة قذرة جداً الى حد أن أقدم القساوسة كانوا يحمرون ، ويأخذهم الحق . وما هو الآن ينتظر هل سيصدق به قس قرية زنامنسكويه به أم لا يصدق ، وقد ارتاح لأن القس قد صدق به ، فقد ارتد القس عنه ، وشحب وجهه ، ورفع ذراعه كأنه سيسدد ضربة .

وسأل القس فاسيلي بصوت جامد :
- أهذا صحيح ؟
رسم الشحاذ علامة الصليب بسرعة :
- صحيح ، وحق الرب . عسى أن تنشق الأرض وتبتلعني . . .

صرخ القس :
- ستلقى في الجحيم على ذلك ! فاهم ؟ في الجحيم !

فغمغم الشحاذ متكدراً وعقاً :
- الله رحيم .

ولكنه كان واضحاً من عينيه الحانقتين المرتعبتين أنه نفسه ينتظر الجحيم ، وقد ألفه كما ألف حكايته الغريبة هذه عن الفتاة المخنوقة .

- على الأرض جحيم ، وفي السماء جحيم . فاين جنتك ، اذن ؟ لو كنت دودة لسحقك بقدمي ، ولكنك انسان ! انسان ! أم دودة ؟ قل لي من أنت ؟

- صاح القس وقد تطاير شعره ، كما يتطاير في
الريح . - أين ربك ؟ لماذا تخلى عنك ؟
ففكر الشحاذ بفرح : « صدق ، اذن ! » - شاعراً
بكلمات القس تنزل عليه كالماء الحار .
قرفص القس فاسيلي ، وهمس بعاطفة مستقياً
عزة غريبة موجعة في مهانة وضعيته غير الاعتيادية
هذه :
- انصرف ! ولا تخف . لن تدخل الجحيم . اؤكد
لك ذلك . فأنا نفسي قتلت انساناً . فتاة . اسمها
ناستيا . ولن ادخل الجحيم ! ستدخل أنت الجنة . مع
القديسين ، والأولياء . ارفع منزلة من الجميع ، ارفع
من الجميع . اؤكد لك !

في ذلك المساء عاد القس فاسيلي الى بيته في
وقت متأخر ، حين كان الناس قد تناولوا عشاءهم .
كان شديد الأعياء شاحب الوجه ، متصبباً بالعرق ،
مغطى الوحل ، وكانما سار وقتاً طويلاً في حقول
رطبة وبلا دروب مطروقة . كان أهل بيته يستعدون
لعيد الفصح ، وكانت الزوجة مشغولة ، ولكنها كانت
تترك المطبخ للحظة وتنظر الى زوجها في فزع ، وان
كانت تجاهد لتبدو مرحة ، وتخفي فزعها .

وفي الليل ، حين جاءت تمشي على اطراف
اصابعها ، بحكم عاداتها ، ورسمت علامة الصليب على
راس السرير ثلاثاً ، وهممت بالانصراف أوقفها صوت
خافت مرعوب لا يشبه صوت القس فاسيلي الصارم :

- ناستيا ! أنا لا أستطيع الذهاب الى الكنيسة .
كان في صوته ذعر ونبرة طفولية ضارعة . وكان
التعاسة كانت من الضخامة بحيث كان من المتعذر على
الكبرياء أن تلبس رداء الكلمات الرجراجة الكاذبة التي
يخفي الناس مشاعرهم تحتها . ركعت الزوجة عند
سرير زوجها ، وحدقت في وجهه الذي كان في ضوء
المسرجة الأزرق الواهن شاحباً كوجه الميت وجامداً ،
وعيناه وحدهما كانتا تغزranها من طرف . كان
مستلقياً على ظهره مثل مريض مدنف ، أو طفل
أفزع حلم مخيف ، فلا يستطيع حراكاً .
- صل ، يا فاسيا ، - همست الزوجة ، وهي
تمسك يديها الباردتين المطويتين على صدره ،
كالمت .

- لا أقدر . أشعر برهبة . أوقدي الضوء ، يا
ناستيا !

وبينما كانت ناستيا توقد المصباح أخذ القس
فاسيلي يرتدي ملابسه ، ببطء وخلخلة ، مثل مريض
في حالة سيئة لم يبارح سريريه منذ زمن طويل . لم
يستطع أن يشد أباذيم الغفارة بنفسه ، فرجا زوجته
أن تشدها . فسألت هذه مندهشة :

- الى أين ذاهب ؟

- لست ذاهباً الى أي مكان . هكذا فقط .
واخذ يسير في الحجرة ببطء ، محركاً بغير ثقة
رجليه وهما تنطويات بوهن . كان رأسه يهتز
اهتزازاً رتيباً لا يكاد يلحظ ، وفكه الأسفل يرتخي

خائراً ، فيرفعه بجهد ، مبتللاً بلسانه شفتيه
اليابستين الذابلتين ، ولكن الفك يعود فيرتخي بعد
لحظة ، ويكشف عن فتحة فمه السوداء . وكان ثمة
شيء هائل ورهيب بشكل لا يوصف ، مثل فراغ لا
حدود له ، وسكون لا حدود له يتقدم زاحفاً . ولم
يكن وراء جدران البيت أرض ولا ناس ولا عالم ، بل
كانت تلك الهوة السحيقة التي لا قرار لها ، والصمت
الأبدى .

سألت الزوجة ، يثلجها الرعب :
- فاسيا ! أيعقل أن هذا صحيح ؟
حرق القس فاسيلي فيهما بعينيه الكامدتين
الخاليتين من البريق ، وهزّ ذراعه في دفقة خاطفة من
القوة :

- لا ادري . لا داعي . أسكتي .
واخذ يسير من جديد ، وارتخي فكه الخائر مرة
أخرى ، وهكذا ظل يسير ببطء ، كالوقت نفسه ،
بينما كانت تجلس على السرير امرأة شاحبة ، تتحرك
عينها ببطء ، كالوقت ، وتراقبانه . وكان الشيء
الهائل يتقدم زاحفاً . وها قد جاء ، ووقف ، وشملهما
بنظرة فارغة مستوعبة ، ذلك الشيء الهائل كالفراغ ،
الرهيب كالصمت الأبدى .

توقف القس فاسيلي قبالة زوجته ، وقال ، وهو
ينظر إليها كامد البصر :

- ظلام . أوقدي شمعة أخرى .
وفكرت الزوجة : « في طريقه الى الموت » -

وأشعلت الشمعة بيدين مرتجفتين ، بعد أن اسقطت
بعض أعواد الثقاب .
- أوقدي أكثر .

وراحت تشعل الشموع وتشعل ، بينما كانت
القناديل والشموع الموقدة كثيرة . وضاعت مسرجة
الايقونة كنجمة صغيرة بعيدة في الق الأضواء الحي
الجسور ، فكان الجو يوحي وكان العيد الكبير البهيج
قد حلّ ، وهو الآن يتقدم هادئاً بطيئاً كالوقت في
فراغ مشع . في تلك الساعة ، حين تنور الفراغ رأت
زوجة القس وأدركت في لمحة واحدة خاطفة . ولكنها
مريعة ، أن زوجها وحيد لا يخصها ، ولا يخص أحداً ،
وانها ولا أحد غيرها يستطيع أن يغير ذلك . حتى
ولو جاء جميع الناس الطيبين الأقوياء من جميع أنحاء
الدنيا ، وعانقوه ، وخففوا عنه بلواه بكلمات رقيقة
فانه سيظل وحيداً ، كما هو الآن .

وفكرت من جديد شاعرة بالبرودة : « في طريقه
الى الموت » .

وهكذا راحت الليلة تنقض ، وحين كانت تشارف
نهايتها كانت خطوات القس فاسيلي تزداد ثباتاً ،
واخذت قامته تنتصب ، وقد نظر بضع مرات الى
زوجته ، وقال :

- لِمَ كل هذه الأضواء ؟ أطفئنها .

أطفات الزوجة الشموع والقناديل ، وهتفت
بصوت متردد :

- فاسيا ! . .

- غداً سنتكلم . اذهبي الآن الى حجرتك . يجب ان نستريح .

ولكن زوجته لم تنصرف ، وراحت تتضرع اليه بعينيها . فتقدم منها طويلاً قوياً كما كان ومسد على رأسها كما يمسد على رأس طفل ، وقال :
- هكذا ، يا زوجة القس !

وابتسم . بينما كان وجهه شاحباً ذلك الشحوب الشفاف وشحوب الموت ، وحول عينييه دائرتان سوداوان ، وكأن الليل قد تسلسل الى هناك ، ولا يريد ان يخرج .

في الصباح صرح القس فاسيلي لزوجته بأنه سيخلع عنه رتبته ، وفي الخريف ، بعد ان يجمع شيئاً من النقود ، سيرحلون بعيداً ، ولكن لا يعلم الآن الى اين . اما طفلهما المعتوه فسيظل هنا ، وسيعهد تربيته الى أحد الناس . فأخذت الزوجة تبكي وتضحك ، ولأول مرة بعد ولادة الطفل المعتوه قبلت زوجها من شفتيه محمرة مرتبكة !

وكان فاسيلي فيفيسكي قد بلغ الأربعين من العمر في ذلك الوقت ، وزوجته في الرابعة والثلاثين .

٨

استراحت روحاهما ثلاثة أشهر وعاد الى بيتيهما الأمل الضائع والفرح . وصدقت زوجة القس بالحياة الجديدة بكل عنفوان العذابات التي عانتها ، صدقت

بالحياة الجديدة تماماً ، والفريدة تماماً ، الحياة التي لا وجود لمثلها عند الآخرين ولا يمكن أن يكون . وكانت تشعر شعوراً غامضاً بما يجري في قلب زوجها ، ولكنها كانت ترى بشاشته الملحوظة ، الهادئة المستوية مثل لهب الشمعة ، كانت ترى لمعان عينييه التي لم تر مثله من قبل بخصوصيته ، وكانت تصدق بقوته . حاول القس فاسيلي ان يتحدث معها الى الجهة التي سيقصدونها ، وكيف سيعيشون ، ولكنها لم ترد ان تصغي اليه ، فان الكلمات الدقيقة المحددة كانت لا تريد ان تروغ حلمها العريض العديم الشكل ، فقد كان المستقبل والماضي المعذب يتقاربان بشكل غريب ورهيب . وكانت لا تريد الا شيئاً واحداً ، وهو ان يكون رحيلهما بعيداً ، خارج حدود العالم المعروف لها والمرعب كما هو من قبل . وكانت تحدث نوبات سكر كما في السابق ، ولكنها كانت تمر بسرعة ، ولم تكن تخافها ، لأنها كانت تؤمن بأنها عن قريب ستقلع عن الشرب تماماً . وكانت تقول لنفسه متألقة بنور حلم رائع وغير محدد : «هناك سيكون شيء آخر ، هناك لا احتاج الى ان اشرب» .

حين حل الصيف ، أخذت تخرج من جديد الى الغابة والحقل وتقضي النهار بأكمله هناك ، وحين تعود في المساء كانت تنتظر عند باب الحديقة عودة الأب فاسيلي من حش العشب . كان ظلام الليل الصيفي القصير يتكاثر خلصة وببطء ، حتى يبدو

وكان الليل لا يأتي أبداً ، والنهار لا يتمد ، ولكنها ،
حين تنتظر الى معالم يديها المغبشتين المطروحتين على
ركبتيها ، عند ذلك فقط . كانت تشعر بوجود شيء
بينها وبين يديها ، وهذا الشيء هو الليل بظلامه
الشفاف الغامض . ولكنها تأخذ بالقلق ، حين يصل
القس فاسيلي الطويل القوي المرح المغلف برائحة
العشب والحقل العادة اللذيذة . وقد جعل الليل وجهه
قاتماً ، وعيناه تلتصعان برقة ، اما صوته المتحفظ .
فكانه تشرب بالرحابة اللامتناهية للحقول وروائح
الأعشاب ، وفرح العمل الطويل . وكان يقول :

- لطيف على الأرض ، - ويضحك في اتران
ضحكة غامضة مبهمة ، وكأنما كان يضحك من شخص
ما ، او من نفسه هو . فكانت زوجته تقول باقتناع :
- بالطبع ، بالطبع ، يا فاسيلي ، لطيف ! -
وذمبا لتناول العشاء .

وكانت الحجرة الصغيرة تبدو للقس فاسيلي
ضيقة بعد رحابة الحقول ، فكان يخجل من يديه
ورجليه ، فيحركها بشكل آخرق مضحك حتى أن
زوجته كانت تمزح معه ، وتقول :
- لو اجبروك على كتابة وعظة الآن ، لا اظنك
تستطيع حتى الامساك بالقلم .

وضحكا .

ولكن ، حين بقي الأب فاسيلي وحيداً ، صار
وجهه جاداً وصارماً ، اذ لم تكن له الجراءة ، حين
يكون وحيداً أن يمزح مع افكاره ويضحك . كانت

عيناه تنظران بحدة وبترقب فخور ، لأنه كان يشعر
أن ذلك القدر القاسي الغامض كان ينيخ حتى على
ايام الهدوء هذه .

في ٢٧ تموز مساء كان الأب فاسيلي واحد
الشغيلة يجلبان حزم العشب من الحقل في عربة .

كان ظل الغابة الغريبة قد صار مائلاً وطويلاً ،
وعلى الحقل كله سرحت ظلال اخرى مائلة وطويلة
طالعة من كل مكان ، حين ترامى من جانب قرية
زنامينسكويه قرع متباعد لا يكاد يسمع يبعث الرهبة
لصدوره في غير وقته المعتاد . التفت القس فاسيلي
بسرعة . كان عمود كثيف من دخان الصمغ الأسود
يتصاعد من هناك ، حيث كان سطح بيته يبدو أسود
وسط اشجار الصفصاف ، ومن تحت العمود يتلوى
لهب احمر كالمخنوق وبدون ضوء . وخلال الوقت
الذي استغرقاه في إلقاء حزم العشب من العربة ،
والوصول بها الى القرية كان الظلام قد هبط ،
والحريق قد خمد ، ولم تبق الا الأعمدة المحترقة
السوداء ، تتوقد كالشموع ، وقراميد الموقد المعرّى
تلوح بيضاء كدرة ، والدخان الأبيض يهدم على
انخفاض كالبخار ، ويغلف أرجل الفلاحين الذين أطفأوا
الحريق فبدأ على خلفية الغروب اشباحاً مسطحة
غامضة معلقة في الهواء .

كان الشارع كله غاصاً بالناس . كان الفلاحين
يتدافعون في الوحل الجديد الذي تكوّن من الماء
المسكوب ، ويتحدثون بانفعال وأصوات عالية ،

وينظر أحدهم الى الآخر بامعان وكأنهم لا يتعرفون رأساً على معارفهم ولا على الأصوات . كان قطيع الماشية يساق في عودته من الحقل ، فكان يتحرك مذعوراً . كانت الأبقار تخور ، والأغنام تنظر جامدة بعيونها المبحلقة الشبيهة بالعيون الزجاجية ، وتتخبط ذاهلة بين الأرجل ، وترتد لذعر لا موجب له ، وتنقر الأرض بأظلافها عجلي وتثير الغبار . وخلفها كانت النسوة يتراكن ، وفي كل مكان في القرية كان يتردد نداء من مقطع واحد ، يدعو الأغنام الى زرائبها . وكان شيء وحشي بدائي يتصاعد من كل هذه الشخصيات الداكنة بوجوهها القاتمة وكأنها برنزية ، ومن النداء الرتيب الغريب ، ومن الناس والدواب يوحدتهم شعور غريزي واحد بالخوف .

كان اليوم ساكن الريح ، فلم يحترق الا بيت القس . وروى الناس أن الحريق بدأ في الحجرة التي كانت زوجة القس السكرانة تستريح فيها ، ولعله بسبب جذوة سقطت من سيكارتها أو من عود ثقاب رومي باهمال . وكان أهل القرية كلهم في الحقل ، فلم يتسن لهم غير انقاذ المعتوه الذي استبد به الذعر ، وبعض الأشياء الأخرى ، أما زوجة القس فقد أصابتها النار اصابة شديدة ، وأخرجت فاقدة الوعي بين الموت والحياة . وحين وصل القس فاسيلي في عربته ، وأبلغوه ذلك توقعوا أن تهده البلوى ، وتنفجر الدموع في عينيه ولكنهم دهشوا ، لأنه دفع بعنقه الى الأمام وراح يستمع اليهم بتركيز ذهن

وامتعام ، وقد زم شفتيه في مجاهدة ، وكان في هيئته كمن كان يعرف ما كانوا يروونه له ، سوى أنه كان يسمع تأكيداً لما كان يعرف . كأنه في تلك اللحظة القصيرة المجنونة التي وقف فيها ملتف الشعر مسمّر النظرة في عمود النار ، وقد جاء يعدو بجنون على عربة ناطة ، حدس كل شيء بما في ذلك السبب المحتمل للحريق ، ولضياع كل ملكيته وهلاك زوجته ، ونجاة طفله المعتوه وابنته ناستيا .

وقف برهة صامتاً مطرق العينين ، ثم دفع رأسه الى الوراء ، وأتجه بعزيمة وفي خط مستقيم عبر حشد الناس ، الى بيت الشماس حيث لجأت زوجته المحتضرة . فرأى أناساً صامتين سألهم بصوت عال : - أين هي ؟ - أشاروا له وهم ماضون في صمتهم ، فدنا ، وانحنى على كتلة شوها ، ترسل أنينا أجوف ، ورأى فقاعة بيضاء احتلت كامل الوجه الحبيب الأليف . وتراجع مرتعباً ، وغطى وجهه بيديه .

أخذت زوجة القس ترسل توجعات صماء ، ولعلها افأقت على نفسها ، وأرادت أن تقول شيئاً ولكن حشجة متقطعة صماء خرجت من حنجرتها بدلاً من الكلمات . أزاح القس فاسيلي يديه عن وجهه ، فكان بلا دموع ، كان ذا صرامة مؤثرة كوجه نبي . وحين تكلم بشكل واقعي وبصوت عال كما يتكلم الناس مع الصم كان في صوته إيمان رهيب غير اعتيادي لم يكن فيه ما هو انساني يرتعش حتى في قوته ، فان

ذلك الصوت لا يتكلم به غير تملكه قُرْب مخيف من
الرب يخضع لتوضيح .

لقد هتف :

- باسم الرب . هل تسمعينني ؟ أنا هنا ،
ناستيا . أنا هنا ، قربك . وطفلك هنا . هذا فاسيلي
وهذه ناستيا ابنتك .

كان من المستحيل أن يعرف المرء من وجه زوجة
القس الجامد المخيف ما اذا كانت تسمعه أم لا . ثم
رفع الأب فاسيلي صوته أكثر ، وتابع قوله مخاطباً
تلك الكتلة الشوهااء المحروقة :

- أعذريني ، يا ناستيا . أسلمتك الى الهلاك
بلا ذنب . . جعلتك تهلكين . سامحيني ، يا حبي
الوحيد . باركي طفلي في قلبك . ها هما . هذه
ناستيا ، وهذا فاسيلي . فباركيهما . واستريحي
بسلام . ولا ترتعبي من الموت . لقد غفر الرب لك .
الرب يحبك . وسيهبك السكينة . استريحي بسلام .
ستجدين فاسيلي ابنك الراحل هناك . استريحي .
تفرق الجميع ملتاعين صامتين ، واخرجوا الطفل
المعتوه الذي كان قد استيقظ من نومه . وبقي الأب
فاسيلي وحده مع المحتضرة طيلة ليل الصيف القصير
الذي لم تكن زوجة القس تصدق بقدومه . ركع على
ركبتيه ووضع رأسه قرب المحتضرة ، ملتقطاً بحاسة
شمه رائحة اللحم المحروق الرهيبة ، وبكى بدموع
غزيرة خافتة في شفقة لا تطاق . بكى على الشابة
الجميلة التي كانت تنتظر المسرات والألطف بقلب

واثق ، بكى على الشكى ، بكى على المخبولة المسكينة
المطوّقة بالرعب ، المطاردة بالأشباح . بكى على تلك
التي كانت تنتظره في أمسيات الصيف طائعة مشرقة .
هذا هو جسدها الرقيق الذي لم يلاطف ، جسدها الذي
أكلته النيران ، فراح يصدر هذه الرائحة . ماذا
فعلت ؟ صرخت ، لبطت ، نادى زوجها ؟

وأجال الأب فاسيلي عينيه الكدرتين فيما حوله
بفرع ، ونهض . كان المكان هادئاً ذلك الهدوء الذي
لا يكون الا في حضرة الموت . نظر الى زوجته . كانت
جامدة جمود الجثة الهامدة ، حين تبدو كل طيات
الملابس والمفارش وكأنها منحوتة من الحجر البارد ،
حين تشحب على الثياب ألوان الحياة الساطعة ،
وكانما تستبدل بأصباغ اصطناعية شاحبة .
وماتت زوجة القس .

كانت أنفاس الليل الدافئ الرقيق تتسلل من
النافذة المفتوحة ، وفي مكان بعيد ترسل جنادب الليل
اصواتها المنغمّة لتبرز سكون الحجرة . كانت
فراشات الليل التي دخلت من النافذة تدور حول
الفانوس بلا صوت ، وتسقط ثم تندفع نحو النار
بحركات مائلة مرضية ، واقعة في الظلام تارة ، بارزة
تارة أخرى مثل ندف الثلج البيضاء الدوارة . ماتت
زوجة القس .

وانشأ القس يقول بصوت عال وبذعر :
- لا ! لا ! أنا أو من ! أنت على حق . أنا
أو من .

رغم على رغبتيه ، ثم لصق وجهه بالأرض
المبللة ، وسط كتل القطن القذرة والضمادات ،
وكانما كان يتعطش الى أن يتحول الى رفات ، ويختلط
بالرفات . وقال في غبطة الامتهان الذي لا حدود له ،
طارداً من جملته ضمير «الأناء» :

— أو من !
وصلى من جديد ، بلا كلمات وبلا أفكار ، صلاة
جسده الهالك ، في نار وموت الذي وعى قربيه
المعجز من الرب . لقد كف عن الشعور بحياته هو ،
وكانما انقطعت الصلة الأبدية بين الجسد والروح ،
فرفع روحه ، وقد تحرر من الأرضي ، ومن نفسه
ذاتها ، الى ذرى غامضة غير مرئية . لقد تحولت
فظائع الشكوك والفكر المستقصي ، والحنق العام
والصیحات الجسورة لانسان الالباء المستثار ، تحول
كل ذلك الى رفات مع الجسد المطروح . وكانت الروح
وحدها ، التي حطمت قيود «الأناء» الموثقة تحيا حياة
الادراك الخفية .

حين نهض الأب فاسيلي ، كان الصباح قد
طلع ، وأشعة الشمس الطويلة الجميلة ترقد على
ثياب الميته المتججرة مثل رصعة . وقد أدهشه ذلك ،
لأن آخر ما علق في ذاكرته هو النافذة القاتمة ،
وفرشات الليل التي كانت تحوم حول الضوء . كانت
بعض الفراشات ترقد كتلاً داكنة قرب الفانوس الذي

ما يزال يشتعل بضوء أصفر لا يكاد يرى . الا فراشة
واحدة صغيرة شعناء ذات رأس كبير قبيح كانت
ما تزال حية ، ولكن لم تكن لها القوة على الطيران
فكانت تدب على زجاجة النافذة عاجزة ولعلها كانت
تتالم ، فقد كانت تبحث عن الليل والظلام ، ولكن
النور الجبار كان يطفح من كل مكان ، ويحرق الجسد
الصغير الدميم الذي ولد للظلام . اخذت الفراشة
تحقق بجناحيها القصيرين المحترقين مستميتة ،
ولكنها لم تستطع أن تحلق في الهواء ، فعادت تدب
بحركات منحرفة مائلة ساقطة على جنب ، وتبحث .
أطفا القس فاسيلي الفانوس ، وألقى من النافذة
الفراشة المضطربة ، واتجه الى حديقة الشمس
نشيطاً ، وكانما استيقظ من نوم عميق ، يملؤه
الاحساس بالقوة والجدة والطمأنينة غير الاعتيادية .
وفي الحديقة سار طويلاً في درب مستقيم ، عاقداً
يديه وراء ظهره ، مطأطئاً رأسه عند أغصان التفاح
والكرز الواطئة ، سار طويلاً يفكر . وقد بدأت
الشمس تدفئ رأسه من خلل الأشجار ، وانعكست
في العطفة سيلاً نارياً في عينيه ، وأعمته . سقطت
تفاحات قرصها الدود فوقعت على الأرض خافتة
الصوت ، وتحت أشجار الكرز كانت دجاجة مبيضة
تنكش الأرض وتقوق مصحوبة بدوزينة من الفراخ
الصفراء الزغبية ، ولكنه لم تلتفت الى الشمس ، ولا
الى سقوط التفاح على الأرض ، وظل يفكر . وكانت
أفكاره عجيبة ناصعة صافية مثل هواء صباح صااح ،

وجديدة أيضاً ولم تخطر أمثالها من قبل على ذهنه المدلهم بالأفكار الحزينة المضنية . كان يفكر في ما يتصوره فوضى وعبثاً خبيثاً هو في حقيقة الأمر طريق موثوق مستقيمة خطتها يد القدرة . وأن يد القدرة هذه قادتة الى مآثرة عظيمة ، الى تضحية عظيمة عبر درب المحن مبعدة اياه عنوة عن بيته ، وعائلته ، ومشاغلة الحياة اللاعبة . لقد جعل الرب حياته كلها صحراء ، ولكن لا لشيء الا ليقية الضرب في الطرق القديمة المطروقة ، في الدروب الملتوية الخادعة التي يضرب فيها الناس ، ليبعث عن درب جديد جريء في رحاب تلك الطريق الطليقة الشاسعة . اليس عمود الأمس من الدخان والنار هو نفس عمود النار الذي كان يرشد اليهود الى الطريق في الصحراء الخالية من الطرقات ؟ وفكر مع نفسه : «يا الهي ، وهل تكفيني قواي الهزيلة ؟» ولكن الجواب كان لهباً أضاء روحه مثل شمس جديدة . انه المختار .

انه المختار الى مآثرة لا تدركها الأبصار ، وتضحية لا تدركها الأبصار ، انه ، فاسيلي فيفيسكي ، الذي كان يتشكى من مصيره بكفران وجنون . انه المختار . فعسى أن تنشق الأرض تحت قدميه ، وتطل جهنم عليه بعينيها الحمراء المراوغتين ، فانه لن يصدق حتى بجهنم نفسها . انه المختار . اوليست الأرض صلبة تحت قدمه ؟ توقف القس فاسيلي ، وضرب الأرض بقدمه .

راحت الدجاجة المدعورة تقوق قلقاً ، وتتحفز داعية فراخها . كان أحدها بعيداً ، فركض على ندائها مسرعاً ، ولكن يدين كبيرتين عظيمتين حاريتين امسكتاه في الطريق ، ورفعته . زفر القس فاسيلي على الفرخ نفساً حاراً رطباً ، وهو يبتسم ، كوتر كفيه بنعومة على شكل عش ، وضمه الى صدره بحرص ، واستأنف سيره في الدرب الطويل .

- اية مآثرة ؟ لا اعرف . ولكن هل لي الجراة لان اعرف ؟ لقد كنت اعرف قدرتي ، ونعته بالقاسي ، واذا بمعرفتي هذه كذب . فكرت في أن انجب ولداً ، فدخل بيتي هولة ، لا شكل له ولا عقل . وفكرت في زيادة ملكيتي ، وترك البيت ، فاذا بالبيت يتركني قبل أن اتركه ويحترق بنار سماوية . هذه هي معرفتي . اما هي اليست امرأة بانسة بلا حد ، مفجوعة حتى في رحمها ، ذرفت كل دموعها ، وروعت بكل الفظائع ؟ كانت تنتظر حياة جديدة على الأرض ، وما كانت ستكون الا حياة مفجوعة . وما هي الآن ، ترقد ميتة هناك ، وروحها تضحك الآن ، وتسمى معرفتها كذباً . ان الرب يعرف . لقد وهبني الكثير . وهبني أن أرى الحياة ، واكابد العذاب ، وأنفذ بسنان بلواي الى عذابات الناس . لقد وهبني الاحساس بانتظارهم العظيم ، وهبني أن أحبهم . اليسوا في انتظار ؟ وهل أنا لا أحبهم ؟ يا اخوتي الأحباء ! لقد أشفق الرب علينا ، وجاءت ، بالنسبة لنا ، ساعة الرحمة الربانية !

وقبل رأس الفرخ الناعم ، ومضى يقول :
- طريقي . ولكن ايعقل ان يفكر في الطريق
السهم الذي اطلقت يد قوية ؟ انه ينطلق ويقرب
من الهدف مدعناً لارادة الرامي . لقد وهبت الرؤية ،
ووهبت الحب ، وما سيسفر عن هذه الرؤية وهذا
الحب ستكون ارادته القدسية - ماثرتي وتضحيتي .
دفى الفرخ في الكف الدافئة ، فغمض عينيه ،
وغفا . وابتسم القس .

- هذا الفرخ مثلاً . ما ان اعصر يدي حتى
يموت . بينما هو يرقد في يدي ، وينام على صدري
مطمئناً . الست انا في يد الخالق ؟ هل اجرو فانكر
رحمة الرب ، في الوقت الذي يصدق هذا بطيبتى
الانسانية ، بقلبي الانساني .

وضحك ضحكة خافتة كاشفاً عن اسنانه السوداء
المتعفنة ، وانفجرت الابتسامة في وجهه الصارم
المحصن عن آلاف الغضون الوضاعة ، وكانما شعاع
الشمس قد تراقص على ماء داكن عميق . واختفت
الأفكار الكبيرة المهمة وقد أربعها الفرخ الانساني ،
ولوقت طويل لم يبق الا الفرخ والضحك وضوء
الشمس والفرخ المزغب الناعم غافياً .

ولكن الغضون تلاشت ، وصار الوجه صارماً
ووقوراً ، وراحت العينان تلمعان بالهام . وتراءى
امامه الأكبر والأهم ، والذي اسمه : المعجزة حيث
لم يجرؤ فكره الذي ما يزال فكراً انسانياً ، وانسانياً
بافراط ، لم يجرؤ الى الالتفات الى ذلك الاتجاه .

فقد كانت هناك حدود الفكر ، هناك ، في الأعماق
المشمسة التي لا يسبر لها قرار ، كان يتراءى في
غير وضوح العالم الجديد للعدالة الالهية ، عالم
الوجوه المشرقة التي لا تعرف الوجل ، ولا تدنسها
غضون العذابات والجوع والأمراض . لقد كان
ذلك العالم يتألق مثل لؤلؤة هائلة مريعة في الأعماق
المشمسة التي لا يسبر لها قرار وكان من الموضع
والرهيب ان ينظر اليه بعينين انسانييتين . فاحنى
الأب فاسيلي رأسه خشوعاً ، ومضى يقول :
- ولتكن ارادتك المقدسة .

ظهرت شخوص في الحديقة : الشمساس وزوجته
وآخرون كثيرون . راوا القس من بعيد . واتجهوا
نحوه مسرعين يهزون رؤوسهم في ود ، واقتربوا اكثر ،
وابطأوا خطوهم ، وتوقفوا مسمرين ، كأنما واجهتهم
نار هائج ، جابهتهم نظرة هادئة غامضة لكائن لم
يعرفوه . سأل الأب فاسيلي مندهشاً :
- لماذا تنظرون اليّ بهذا الشكل ؟

ولكنهم لم يتحركوا ، وظلوا ينظرون . راوا
امامهم شخصاً طويلاً ، لا يعرفونه مطلقاً ، غريباً
عليهم تماماً ، كان يبعدهم عنه شيء فيه جبار في
سكينته . كان قاتماً ومخيفاً ، وكأنه ظل من عالم
آخر ، وكانت ابتسامته براقّة تسري على وجهه في
غضون وضيئة ، وكان الشمس تراقص على ماء
أسود عميق . وكان يحمل في يديه الكبيرتين
العظيمتين فرخاً مكوراً أصفر .

وكرر قوله مبتسماً :
- لماذا تنظرون اليّ بهذا الشكل ؟ هل أنا
معجزة ؟

٩

يبدو ان القس فاسيلي فيفيسكي ، كان ، فيما
يخص الجميع ، يلقي عن نفسه آخر ما كان يربطه
بالماضي ، وبمشاغل الحياة اللاعبة . فقد أسرع
وتراسل مع أخته التي كانت تسكن في المدينة ،
وارسل اليها ناستيا ، ولم يتأخر يوماً واحداً في ارسال
ابنته ، خائفاً أن يستحكم في قلبه حبه الأبوي لها ،
وان يكلف الناس الكثير . ورحلت ناستيا دون فرح
او حزن ، فقد ارتاحت من موت أمها ، ولم تأسف
الا على خلاص المعتوه من الحريق . وبعد أن جلست
في العربة ، وهي في ثوب قديم خيط من ثوب لأمها ،
وفي قبعة اطفال لبستها معوجة ، فكانت أشبه بفتاة
غريبة الثياب منها الى فتاة مرايقة ، راحت تنظر الى
الشماس بعدم اكتراث بعينها الشبيهتين بعيني
ذئبة ، وتقول بصوت أبيها الجاف :

- لا تكلف نفسك ، يا أبانا الشماس . مكاني
جيد ، وسأصل . وداعاً ، يا بابا .

- وداعاً ، يا ناستيا . أدرسي ، ولا تتكاسلي .
وتحركت العربة ، وهزت ناستيا ، ولكنها في
اللحظة التالية انتصبت كالعصا ، ولم تهتز من جانب
آخر في أخايد الطريق ، غير أنها كانت تنط . أخرج

الشماس منديلة ليلوح به مودعاً الراحلة ، ولكن
ناستيا لم تلتفت . فهزّ الشماس رأسه مؤنباً ،
وراح يتمخط في المنديل طويلاً ، وأعادته الى جيبه .
وهكذا رحلت ناستيا رحيلاً لا عودة فيه الى
زنامنسكويه .

وقال الشماس حين اختفت العربة ، واستقر
الغبار المتخلف منها :

- حبذا لو ارسلت ابنك ايضاً ، يا اب
فاسيلي . والا فسيصعب عليك وليس لك معين غير
الطباخة . فانها امرأة بليدة ، وطرشَاء علاوة على
ذلك .

نظر الأب فاسيلي اليه بشرود .

- وهل تريدني أن ألقى خطيئتي على الناس ؟
لا ، يا شماس . خطيئتي يجب أن تظل معي . سندبر
أمورنا على نحو ما ، الكبير والصغير . اليس كذلك ،
يا أبانا ؟

وابتسم برقة ولطف مع ما لا تؤذي من السخرية
من كل ما يعرفه هو وحده ، وربّت على كتف الشماس
السمينة .

عهد القس فاسيلي استثمار أرضه الى الأبرشية
قائلاً للعاشة بمبلغ بسيط ، «مبلغ أرمل» كما
سماه .

- أو ربما حتى هذا لا آخذه ، - غمغم في
غموض ، وبابتسامة لطيفة مع ما لا تؤذي من السخرية
من كل ما يعرفه هو وحده .

وقام بعمل آخر . ان سعى ليتشغل موسياغين المتورم من الجوع عند ايفان بورفيريتش . في البداية وحين ذهب موسياغين الى ايفان بورفيريتش برجا القس ، طرده ايفان بورفيريتش ، ولكنه بعد ان تحدث مع القس قبل ان يشتغل عنده ، بل وارسل الى القس فاسيلي ، علاوة على ذلك ، الواحاً لبناء البيت . وقال لزوجته الصموت ابداً ، والحبل دائماً :

- تذكرى كلمتي : سيفعل الافاعيل هذا القس .

فسالت الزوجة بلامبالاة :

- اية افاعيل ؟

- انواع . سأسكت طالما الامر لا يخصني .

والا . . . ونظر في النافذة من طرف خفي الى الطريق المؤدي الى المدينة مركز الولاية .

وشاعت ، ولا احد يعرف من اين - امن كلمات العمدة الغامضة ام من مصدر آخر - شائعات مبهمة مقلقة عن قس زنامنسكويه ، سرت في القرية أولاً ثم ابعد منها بعد ذلك ، وقد سرت ببطء وكثافة مثل بخار داخن متصاعد من حريق بعيد في الغابة ، ولم يكن احد من الناس يلحظ سراها ، سوى ان الناس بعد ان نظر بعضهم الى بعض ، ونظروا الى الشمس الباهتة ، صاروا يفهمون ان شيئاً جديداً مقلقاً غير اعتيادي قد حصل .

في نحو منتصف تشرين الاول بُني بيت جديد ، ولكن نصفه فقط قد اكمل بناؤه وسقف . اما النصف الثاني الذي بقي بلا عوارض سقفية ولا روافد ، ونوافذه فارغة بلا اطر فكان يلتصق بالجزء المسكون منه كما يلتصق الهيكل العظمي بانسان حي ، حتى ليبدو أثناء الليل مهجوراً مخيفاً . لم يعمد القس فاسيلي الى تأثيث البيت من جديد . فلم يكن في الغرف الأربع غير مقعدين بلا طلاء ومنضدة وسرير وسط جدران عارية من الجذوع الخشبية لم تلتحق أن تتصلب عليها قطرات الصمغ الكهرمانية . وكانت الطباخة البليدة الطرشاء لا تحسن اشعال الموقد ، فكانت رائحة الدخان تسرح في الغرف على الدوام ، وغالباً ما يصاب الراس بالصداع من غاز الخشب المحروق الذي كان يدب كسحابة رمادية على الارض القذرة المبقعة . وكان البيت بارداً . وفي اوقات الصقيع الشديد كان زجاج النوافذ يكتسي من الداخل بطبقة بيضاء من الجمد الكثيف ، فيسود البيت رفات لون أبيض شاحب . وعلى أفاريز النوافذ كانت تنشأ في بداية الشتاء قطع ضخمة من الجمد ، وكان يسيل منها على أرض الغرف خطوط من الماء وحتى الفلاحين البسطاء الذين كانوا يأتون الى القس للمقيام ببعض الشعائر الدينية ، كانوا ينظرون بارتباك وشعور بالذنب الى بؤس معيشة القس . اما الشماس فكان يسميه بغضب «حقارة الاهمال» .

عندما دخل الأب فاسيلي الى البيت الجديد لأول

مرة ، ظل يسير وقتاً طويلاً وبفرح في الغرف الفارغة الباردة كعنبر وقد قال للمعتوه مرحباً :

- عيشتنا معتبرة ، يا فاسيلي .

لعق المعتوه شفثيه بلسانه الطويل كلسان حيوان ، ووقوق بأصوات ناثثة عالية من مقطع واحد :

- هو - هو ! هو - هو !

وكان يشعر بالبهجة ، فكان يبتسم ، وكان سرعان ما شعر بالبرد والوحدة ووحشة المسكن المهمل فزعل ، وصرخ ولطم خديه ، وحاول الزحف على أرض الغرفة ، ولكنه وقع ، وأذى نفسه أذى موجعاً . في بعض الأحيان كان يسقط في حالة من التيبس الثقيل الشبيه باستغراق كابوسي غريب . كان يسند رأسه بإصابعه الدقيقة الطويلة ، ويخرج طرف لسانه قليلاً ، وينظر أمامه بجمود من تحت جفنيه الضيقتين كجفني حيوان بري صغير . وفي تلك اللحظات كان يبدو وكأنه ليس معتوهاً على الإطلاق ، وأنه يفكر في شيء غير اعتيادي لا يشبه أفكار جميع الناس ، وأنه يعرف أيضاً شيئاً غير اعتيادي ، بسيط وغامض ، لا يعرفه أي واحد منهم . فيتصور الناظر إلى أنفه المفلطح بمنخريه العريضين المكشوفين ، وإلى قفاه المبتور الذي ينسرح إلى ظهره رأساً بخط مستقيم كما لدى الحيوان ، أنه لو يُسَرَّت لهذا المخلوق رجلان قويتان سريعتان لركض رأساً إلى الغابة ، وعاش هناك حياة الغاب الغاضبة المملوءة بالألعاب والقسوة وحكمة الغاب السوداء .

وعاش القس فاسيلي معه جنباً إلى جنب ، منفرداً به دائماً تارة يصم أذنيه صياحه العارم الوقح ، وتارة تتابعه نظراته المبهمة المتحجرة ، عاش حياة منطوية جداً لنفس انقطعت عن الجسد . كان يريد أن يكون نقياً للمأثرة العظيمة ، ولتضحية عظيمة لا نظير لها فصارت كل نهاراته ولياليه صلاة مستديمة ، وبوح سريرة غير متبلور بكلمات . وبعد موت الزوجة فرض على نفسه صوماً صارماً ، فكان لا يشرب الشاي ، ولا يأكل اللحم ولا السمك . وفي أيام الصوم ، الأربعاء والجمعة ، كان يتغذى على الخبز وحده مغموساً في الماء . وفرض هذا الصوم الدقيق على المعتوه أيضاً بصرامة غير مفهومة شبيهة بالانتقام فكان هذا يتضور مثل حيوان جائع ، ويصرخ ، ويخدش نفسه ، بل وكان يبكي بدموع الكلب الضئيلة ، ولكنه لم يستطع أن يحصل على قطعة واحدة زيادة . وكان القس قليلاً ما يرى الناس ، إلا عند الضرورة ويقلص جاهدًا وقت وجوده معهم ، ويكرس كل ساعاته ، ما عدا فترات قصيرة للراحة والنوم ، وللصلاة ركوعاً . وحين كان يتعب كان يقرأ كتاب أعمال الرسل وحياة القديسين . كان القداس في الكنيسة لا يقام عادة إلا في الأعياد . والآن صار الأب فاسيلي يقوم بقداس الصباح كل يوم . وقد امتنع الشماس العجوز أن يساعده في ذلك فكان يعينه في ذلك المقرئ وهو عجوز قذر وحيد جرد من رتبة الشماس منذ زمان بسبب سكره .

كان القس فاسيلي يشق طريقه الى الكنيسة قبل انقشاع الظلام مرتجفاً من برد الصباح . وكانت المسافة غير بعيدة ولكنها كانت تستغرق وقتاً طويلاً . فقد كان غالباً ما تتجمع اكوام الثلج خلال الليل ، فكانت قدماه تغوصان فيها . وتنزلان في كتلة الثلج الجافة المتلاثة ، فكانت كل خطوة تعادل عشرأ . وكانت الكنيسة غير مدفاة كما يجب ، فكان البرد قارساً ، كذلك البرد النافذ الذي يسود عادة الأماكن غير المأهولة في الشتاء ، وكانت الأنفاس تخرج بخاراً كثيفاً ، والأشياء المعدنية تلدغ من شدة برودتها وكان المقرئ الخاص بالقس ، والذي هو حارس أيضاً ، يشعل موقعاً واحداً كان القس فاسيلي يفرص عند فتحته ويدفئ يديه ، والا فلا يستطيع ان يمسك الصليب بأصابعه المعكوفة المتصلبة . وكان خلال الدقائق العشر التي يقضيها في تدفئة أصابعه يمزج مع العجوز بخصوص البرد وعرق الغجر ، فكان المقرئ يصغي اليه جهماً متلطفاً وكان أنفه من السكر الدائم والبرد أحمر مزرقاً ، وذقنه الخشن الذي أخذ يحلقه بعد انزال رتبته يتحرك حركات متناسقة ، وكأنه يعلك علكة .

وبعد ذلك كان القس فاسيلي يرتدي مسوحه القديم الذي كانت الخيوط ناتئة عليه في مواضع التطريز المذهب . وتلقى قطعة بخور في المبخرة ، وياخذ الاثنان باداء القداس في الظلمة المهلهلة لا يكاد أحدهما يتبين الآخر ، ولكنهما كانا يتحركان كالعميان

في مكان معروف لهم . وكان عقبا شمعتين - أحدهما قرب المقرئ ، والثانية في المذبح عند ايقونة المنقذ - تزيدان الظلام كثافة ليس غير . وكان لهما المدبب يتمايل على الجانبين ببطء وفق حركة هذين الرجلين غير العجولين .

كانا يؤديان الصلاة وقتاً طويلاً ، وببطء وقوة . وكانت كل كلمة يتفوهان بها ترتعش ، وتنهشم في مقاطعها ، وترجع صدى بارداً في الكنيسة الخالية . ولم يكن هناك الا صدى ، وظلام ، وشخصان يتعبدان الرب . وشيئاً فشيئاً كان يحدث شيء في صدر المقرئ السكير ، فكان يغلب الصدى ، ويلتقط بحرص كل كلمة يرددوها القس ، ويبدا باستباقها في تحريك ذقنه الخشن ، وعند ذلك كانت تختفي الشيخوخة المنعزلة القدرة ، وتختفي كل الحياة الخائبة الكامدة ويحل محلها شيء غير اعتيادي ومفرح الى حد الدموع . وغالباً ما يظل صوت المقرئ عند المذبح بلا مجيب لوقت طويل ، ويهبط سكون طويل شامل ، ويصفر لسانا الشمعتين المدببان ، ثم يترامى صوت من بعيد مشبع بالدموع والفرح . ومن جديد يبدأ الشبحان البطيئان يتحركان بثقة في الظلام المهلهل ، ويتمايل لهما لهما الشمعتين وفق حركتهما المتتدة المنسقة .

وحين كان القداس يشتهي تكون الدنيا قد تنورت فيقول الأب فاسيلي :

- انظر ، يا نيكون ، كيف دفا الجو .

وكان البخار يطلع من فمه ، والغضون على خدي
نيكون تتورّد ، فينظر الى القس بجدية واستقصاء ،
ويسأل في غير ثقة :

- وهل سنأتي غداً ؟ لربما غير ممكن ؟
- كيف هذا ، يا نيكون . سنأتي ، سنأتي .
وكان يرافق القس الى الباب باحترام ، ويذهب
الى مكانه ليحرس . فكانت تستقبله عشرة كلاب
وجراء بزئيق ونباح . وتحيطه كالأطفال ، فكان
يطعمها ويداعبها ، بينما هو يفكر في القس . كان
يفكر في القس ، وتأخذه الدهشة . يفكر في القس ،
ويبتسم ، دون أن يفتح فمه ، ويستدير عن الكلاب
حتى لا ترى ابتسامته . كان يفكر ويفكر ، حتى
الليل . وفي الصباح كان ينتظر ما اذا كان القس
سيخذه ، أو يعيقه الظلام والبرد . ولكن القس كان
يأتي مرتعشاً من البرد ، ولكنه مرح ، ومن جديد
كان شريط الضوء الأحمر يتمدد من الموقد الى أقصى
الكنيسة المظلمة ، وعليه ينبسط ظل أسود
متلاشي .

في البداية كان الكثير من الناس يأتون ، وقد
سمعوا عن غرائب القس ، ليلقوا نظرة عليه ، وكانوا
يندهشون . وكان بعضهم يراه مجنوناً ، والبعض
الآخر يرق له ، ويبكي ، ولكن الكثير منهم كان
ينتاب قلوبهم فزع حاد قاهر . لأنهم كانوا يلتقطون
في نظرة القس المكشوفة المبراة من الخوف والوضاءة
وميض سر عميق دفيق ممثلي بما لا يمكن تفسيره

من النذر وبالمنحوس من الوعود . ولكن سرعان
ما تراجع الفضوليون ، وبقيت الكنيسة فارغة لمدة
طويلة في الساعات قبيل الصباح ، ولم يعكر أحد
سكينة المصلين ، القس والمقرى . ولكن ما هو الا
بعض الوقت حتى صارت دعاءات القس تلتقي من ظلام
الكنيسة زفرات مستحبة مكبوتة ، وتتردد اصوات
ركب ترتطم على الأرض الحجرية اثناء ركوعها ،
وممسات شفاه ، وتشتعل شمعة صغيرة ، ولكنها
كاملة ، حتى لتلوح بين عقبي الشمعتين مثل شجيرة
بتولا ، وسط غابة مقطوعة الأشجار .

وراحت تشتد شائعة مفزعة صماء لا تنسب
لأحد ، واخذت تسري في كل مجتمع للناس ، وترك
في اثرها شيئاً ، أثراً لهلع وأمل وترقب . كان الناس
يتحدثون قليلاً ، يتحدثون لا على التحديد ، وفي
الأكثر كانوا يهزون رؤوسهم ويتنهدون ، ولكن وصل
الأمر الى أن شخصاً في الولاية المجاورة ، على بعد
مائة فرسخ عن قرية زنامينسكويه ، شخصاً جهولاً
صموتاً أخذ يتحدث فجأة بصوت عال عن «عقيدة
جديدة» ثم عاد الى صمته من جديد . والشائعة
مستمرة في انتشارها ، كالريح ، كالسحب ، كدخان
حريق في غابة بعيدة .

وكانت المدينة آخر ما وصلت اليه الشائعات ،
وكانما كان يوجعها ويصعب عليها أن تنفذ من خلال
الجدران الحجرية الى الشوارع الصاخبة المكتظة .
وقد وصلت عارية مهلهلة شأن اللصوص ، وصارت

تحدث عن شخص احرق نفسه ، وعن نحلة مغالية
جديدة سرية . وصل الى زنامينسكويه رجال في بزات
رسمية ، ولم يجدوا شيئاً ، ولم تبج لهم البيوت ولا
الوجوه الجامدة بشي . فعادوا من حيث اتوا ،
وأجراس عرباتهم ترن .
ولكن الشائعات ، بعد هذه الزيارة ، صارت
أبعد صوتاً ، وأكثر خبثاً ، وفي كل صباح كان الأب
فاسيلي فيفيسكي يقوم بالقداس .

١٠

كان القس فاسيلي يقضي كل الأمسيات الشتائية
الطويلة وحيداً مع ابنه المعتوه ، سجيناً معه ، في
القفس الأبيض المصنوع من جدران جنود الصنوبر
والسقف ، وكأنما في قوقعة .
وقد احتفظ من الماضي بحب النور الساطع ،
فكان يشتعل على المنضدة مصباح كبير ذو زجاجة
محدبة يضيئ الغرفة ويدفئها بضوء أبيض . وكانت
النوافذ المتجمدة المكلفة بالجمد تتألق في الضوء
وتشع شراً ، وتقف منيعة كالجدران وتفصل
الشخصين عن الليل الرمادي الذي كان يحاصر البيت
مثل طوق لا حدود له ، ويضغط عليه من فوق
ويبحث عن شق ينفذ منه ظفروه ، ولكنه لا يجد . فكان
يعربد عند الباب ، ويتلمس الجدران بأيد ميته ،
ويفح برداً ، ويشير غاضباً الملايين من نتف الثلج

الجافة الحائقة ، ويقذفها على الأطر بشدة ، وبعد ذلك
يتراجع نحو العراء معربداً ، ويتقلب ، ويغني ،
وينبسط على الثلج ، مطوقاً الأرض المتجمدة عاقداً
ذراعيه عليها . ثم كان يرفع جسده ، و تقرص ،
ويحرق بصمت ولوقت طويل في النوافذ المضاءة ،
صارفاً بأسنانه . ومن جديد - يهجم على البيت زاعقاً ،
ويعول في المدخنة ذلك العويل الجائع لحق لا يشبع
وللوحشة ، ويوهم بأنه بلا أطفال فقد افترسهم ،
ودفنهم في العراء ، في العراء . . .

وكان الأب فاسيلي يقول : وهو يصغي : «هذه
زوبعة ثلجية» وينزل بصره الى كتابه من جديد .

ووجد الليل ما يبحث عنه . احدثت نار المصباح
الكبير دائرة في طبقة الجمد الكثيفة على زجاج
النافذة ، فالتمع الزجاج المبلل ، ومن الخارج
فالتصق الليل عينه الرمادية الحائلة اللون على
الزجاج . هناك شخصان ، شخصان ،
شخصان . . . جدران غارية مهلهلة عليها قطرات
لامعة من الصمغ الكهربائي ، خواء هواء مشع ،
وشخصان . . . شخصان .

كان المعتوه يحني جمجمته الصغيرة المنحوتة ،
ويصنع عُلْباً من الكارتون . يطلي بالصمغ ممسكاً
الريشة من طرف مقبضها الطويل ، ويقص الورق ،
وكل صلصلة مقص كانت تنشر في البيت الفارغ
بوضوح وجهازة . كانت العلب تخرج من بين يديه
رديئة معوجة ملطخة ورقها ناتئ ينفك صمغه ،

ولكن المعتوه لا يعرف ذلك ، فيواصل عمله . ومن حين لآخر كان يرفع رأسه ، وينظر في فضاء الغرفة المضاء من تحت جفنيه الضيقين الشبيهين بجفني وحش ، حيث كانت أصوات تتصادم وتتطارع وتدور . خشخشة ، شحيط ، فرقة ، زفرة مملوطة . كانت تتلول فوقه ، وتتراكض على وجهه كالعنيكبوت ، وتدخل في رأسه . خشخشة ، شحيط ، زفرات طويلة مملوطة . بينما كان الرجل الذي يقابله ساكن الحركة صامتاً .

قراع !
قرقع الخشب الذي اخذ يجف ، فجفل الأب فاسيلي وانتزع بصره من الصفحات البيض . وعند ذاك أبصر الجدران العارية ، والنوافذ المتجمدة ، وعين الليل الرمادية ، والمعتوه ، وقد جمد والمقص في يده . تراءى كل ذلك ، كالطيف ، ومن جديد راح ينبسط أمام عينيه المطرقتين عالم المعجزة الذي يطال ، عالم الحب ، عالم الشفقة الحنون والتضحية الرائعة .

با . . . با ، - تمتم المعتوه ، وقد تعلم هذه الكلمة منذ وقت قصير ، ونظر الى أبيه من حاجبيه بغضب وذعر .

ولكن الرجل لم يسمع ، وبقي على صمته ، وكان وجهه الوضاء ملهماً . كان يحلم أحلاماً عجيبة أحلام جنون مشرق كالشمس . كان يؤمن - إيمان أولئك الشهداء الذين كانوا يدخلون نار الحرق ،

وكانهم يدخلون رواقاً بهيجاً ، ويموتون ، ممجدين ، وكان يحب - ذلك الحب الجبار القاهر ، حب الملك الذي بيده الحياة والموت ، ولا يعرف عذابات العجز المأساوي لحب الانسان . فرح ، فرح ، فرح !

با . . . با ! با . . . با ! - تمتم المعتوه مرة أخرى ، ولكنه لم يتلق جواباً فانشغل بالمقص من جديد . الا انه تركه بعد قليل ، وبحلق بعينه الجامدتين ، ووتر أذنيه الكبيرتين ، وراح يلتقط بسرعة الأصوات المتراكضة . نشيش وشحيط ، صوات وصفير . وضحك . كان الليل يلعب . جلس على رافدة البيت المهمل ، وأخذ يتأرجح ، ويرتطم في الثلج ، وينسل خلسة الى ركن ، ويحفر قبراً هناك ، للآخرين ، للآخرين . ويغني : للآخرين ، للآخرين . ويرتفع الى فوق بفرح ، ويرفرف بجناحيه العريضين الرماديين ، باحثاً بعينه . ثم سقط الى الأسفل كالعجر ، ودار ، واندفع في النوافذ المظلمة للبيت المكسو بالجمد مصوئاً صاقراً . كان يطارد ندف الثلج ، فكانت هذه تركض صامتة شاحبة من الفزع مندفعة الى الأمام .

وصاح المعتوه بصوت عال :
با . . . با ! با . . . با !

ويسمع الرجل ، ويرفع رأسه بشعره الطويل الأسود المشيب كالمعدن ، كالليل ، يوتر وجهه . وللحظة تنتصب أمامه الجدران العارية ، ووجهه

المعتوه المغتاط المفزوع ، وزعيق الزوبعة الثلجية
المحتدة ، وتملا روحه بغبطة موجعة . ها هي
تتحقق . تحققت !
- ما لك ، يا فاسيلي ؟ لماذا لا تلصق ؟
الصق .

- با . . . با !
لماذا تقلق ؟ الزوبعة ؟ نعم ، نعم ، الزوبعة .
التصق الأب فاسيلي بزجاج النافذة . عينه بعين
الليل الرمادي ، وينظر ، ويهمس بذعر :
- لماذا لا يندق الجرس ؟ ماذا لو أضع طريقه
في العراء ؟

ويبكي الليل في العراء ، في العراء ! . .
- انتظر قليلاً ، يا فاسيلي ! أنا ذاهب الى
نيكون . وسأعود حالاً .
- با . . . با !

يصفق الباب ، مصدراً أصواتاً تنضغط على
الباب - ولكن لا احد هناك . اضاءة وفراغ وتنسل
الأصوات نحو المعتوه واحداً في أثر الآخر - على
الأرض ، على السقف ، على الجدران ، وتحلق في
عينيه الوحشيتين ، تهمس ، تضحك ، وتأخذ
باللعب . في مزيد من المرح ، في مزيد من الخفة .
وتتسابق ، وتقفز وتسقط . تقفل شيئاً في الحجرة
المجاورة المظلمة ، تتعارك ، تبكي . لا احد .
اضاءة ، وفراغ . لا احد .
- يوم م !

وتصدر ضربة الجرس الاولى في مكان في الأعلى ،
وتفرق الأصوات الصغيرة المذعورة - بووم ! -
تصدر الضربة الثانية صماء لزجة ممزقة ، وكان
الريح تملا شدة الجرس الواسع . فيختنق وينن .
تراكضت الأصوات الصغيرة هاربة .
- ها أنا !

يقول الأب فاسيلي مكسواً بالبياض يرتجف .
أصابه الحمراء المشدودة تعجز عن تقليب الصفحات
البيضاء . ينفخ عليها ، يفرك اصبعاً باصبع ، ويقلب
الصفحات في خشخشة خافتة . ويختفي كل شيء .
الجدران العارية ، قناع المعتوه الكريه ، وأصوات
الجرس الصماء المتناسبة . ومن جديد يلتهب وجهه
بغبطة جنونية . فرح ، فرح !
- بووم !

الليل يعبث بالجرس . يلتقط أصواته القوية
السميكة ، يطوقها بهسيس وصفير ، يمزقها ،
ينثرها ، يدحرجها ثقيلة في العراء ، يغطس في
الثلج ، يتسمع حائياً رأسه الى جنب ويركض من
جديد للقاء الأصوات الجديدة ، لا يكمل حانقاً ،
ماكراً كالشيطان .

- با . . . با ! - يصرخ المعتوه ، ويلقي
المقص على الأرض فيرن .
- ماذا بك ؟ طيب ، اهدأ .
- با . . . با !

صمت في الحجرة ، صفير ، وصليل مشؤوم

لزوبعة ، وضربات لزجة صماء . المعتوه يدير رأسه
بعسر . تتحرك بوهن رجلاه النحيلتان الخاليتان من
الحياة بأصابعهما المعكوفة وباطنهما الرقيق الذي لا
يعرف الأرض ، تتحركان بوهن ، في تشوق عاجز الى
الجري ، وينادي :
- با . . . با !

- اوه ، طيب . توقف . استمع الى ما اقرا
لك .
وقلب القس فاسيلي صفحة الى الوراء ، واخذ
يقرا بصوت رصين حازم كما في الكنيسة :
- « وفيما هو مجتاز راي انسانا أعمى منذ
ولادته . . . »

ورفع ذراعه ، ونظر الى فاسيا ممتقع الوجه .
- تفهم ! أعمى منذ ولادته . لم ير الشمس
قط ، ولا وجوه أصدقائه وأقربائه . جاء الى
الحياة ، والظلام يطبق عليه . انسان مسكين !
انسان أعمى !

وكان في صوت القس ايمان قوي ، وبهجة شفقة
مشبعة . ويسكت ، وينظر نظرة تبتسم بهدوء ،
وكانما لا يحب أن يفارق ذلك الانسان الذي كان
أعمى منذ ولادته لم ير وجه صديق ، ولم يتصور
كم هي قريبة منه رحمة الله . الرحمة والشفقة ،
الشفقة .

- بوووم !

- طيب ، اسمع يا ولدي . « فسأله تلاميذه
قائلين :

يا معلم ، من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد
أعمى . فأجاب يسوع : لا هذا أخطأ ولا أبواه ، لكن
لتظهر أعمال الله فيه » .

ويقوى صوت القس ، ويملا كل الحجرة العارية
بتهدجاته . وتخترق نبرات—ه العريضة النشيش
الخافت ، والشحيط ، والصغير ، والطنين المملوط
الممزق التائه الذي يرسله الجرس المخنوق .
ويبتهج المعتوه بصوت الأب الناري ، وبعيني—ه
اللامعتين ، والصغير ، والطنين . فيضرب أذنيه
الناثنتين ، ويجار ، وينحدر خطان قذران من اللعاب
الكثيف على حنكه العريض .

- با . . . با ! با . . . با !

- اسمع ، اسمع : « ينبغي أن أعمل أعمال
الذي أرسلني ما دام نهار . يأتي لي ليل حين لا
يستطيع أحد أن يعمل » . « فما دمت في العالم ، فأنا
نور العالم » . أبد الآبدين ، أبد الآبدين !

- يرسل في الليل والزوبعة الثلجية هذا الهتاف
الجياش المظفر . - أبد الآبدين !

الجرس يدعو الضالين ، وصوته الهرم المبتور
يبكي في عجز . والليل يسري على أصواته السوداء
العمياء ، ويغني : هما اثنان ، اثنان ! وينطلق نحو
البيت ، ويدق بابه ونوافذه ، ويغني : هما اثنان ،
اثنان !

والقس فاسيلي يسمعه مرتبكاً ، ويسأل المعتوه
بحدة :

- ما لك قد قدم ؟

ولكن المعتوه يسكت ، وينظر الأب فاسيلي اليه
مرة أخرى في ارتياب ، يتابع :

- «أنا نور العالم» . قال هذا وتفل على
الأرض ، وصنع من التفل طيناً ، وطلي بالطين عيني
الأعمى وقال له : «اذهب اغتسل في بركة سلوام
(الذي تفسيره مر"سل) . فمضى واغتسل واتى
بصيراً» .

- بصيراً ، فاسييا ، بصيراً ! - صاح القس
مخيفاً ، وانقلع من مكانه ، وراح يسير في الحجرة
بسرعة . ثم توقف في وسطها ، وهتف : «أؤمن ،
يا رب ، أؤمن !»

وسكن المكان ، حتى حطم السكون ضحك عال
هادر صدم ظهر القس ، فالتفت مذعوراً .

- ما هذا ؟ - سأل مفزوعاً متراجعاً .

كان المعتوه يضحك . ومزق الضحك الغبي
الخبيث القناع الهائل الجامد مزقه حتى الأذنين ،
ومن فتحة الفم العريضة راح يندفع ضحك كثيف
متوئب بشكل لا يغلب :

- هوه - هوه ! هوه - هوه !

في عشية عيد العنصرة ، عشية عيد الربيع
المشرق البهيج كان الفلاحون ينقلون الرمل لينثروه
في الممرات . وكانت الحفر العميقة التي كان فلاحو
زنامينسكويه يأخذون منها الرمل خلال عدة سنين
تقع على بعد فرسخين من القرية ، وسط الأطراش
الكثيفة العالية التي كانت تحتطب منها أشجار البتولا
والحور والبلوط . كان شهر حزيران في مستهله ،
وكان العشب قد ارتفع الى الخصر ، وغطى الى
النصف الخضرة الشرة الجبارة ، خضرة الأجمات
الملتفة ذات الأوراق الكبيرة الممضلة الخضرة .
وكانت الزهور كثيرة في ذلك العام ، والنحل يأتيها
من كل مكان . وكان الطنين المنسق الحار والشذى
الرقيق البسيط ينسابان الى قاع الحفرة العميقة ذات
الجدران المتهاشة الزلقة . ولعدة أيام كان كل شيء
ينتظر الزوبعة المطرية ويستشعرها . وكانت تحس
في الهواء الساخن الساكن ، وفي الليالي الساكنة
الهواء الخالية من الندي . وكانت الماشية المعذبة
تستدعيها بخوارها الضارع ، ورؤوسها المرفوعة .
وكان الناس يحسون باختناق الأنفاس ، وفي طيب
مزاج أيضاً ، فقد كان الهواء الساكن يضيق على
الأنفاس ، ويرهق ، ولكن شيئاً مقلقاً كان يبعث على
الحركة وعلى الأحاديث العالية المندفعة ، والضحك
الذي لا موجب له .

كان ثمة اثنان يعملان : هما المقرىء نيكون الذي كان يجلب الرمل للكنيسة ، وشغل العمدة سيميون موسياغين . فقد كان العمدة ايفان بروفيريتش يحب أن يكون الرمل كثيراً عنده سواء اكان في الشارع امام بيته او في فناء بيته المرصوف بالحصى ، وقد استطاع سيميون أن يجلب عربة منذ الصباح ، وصار يعبئ عربة أخرى غارفاً بخفة ارفاشاً ملأى بالرمل الذهبى الجميل . وكان فرحاً بطنين النحل الحاد وبالرائحة والعمل اللطيف . فكان ينظر بمعابثة الى المقرىء الكئيب الذي كان يحفر الرمل بتكاسل بمكشطة مفلطحة ويناكفه قائلاً :

- آه ، يا اخ ، يا نيكون ايفانوفيتش ، جمالنا يضيع بلا طائل !

- لا كلمة ! - اجاب المقرىء بتهديد كسول غير محدد ، وبينما كان يتكلم كان الغليون الداخن يتدلى من فمه على حنكه الأشيب الخشن الشعر ، ويطلق .

فقال سيميون محذراً :

- اياك انه تسقط المصاصة من فمك ! لم يرد نيكون بشيء ، ومضى سيميون يحفر بمرح دون أن يتكدر . وكان خلال الأشهر الستة التي يشتغل فيها عند ايفان بروفيريتش قد صار أملس مدوراً كالخيارة الطازجة ، ولم يستطع العمل السهل أن يستنفد كل قواه وباله . فكان يدك

الأرض بسرعة ويحفر ، ويقذف ، وكان يجمع الرمل الذهبى المنثور الكبير الحبات بخفة وسرعة دجاجة تجمع الحب ، ويحرك الرفش مثلما يحرك لساناً عريضاً ذرباً . ولكن الحفرة التي أخذ منها الرمل قبل يوم كانت قد نضبت ، فبصق سيميون فيها بقوة . - اوه ، الرمل هنا قليل . يعني احفر هناك ؟ ونظر الى شبه كهف منخفض محفور في حائط غير متماسك ، كان يتألق بطبقاته الحمراء الرمادية المخضرة ، واتجه نحوه بتصميم .

نظر المقرىء الى الكهف ، وفكر : «سينهار» الا انه لم يقل شيئاً . ولكن سيميون سمع ما دار في ذهن نيكون فتوقف وقد بدا عليه فزع غامض أشبه بغشيان خفيف مفاجئ ، وسأل ملتفتاً :

- ماذا تتصور ، هل سينهار ؟ اجاب المقرىء الحارس :

- وكيف لي أن اعرف !

كان ظلام الفتحة البيضوية الشبيهة بفم مفتوح يوحي بشيء غدار متربص . فأخذ سيميون يتردد . الا أن رائحة اوراق وزهور مثيرة كانت تنبعث من فوق ، حيث كانت أجمة بلوط تتدلى فوق الحفرة ، وترسم على السماء الزرقاء معالم اوراقها الحادة المرتعشة ، فكانت هذا الرائحة تدفع الى الاتيان بشيء جريء مرح . بلل سيميون كفيه بلعابه ، وتناول الرفش ، وغززه للمرة الثانية ، عند ذلك فقط خشخش شيء خشخشة ضعيفة ، وانهار الجدار

كله الى الأسفل دون صوت ، وغطاه . ولم تبق الا
اجمة البلوط الثابتة في جذورها ، تهز أوراقها هزاً
خفيفاً ، وكتلة جافة مستديرة من الرمل تتدحرج حتى
وصلت قدم الحارس الممتقع الوجه ، وتوقفت
بسيطة بريئة . وبعد ساعتين أخرج سيميون وقد
فارق الحياة . كان فمه المفتوح على وسعه بأسنانه
النظيفة المتساوية وكانها منظومة بخيط محشواً
بالرمل الذهبي ، وكان نفس هذا الرمل الذهبي
الجميل منثوراً على وجهه كله - في وقبي عينيه
الغائصين ، بين أهدابه البيض ، في شعره الكتاني ،
ولحيته الحمراء كالنار . كان الشعر الأحمر يلتف
ويتراقص كما كان من قبل فكان بمثابة سخريّة
وحشية هذا الرقص الجسور المرح بشكل غير
معقول حول وجهه الشاحب الميت .

وجاء سينكا ابن موسياغين الميت يركض مع
الناس المتجمعين ، اذ لم يأخذه أحد على حصانه ،
فقطع الطريق كله راكضاً وراء السائرين ، حتى
كانت تسمع أنفاسه اللاهثة ، وبينما كانوا يخرجون
أباه من تحت الجدار المنهار وقف في منأى على كتلة
طين ، جامداً لا حراك له ، مثل عينيه المفرستين في
التل الرملي المتناقص .

وضعوا الميت على عربة فوق الرمل الذي حفره
وغطوه بحصيرة ليف ، وساروا به في خطو هادي
الى زنامينسكويه خلال طريق مقطوع في الغابة . وفي
الخلف سار الفلاحون متفرقين في مشي هادي ،

متناثرين بين الأشجار ، فكانت قمصانهم تحت رقع
الشمس تلتهب ناراً حمراء . وحين مروا بيت ايفان
بروفيريتش ذي الطابقين عرض المقرى أن يوضع
في بيته . .

- انه شغيله ، وعليه أن يدفنه .
لم يكن أحد لا في النوافذ ، ولا قرب البيت ،
وكان الحانوت مغلقاً بقفل حديدي مدلى . طرخوا
طويلاً بوابة البيت العالية بمساميرها الكبيرة
العريضة الرؤوس ، ثم جذبوا الجرس الكبير ،
وسمعوا صوته يتردد عالياً حاداً وراء الركن ،
واخذت الكلاب تنبح في الفناء ، ولكن لم يظهر أحد .
وفي آخر الأمر خرجت الطباخة العجوز ، وقالت ان
سيد موسياغين يأمر بأخذه الى بيته ، وسيقدم
عشرة روبلات للدفن لا تحسب من حساب أجره . وبينما
كانت توضح لجمهور الناس خرج ايفان بروفيريتش
نفسه محنقاً مذعوراً ، ونظر من وراء الستارة الى
الحصيرة الرهيبة ، وهمس لزوجته :

- تذكرى كلامي : حتى لو قدم لي القس
مليوناً ، فلن أمد له يدي ، وأفضل أن تجف . أنه
إنسان فظيع .

واخذت شائعات مبلبلّة مزعجة تنتشر في القرية
بسرعة ، وتشيع في كل مكان ولا أحد يعرف من أين
جاءت : أمن كلمات العمدة المبهمة ورفضه قبول
الميت ، أم من مصدر آخر غير مرئي . فقد صار
الناس يتحدثون عن سيميون وموته المفاجئ الفظيع

ويفكرون في القس دون أن يدركوا لماذا يفكرون فيه وماذا ينتظرون منه ، عندما جاء الأب فاسيلي الى قداس الجنائز شاحباً مثقل الذهن بفكرة مبهمة ، الا انه مرح متبسّم ، افسح الناس له طريقاً واسعة ، وظلوا وقتاً طويلاً مترددين في العودة الى مكانهم ، حيث كانت آثار قدميه الكبيرتين الثقيلتين تلتهب بنار غير منظورة . وتذكروا الحريق ، وظلوا يتحدثون عنه وقتاً طويلاً ، وتذكروا زوجته المحروقة وابنه ، الأبله المقعد ، وأخذت وخزات الخوف تدب إثر كلماتهم البسيطة الواضحة . وانفجرت امرأة تبكي لما اعتل في قلبها من اشفاق شديد مبهم ، وانصرفت . وظل الباكون ينظرون طويلاً الى ظهرها المرتعش ، وتفرقوا صامتين لا ينظر أحدهم الى الآخر . واجتمع الأولاد في سقيفة الدريس والأفنية الخلفية عند المساء ، متأثرين بقلق الكبار ، وأخذوا يروون حكايات غريبة عن الموتى ، تتقلب عيونهم السود الكبيرة المتسعة . سمعوا من يناديهم للعودة الى بيوتهم بصوت أليف غاضب وحبيب الى النفس ، ولكنهم ظلوا وقتاً طويلاً لا يستجيبون مترددين في تحرير أقدامهم العافية من تحت أنفسهم ، والركض خلال الظلام الشفاف المرعب . وطوال اليومين قبل الدفن ظلوا يأتون لمشاهدة الميت الذي أزرق بسرعة ، وانتفخ من الحر . كانت الأرض ، خلال الليلتين قبل الدفن تفح

حراً مضنياً والمرجات اليابسة بقيت بلا ندى ، وأخذت تحترق تحت وقدة الشمس . كانت السماء صافية ، ولكنها داكنة ، والنجوم النادرة تومض باهتة ، وكان هزيج الجنادب الجاف المستمر يخيم على كل شيء . عندما خرج الأب من بيت الميت بعد الصلاة المسائية الأولى على الميت كان الظلام قد مبط ، ولم يكن هناك ضوء في الشارع الهاجع . خلع القس قبعته السوداء العريضة الحوافي ، وقد أضنته وغرة الهواء ، وسار بهدوء غير مسموع الخطى ، وكأنما يسير على بساط ناعم وثير . وحدث لا يسمعه ، بل على الأكثر من الرهبة التي لم تزايله مثلما لم تزايل الجميع ، أن شخصاً يتعقبه من الخلف على بعد خطوات . التفت - كان شخصاً طويلاً داكناً يسير وراءه ، والظاهر أنه كان يوازن خطواته مع مشية القس البطيئة . توقف القس ، ولم يفلن الذي كان خلفه الى هذا ، فقطع عدة خطوات ، وتوقف أيضاً ، مرتداً الى الوراء بحدة .

سأل القس فاسيلي :

- مَنْ هذا ؟

لزم الرجل الصمت . ثم استدار فجأة ، وعاد راجعاً بسرعة مطلقاً العنان لخطاه . وبعد دقيقة ابتلعه ظلام الليل دون أن يخلف له أثراً . وفي اليوم التالي تكرر ذلك . سار الطويل الداكن خلف القس حتى أوصله الى باب داره الخارجي ، ولا يعرف القس لماذا تصوّر من مشية

معقبة ، ومن معالم شخصه أنه العمدة ايفان
بورفيريتش ، نادى :

— ايفان بورفيريتش ، اهذا انت ؟

الا ان الرجل لم يجب ، وفعل راجعاً . ولكن حين
خلع الأب فاسيلي ثيابه لينام ، دق شخص على
النافذة دقاً خفيفاً ، فخرج القس ، فلم يجد أحداً
قرب البيت ، ففكر الأب فاسيلي بانزعاج وقد ركع
طويلاً للصلاة : «مَنْ هذا الذي يطرف كروح
شريرة ؟» ونسي في الصلاة ، العمدة ، والليل المقيم
على الأرض رهيباً ، بل ونسي نفسه أيضاً . كان
يصلي للميت ، ولأمراته وأولاده ، ولأن تنزل رحمة
الله الواسعة على الأرض والناس . وفي الأعماق
المشمسة التي لا يسبر لها غور كان يرتسم عالم
جديد غامض المعالم ، ولكنه ليس بالأرض .

وبينما كان يصلي زحف المعتوه تاركاً سريره ،
مجرجراً بشحيط رجليه الباقيتين على ضعفهما ، وان
كانت الحيوية قد دبّت فيها . وكان قد أخذ يزحف
منذ بداية الربيع ، وكان الأب فاسيلي في بعض
الأحيان يجده لدى عودته ، جالساً عند العتبة بلا
حرك ، مثل كلب في قفص مغلق . أما في هذه المرة
فقد اتجه نحو النافذة المفتوحة متحركاً ببطء هائلاً
رأسه بجهد واستغراق . وحين وصل زاحفاً القى
وراء النافذة يديه القويتين المتشبهتين ، ورفع
جسده بهما ، وراح يتطلع الى ظلام الليل بتجهم
وتلهف . وسمع شيئاً .

دفن موسياغين يوم الاثنين ، يوم الروح
القدس وقد بدا ذلك اليوم مشؤوماً وغريباً ، وكان
الطبيعة باضطرابها الشديد الشائه ترد على
الاضطراب بين الناس . كان الحر شديداً منذ
الصباح ، وظل يشتد حتى أن العشب كان يتهافت
امام العين تقريباً ، ويُسْفَح وكأنه بفعل نار
شديدة . وكانت السماء الكثيفة غير المشففة تخيم
على الأرض واطنة متوعدة ، وكان عروقاً نحيلة حمراء
دموية قد تخللت زرقتها المتكدرة كلها ، فكانت
قانية صلدة ذات تلاوين وتموجات معدنية . وكانت
الشمس الهائلة تومض حراً ، ومن الغريب انها كانت
تشع ساطعة ، ولكن لا وجود لأي انعكاس محدد
هادى . لنهار مشمس ، وكان ستاراً سميكاً ، وان
كان غير مرئي كان يتدلى بين الشمس والأرض ،
ويبتلع الأشعة .

كان السكون آخرس ثقيلًا ، وكان مخلوقاً قد
استغرق في تفكير لا مخرج منه ، وأسبل عينيه ،
وغرق في لجة الصمت . كانت شجيرات البتولا
الفتية المقطوعة من جذورها والمنكفئة أوراقها تمتد
صفوفاً رمادية في القرية على امتداد البيوت ثمة حزن
ورغبة غير مفهومة . وكان في هذا الموكب العبشي
من الشجيرات الفتية الرمادية التي هلكت صامته من
العطش والنار ، فكانت كالأشباح لا تلقي أي
ظلال . وكان الرمل الذهبي الذي نثر في الممرات قد
تحول منذ زمان الى غبار أصفر ، وقشور حب عباد

الشمس للعيد الفائت تثير دهشة الأنظار ، لأن الشيء الوديع البسيط البهيج الذي يمكن أن تشير إليه لا يمكن أن يتفق مع كل ما كان في الطبيعة الراكدة من صرامة والم وغم وتهديد .

حين كان الأب فاسيلي يرتدي مسوح العبادة دخل مذبح الكنيسة ايفان بورفيريتش . كان شحوب ترابي رمادي يرين على وجهه من خلال العرق والبقع الحمراء التي كان الحر يغطي بها ذلك الوجه . كانت عيناه منتفختين تتقدان ناراً محمومة . وكان شعره المصفوف على عجل ، والدبق بشراب الكفاس قد جفّ في بعض الأماكن ونتاجت منه خصلات منفوشة ، وكان هذا الرجل لم ينم ليال يمزقه فزع الانساني . كان يبدو في غاية التمزق والذهول ، وقد نسي اللياقة في التعامل مع الناس ، فلم يقترب من القس ليباركه ، بل ولم يسلم عليه .

- ماذا بك ، يا ايفان بورفيريتش ؟ هل أنت متوعدك ؟ - سأل الأب فاسيلي بعطف ، وهو يعدّل شعره تحت ياقة المسوح الضيقة ، وكان نفسه شاحب الوجه ، رغم الحر ، مثقل الذهن .

حاول العمدة أن يبتسم :

- ليس كثيراً ، ماشي الحال . وددت أن أتكلّم معك ، يا أبانا ؟

- أهذا أنت في الأمس ؟ . .

- اي ، نعم . ولليوم الثالث . أعذرنى ، من غير أي مقصد . . .

وزفر زفرة قوية ، ومرة أخرى نسي كل لياقة التعامل ، وقال بصوت عال وبصرache ، وقد أخذه الرعب :

- أنا خائف . كل حياتي لم أخف ، ولكنني خائف الآن ، خائف .

فسأل القس مندهشاً :

- مم تخاف ؟

نظر ايفان بورفيريتش وراء كتف القس ، وكان شخصاً غريباً صامتاً يختبئ هناك ، وتنهّد :

- من الموت .

نظر أحدهما الى الآخر بصمت .

- من الموت . انه قاب قوسين . العرييد يأخذ

الجميع ، بلا تمحيص . الجميع ! عندي ، حتى

الدجاجة ، لا تجرؤ أن تغطس بلا سبب . لا تغطس

الا حين أمر بذبحها للحساء . أما هذا فأني شيء

هو ؟ هل يمكن أن يحصل ؟ أعذرنى . ولكنني

حدثت في الحال . أعذرنى .

- هل تتكلم عن سيميون ؟

- وعمن أتكلّم غيره ؟ عن سيدور

وفستيجني ؟ أما أنت ، - قال العمدة بغلظة

يستبد به الخوف والغيط . - أما أنت فأترك هذه

الأفعال . ليس أمامك مفعلون . أرحل بالتي هي

أحسن . أرحل !

وأشار برأسه الى الباب بهمة ، وأضاف :

- بسرعة !

- لا يزال غير معروف من الذي تخبل : انا
ام انت ؟ لماذا هذا الذي تتظاهر به كل صباح ؟
«اللهم ادعوك !» - ورتل كما يرتلون في الكنيسة .
- ما هكذا يكون الدعاء . انتظر ، تحمل . ولا حاجة
الى «اللهم ادعوك» . انت مناطق ، زنديق . تريد
ان تجري الدنيا على هواك . وما قد جرت . فاين
سيميون الآن ؟ تكلم ، اين سيميون ؟ لاي شيء
اوديت بحياة هذا الفلاح ؟ اين سيميون ، تكلم .
ووثب نحو القس ، وسمع امره المقتضـب
الحاد :

- اخرج من المذبح ، ايها الكافر !

تفرس في القس من فوق محمراً من الحنق ،
وجمد فاغر الفم . فقد حدثت فيه عينان عميقان بلا
قرار ، سوداوان رهيبتان ، مثل ماء مستنقع ،
تضطرب وراءهما حياة انسان ، وتطل ارادة منذرة ،
مثل سيف ذرب . عينان جهنميتان . ولم ير ايغان
بورفيريتش وجهاً ولا جسداً . لم ير غير عينيـن
هائلتين كالسور ، كالمذبح ، عينيـن عليمتين ،
مطلسمتين ، امرتين تحدثان فيه . هز ذراعه عيوفاً ،
وكانما قد لذع بنار ، وخرج ، وقد اصطدمت كتفه
السمينة بعضادة الباب ، وظل يشعر بتينك العينين
السوداوين الرهيبتين تنفذان في ظهره المثلج ،
وكانما من خلال الجدار الحجري .

كانوا يدخلون صامتين ، يخشون ان يدقوا
الارض باقدامهم ، وقفوا ، حيثما اتفق ، لا في
اماكنهم المعتادة ، حيث كانوا يحبون ان يقفوا عادة ،
وكانما ليس من المستحب ولا من اللائق ان يتمسكوا
في عادات ، ويهتموا فيما يريحهم في مثل هذا اليوم
المرهق المقلق . توقفوا ، وظلوا وقتاً طويلاً
مترددين في ان يديروا رؤوسهم لينظروا فيما
حولهم . وكانت انفاسهم قد ضاقت من احتباس
الهواء ، بينما كان المزيد والمزيد من الصفوف
الجديد تتكون خلفهم . والجميع صامتون . الجميع
ينتظرون في اكتئاب وقلق ، ولم يكن القرب الشديد
يفرّج عن شيء . لقد كان المرفق لصق المرفق ،
ولكن كان يبدو وكان الرجل كأن يقف وحيداً في
صحراء لا حدود لها . توافد الناس من القرى
البعيدة ، ومن أبرشيات اخرى مدفوعين بالشائعات
الغريبة . كانوا اكثر جرأة ، يتكلمون بأصوات
عالية ، ولكن سرعان ما صمتوا غاضبين مندهشين ،
ولكن عاجزين كالآخرين عن تحطيم عرى الصمت
الثقيل غير المرئية . كانت جميع النوافذ العالية
المدببة الرؤوس مفتوحة لدخول الهواء ، تبدو من
خلالها السماء الحمراء النحاسية المتوعدة .
بدت وكأنها تطل من نافذة الى اخرى ، وتلقي على
كل شيء انعكاسات ضوء معدنية جافة . فكان جدار

الايقونات المذهب القديم يرسل في هذا الضوء المشئت الثقيل ، والساطع في نفس الوقت ، لمعاناً كامداً متهيباً يزعج العيون بتشرذم وفوضى نثارته الضوئية . ووراء احدى النوافذ كانت شجيرة قبقب فتية ساكنة تخضر اخضراراً جافاً وتحلق عيون كثيرة في اوراقها العريضة المرتخية قليلاً ، فقد كانت هذه الاوراق تبدو كالصديقات الوادعات العريقات وسط هذا الصمت ، وسط اضطراب المشاعر المكبوت هذا ، وسط نثارات الضوء الصفير المزعجة هذه .

كانت رائحة التفسخ الواضحة ، المقززة ، الفظيعة تهيم على كل روائح الكنيسة المألوفة الهادئة ، على طيب البخور والشمع . كانت الجثة تنفس بسرعة . وكان من المؤلم والمخيف الاقتراب من التابوت الاسود الذي يضم هذا الجثمان المتهرى المتعفن الكريه الرائحة . ما ان تقترب حتى تجد اربعة اشخاص واقفين بجمود كالتابوت نفسه : ارملة الراحل ، واولاده الثلاثة . ولربما كانوا يشمون الرائحة ، ولكن لم يكونوا يصدقون بها ، ولربما كانوا لا يشمونها وكانوا يتصورون ويعتقدون بانهم سيدفنونه حياً ، مثلما يتصور جميع الناس ، عندما يختطف الموت العاجل المفاجئ واحداً منهم قريباً وأليفاً لهم وملتصقاً بهم كما هو الأمر في هذه الحال . ولكنهم صمتوا ، كما صمت كل شيء ، وكانت الشمس الحمراء النحاسية المتوعدة تطل من

نافذة الى نافذة فوق رؤوس الجمهور ، وتشع نثارات ضوء جافة .

حين بدأ القداس مهيباً بسيطاً ، كما هو دائماً ، وهز الشماس البدين السمع المبخرة على الجمع ، استروح الناس ، وصار الجو اخف على النفس وابهج . تهامس بعضهم ، وحرك البعض الآخر أقدامهم المتخدرة بعزم وثقل . وبعض الذين كانوا قريبين من الأبواب خرجوا الى واجهة الكنيسة ليستريحوا ويدخنوا . ولكنهم انتهوا فجأة ، وهم يدخنون ويتحدثون عن الزروع ونذر الجفاف ، وعن الفلوس ، وافزعهم الى ان شيئاً مهماً ومفاجئاً يجري في الكنيسة في غيابهم ، فتركوا سكاثرهم دون ان يتموها ، واندفعوا في الكنيسة ، شاقين الحشد باكتافهم . كالأسافين . وتوقفوا . كان القداس بمهابة وبساطة ، وكان الشماس العجوز يثج وينحن بدواعة قبيل البدء بالكلام ويبحث في الجمع عن المنشغلين في الكلام ، ويهددهم بأصبعه السمين القصيرة . والذين طلعوا الى الخارج ، قبل نهاية القداس ، لاحظوا ان سحابة داخنة مزرقرة كانت ترتفع فوق الغابة من جهة الشمس ، وتعلم قليلاً في أشعة الشمس ، فرسموا علامة الصليب ببهجة . وكان بين هؤلاء ايفان بورفيريتش شاحباً وكالمعتل ، وقد رسم علامة الصليب أيضاً ، حين رأى السحابة ، ثم اسرع منكس بصره عبوساً .

وفي الفترة القصيرة بين القداس والتراتيل ، حين

كان الأب فاسيلي يستبدل لباسه بمسوحه المخملية
الاسود ، تمطق الشمساس بشفتيه وقال :

- آه ، يا ليت هناك ثلجاً ، فانه يتعفن جداً .
ولكن من أين نأتي بالثلج . حبذا لو يكون للكنيسة
احتياط منه لمثل هذه الأحوال . كدّم العمدة .

- يتعفن ؟

تساءل القس بصوت لا رنين فيه ، دون أن
يلتفت :

- الا تشمم ؟ عندك انف ايضاً . اما انا فلم
اعد اطيع الرائحة . الآن ، والفصل صيف ، لن تزول
هذه الرائحة حتى بعد اسبوع . تشمم . حتى لحيته
تعطن ، وحق الرب .

وقرب انفه من طرف اللحية الشائبة وتشممه
وخلص الى القول باستنكار :

- أي ناس هؤلاء ، بالفعل !
وبدا الترتيل . ومن جديد سقط الصمت الثقيل

على جمع الناس ، وسمر كل انسان في مكانه ،
وفصله عن الآخرين ، وقدّمه فريسة للانتظار
المرهق . كان المقرئ العجوز يرتل . لقد رأي موت
الذي كان يخوف الجميع الآن تابوته الاسود . لقد
كان يتذكر بوضوح كتلة التراب البرنية الجافة من
الأرض ، وأجمة البلوط المتمايلة أوراقها المنحوتة ،
فكانت الكلمات القديمة المألوفة البالية تكتسب حياة
بين شفثيه الماطقتين فتتردد بنعومة وألم . وكان
يفكر في القس بقلق وأسى ، لانه كان في ساعات

الفرع المخيّمه هذه يحب الأب فاسيلي وحده من بين
جميع الذين كانوا ناساً من قبل ، حباً خجولاً رقيقاً ،
وكانت روحه العظيمة المتمردة قريبة اليه .

« . . . في الحق أن الحياة ما هي الا عناء والظلام
وسبات ، فلا داعي أن تكلف نفسك العناء على كل
شيء في الأرض ، فالكتاب المقدس يقول : «حين
نحرز السلام نكون في التابوت ، حيث يتساوى
القيصرة والفقراء . وبكل ذلك هذا المسيح عبده
كمحب للبشر عظيم» .

كان الجو في الكنيسة يظلم الظلام الأزرق المربد
القلق لنهار متعب ، وقد شعر الجميع به ، ولكنهم
ظلوا وقتاً طويلاً دون أن يلحظوه بأعينهم . الا
اولئك الذين كانوا لا يرفعون انظارهم عن أوراق
القيقب المتصافية فقد راوا شيئاً رمادياً بلون
الحديد ، أشعث يدب من خلفهم ، ويطل على الكنيسة
بعيونه الميتة ، يزحف مرتفعاً نحو الصليب .

«أين كل ما نخبه في الدنيا ، أين ما يحلم به
الزائلون ، أين كثرة العبيد والمجد ، كل ذلك هباء ،
رماد ، كل ذلك طيف . . .»

الآن لحظ الجميع الظلام المتكاثف ، والتفتوا نحو
النوافذ . كانت السماء خلف شجرة القيقب سوداء
وأوراق الشجرة العريضة لم تعد خضراء ، صارت
شاحبة ، واختفى منها ، وهي المروعة المبهوتة ، ما يوحي

بالتصافي والسكون . نظر الناس الى الوجوه يبحثون عن الطمأنينة . كانت الوجوه كلها رمادية ، شاحبة غريبة . وبدا وكأن التابوت الأسود والكاهن الأسود قد امتصا كل الظلام الذي كان ينهمر فى النوافذ كسيل عريض . الى هذا الحد كان اسود ذلك التابوت الأصم ، والى هذا الحد كان اسود ذلك الرجل الطويل البارد والصارم . كان يتحرك بثقة وهدوء ، وكان سواد لباسه يبدو لوناً وسط التذهيب العمي ، والوجوه الرمادية والنوافذ العالية المشعة ظلاماً . الا أن لحظات من التردد الغامض والتخلخل كانت تسيطر عليه ، فكان يبطئ خطوه ، ويشرب بعنقه ، وينظر الى جمهور الناس مدهوشاً ، وكان هذا الجمهور المتخدر في الكنيسة ، حيث قد تعود أن يصلي لوحده كان يتوقع شيئاً ، وبعد ذلك نسي الجمهور ، ونسي أنه يؤدي القداس ، ودخل المذبح ساهماً . وكأنما تضاعف فيه شيء ما ، كأنما كان ينتظر كلمة ، أمراً أو عاطفة جبارة حاسمة ، ولكنها لم تأت .

«أنا أبكي وأنتحب ، حين أفكر في الموت ، وأرى في الجمال الذي خلقه الله على مثاله مسجى في التابوت دميماً لا بهاء له . ايتها المعجزة ، ما هذا السر المكنون ، كيف نصير الى رفات ، ونتمزج مع الموت ، ترك قدرة الرب القادرة حقاً . . .»

كانت الشموع تشتعل ساطعة وسط الظلام المتكاثف ، ومثلما في الظلمة كانت تلقي تظليلات لونية حمراء على الوجوه ، وقد لاحظ الكثيرون هذا

الانتقال السريع غير الاعتيادي من النهار الى الليل ، بينما كان النهار في منتصفه لا غير . وقد شعر القس فاسيلي ايضاً بهذا الظلام ، ولكن لم يدركه ، فقد كان يتصور بغرابة أن ذلك صباح شتائي باكر ، حين كان يظل وحده مع الله ، وحين كانت تجنحه عاطفة عظيمة جبارة واحدة ، كالطير ، كالسهم المسدد الى هدفه دون خطأ . وارتعد ، دون أن يرى ، كالأعمى ، ولكن بصره ارتد اليه . وأبطأت جريانها المحموم الألوف من الأفكار الممزقة المتشعبة ، الألوف من العواطف المكبوتة . أبطأت ، وتوقفت وجمدت - لحظات الخواء الغريب ، السقوط السريع ، الموت - ورفرف في الصدر شيء هائل بهيج ومفرح بشكل غير متوقع . كان قلبه المتوقف برهة ما يزال يرجع الضربات الأولى بحدة وصلادة ، وكان هو قد عرف . انها هي ! هي العاطفة الجبارة القادرة على حل شيء ، والمسيطرة على الحياة والموت ، والتي تأمر الجبال أن تترك أماكنها ، فتترك هذه الجبال القديمة أماكنها غضبي ، الفرح ، الفرح ! انه ينظر الى التابوت الى الكنيسة ، الى الناس ، ويدرك كل شيء ، يدرك بذلك النفاذ المعجز الى عمق في الأشياء لا يوجد الا في الحلم ، ويختفي مع أشعة النور الأولى دون أن يخلف أثراً . تلك هي ذلك هو سر اللغز ! اوه ، يا للفرح ، يا للفرح ، يا للفرح !

والقى رأسه الى الوراء ، ودفع يديه الى الأعلى مبتهلاً كموسى كلیم الله ، وضحك بلا صوت ،

مخيفاً ، بزفرات قصيرة متلاشية ، ويقع بصره في
الأسفل على وجه الشماس المرعوب ، وقد رفع
أصبعه محذراً وعلى ظهور الناس المنكمشة ، وقد
لاحظوا ضحكته وأسرعوا يشقون طريقهم في الجمع
كالديدان ، ويطبق فمه بذلك الذعر المفاجئ والمؤثر
لطفل .

- لن أفل ! - يهمس للشماس ، وتطفر غبطة
رهيبة كالنار من كل مسام وجهه . ويبكي مغطياً
وجهه بيديه .

- ولو قطرات ! أية قطرات ، يا أب فاسيلي ،
- يهمس في أذنه الشماس مذهولاً ، ويهتف بقنوط :
آه ، يا ربّي ، كل ذلك في غير وقته ! اسمع ، يا أب
فاسيلي !

يفك القس قليلاً يديه المتشابكتين على وجهه ،
وينظر من طرف عينه ، ومن خلال الفتحة ، إلى
الشماس . ويجفل الشماس ، ويتراجع بخطوات
كبيرة ، وعلى أطراف أصابعه ، ويضع بطنه على
المشبك ، ويتلمس حتى يجد الباب ، ويخرج .
« . . . تعالوا ، أيها الأخوة ، نهب المحتضر
القبلة الأخيرة . . . »

حركة في الجمع . ويخرج بعضهم خلسة ، دون
أن يتبادل كلمة واحدة مع الآخرين ، وتصير الكنيسة
المظلمة أرحب : لم يبق إلا الناس يتزاحمون حول
التابوت الأسود صامتين ، ويرسمون علامة الصليب ،
وينحنون إلى شيء رهيب ، منفّر ، ويتنحون بوجوه

معذبة . وتودع الراحل أرملة أيضاً . إنها الآن
تصدق بأنه ميت ، وتشم رائحته ، إلا أن عينيها
مغلقتان على الدموع ، وحجرتها بلا صوت . والأولاد
ينظرون إليها - بثلاثة أزواج من العيون الصبوية .
وفي تلك اللحظة فطنوا إلى أن الشماس يشق

طريق خلال الجمع ذاهلاً ، وأن القس فاسيلي يقف
على المذبح وينظر . والذين رأوه في تلك اللحظة
انطبع في ذاكرتهم إلى الأبد بصورته غير الاعتيادية
هذه . كان يمسك المشبك بيديه بقوة شديدة جعلت
أطراف أصابعه تبيض ، مثل أصابع الميت . ومدّ
عنقه إلى الأمام ، وانطوى بكل جسده على المشبك ،
صبّ كل كيانه في تحديقة حادة في الموضع الذي كانت
أرملة الميت تقف فيه مع أولادها . والغريب أنه بدا
وكانه يتلذذ بعذابها اللانهائي ، لأن تحديقته الحادة
كانت غاية في المرح والانشراح والحبور الجسور .
« . . . أي فراق ، يا أخوة ، أي بكاء ، أي
نحيب . . . تعالوا الآن ، وقبلوا الذي لم يمكث معنا
ردحاً طويلاً ، لأنه سيُسَلَّم للتأبوت ، ويغطى
بالحجر ، ويغيب في الظلام يندفن مع الموتى ،
ويتوابع مع كل الأقارب والأصدقاء . . . »

ورن من المذبح صوت متوجع :
- توقف ، أيها المجنون ! ألا ترى لا وجود
للموتى هنا !
وهنا حصل ذلك الشيء المتمرد والعظيم الذي
كان الجميع ينتظرونه بفرع وخفاء . ترك القس

فاسيلي الباب الصارف ، واخترق جمع الناس شاقاً
برقشة ملابسهم بلباسه الأسود المهيّب ، واتجه نحو
التابوت الأسود المنتظر بصمت . وتوقف ، ورفع
ذراعه اليمنى آمراً ، وخاطب الجسد المتحلل في عَجَلٍ :
- ها انا اقول لك : انهض !

حدثت بلبلّة وضوضاء وهرج وصيحات فزع
مهلك . وفي نوبة الهلع اندفع الناس الى الابواب
وتحولوا الى قطع : يتشبث بعضهم ببعض ، ويكشر
عن أسنان متوعدة ، ويسحق ويزعق . وانصبوا
خارجين من الباب ببطء كما يخرج الماء من زجاجة
مقلوبة ، ولم يبق الا المقرئ الذي اسقط كتاب
التراتيل من يده ، والأرملة مع أطفالها ، وايفان
بورفيريتش . نظر الأخير الى القس لحظة ، وانقلع
من مكانه ، واندفق في ذيل الجمع ، مدفوعاً بصيحات
فزع وحلق جديدة .

هتف القس فاسيلي ثانية ببساطة مظفرة
ملكوتية ، وعلى فيه ابتسامة شفقة وضياء خيرة على
عدم ايمانهم وخوفهم ، وقد اشرق كليته بجبروت
ايمان بلا حدود :

- ها انا اقول لك : انهض .
ولكن الميت كان جامداً ، وقد احتفظت شفتاه
المطبقتان على السراالبي بلا احساس . والصمت . لا
صوت في الكنيسة الخالية . ولكن ها هي خطوات
مشتتة مذعورة تدق الأرض الحجرية ، حين خرجت
الأرملة وأولادها . وخلفهم هرول المقرئ العجوز ،

والتفت لحظة عند الباب وضرب كفاً بكف ، وعاد
الصمت من جديد .

ومرق في ذهن القس فاسيلي بسرعة : «سيكون
هذا أحسن . مثله لا يرتاح في أن ينهض على مرأى
من زوجته وأولاده» - ويقول للمرة الثالثة بخفوت
وصرامة :

- سيميون ! ها انا اقول لك : انهض !
وينزل ذراعه ببطء ، وينتظر . وراء النافذة
خشخشت أقدام على الرمل ، وكان الصوت شديداً
القرب حتى وكأنه صدر من التابوت . أخذت الخطوات
تقترب ، ومرت بالنافذة . وسكنت واختفت . والصمت
مرة أخرى ، وزفرة طويلة معذبة . من الذي تنهّد ؟
ينحني على التابوت ، ويبعث في الوجه المنتفخ أنفاس
الحياة ، ويأمر بعينيه : «هيا ، ابعث !» ، وينحني
أكثر ، ويمسك بيديه حوافي التابوت الحادة . يكاد
يمس الشفتين المزرقتين ، وينفخ فيهما أنفاس
الحياة ، فتقابله الجثة المروعة بأنفاس الموت المنتنة
الشرسة الباردة .

يتراجع صامتاً . وفي لحظة يرى ويعرف كل شيء .
يشم رائحة الجثة . ويعرف أن الناس تفرقوا في هلع ،
وليس في الكنيسة غيره وغير الميت . يرى ظلاماً
قد خيم وراء النوافذ ، ولكن لا يحدث السبب ،
ويستدير .
تترأى له ذكرى عن شيء بعيد جداً ، عن ضحك
ربيعي ، تردد مرة ثم سكت . يتذكر الزوبعة الثلجية .

الجرس ، والزوبعة الثلجية . وقناع المعتوه الجامد .
هما اثنان ، اثنان ، اثنان . . .

ويختفي كل شيء من جديد . العينان المنطفئتان
تشعان ناراً باردة وثابة ، والجسد المعروق يمتلئ
بالاحساس بقوة ومثانة الحديد . يخفي القس عينيه
تحت قوس حاجبيه الحجري ويقول بهدوء هادئ
وخفوت خافت ، وكأنه يوقظ شخصاً يخاف منه :
- اتريد ان تخدعني ؟

ويصمت منكساً بصره ، وكأنه ينتظر جواباً .
ومن جديد يقول بخفوت خافت بتلك القوة التعبيرية
الفظيعة التي تمتلكها العاصفة ، حين تكون الطبيعة
كلها تحت سيطرتها ، ولكنها تتباطأ ، وتهزّ الندف
في الهواء برقة ملكوتية :

- فلماذا آمنت اذن ؟ لماذا وهبتني حب الناس
والشفقة ، الاستهزى بنفسي ؟ لماذا ابقيتني طوال
حياتي في الاسر ، في العبودية ، في السلاسل ؟ لا فكر
حر ، لا شعور لا زفرة ! دائماً منفرد بك ، دائماً من
اجلك . انت وحيدك ! طيب ، اظهر . انا في الانتظار .
وينتظر الرد في وضع تسامح فخور وحيداً امام
النعش الأسود المنتصر بشراسة ، وحيداً امام الوجه
الرهييب لصمت جليل لا يُحد . وحيداً . ولهب
الشموع يخرق الظلام برؤوسه المدببة الجامدة . وفي
البعيد تهزج العاصفة الثلجية متراجعة : هما اثنان ،
اثنان ، اثنان . . . صمت .

- لا تريد ؟ - يسأل بنفس الخفوت والوداعة ،

وفجأة يصيح صيحة مجنونة ، مقلباً عينيه ، معطياً
لوجهه وضاحة التعبير الرهيبة التي تظهر خاصة عند
المحتضرين والغازطين بنوم عميق . يصيح طاغياً
بصيحته على الصمت الرهييب ، والفزع الأخير لنفس
انسان تحتضر .

- يجب عليك ! اعد له الحياة ! خذها من
الآخرين ، واعدها له . انا ارجوك .
ويخاطب الجثة المتفسخة بصمت ، ويأمر بغيظ
واحتقار :

- انت ! اطلب منه ! اطلب !
ويصيح بوعيد مدتس للمقدسات :

- هو ليس بحاجة الى الجنة . فان له اولاداً
هنا . وسينادونه : يا اب . سيقول : اخلعوا من
راسي تاجي السماوي ، لأنهم هناك ، هناك يجلسون
رؤوس اولادي بالقذارة والوحل . سيقول ذلك !
سيقول !

ويهز التابوت الأسود الثقيل بغيظ . ويصيح :
- انطق حالا ، أيها اللحم الملعون !

ينظر مذهولاً حاد البصر ، ويتراجع بهلــع
أخرس ، وقد رفع يديه المتوترتين لحماية نفسه .
سيميون ليس في التابوت . الجثة ليست في التابوت .
المعتوه راقد هناك . أمسك حافة التابوت بأصابعه
الكاسرة ، ورفع رأسه القبيح قليلاً ، وراح يحرق في
القس خازراً بعينه المتخاوصتين ، وحول منخريه
المقلوبين ، حول فمه الهائل المطبق تهدر ضحكة

صامته تولد من جديد . انه ساكت ، ينظر ، ويخرج من التابوت ببطء رهيباً بشكل لا يوصف في اندماج خارق بين الحياة الأبدية والموت الأبدي .

- عد ! - يصيح القس فاسيلي ، يصير رأسه هائلاً من شعره الواقف . - عد ! والجثة الجامدة مرة أخرى . والمعتوه مرة أخرى . وتزدوج الكتلة المتفسخة بجنون ، وكأنما في لعبة مريعة ، وتفتح رعباً ، ويصيح بحلق وحشي : - تخويف ! ذلك هو . . .

ولكن كلماته لا تسمع . فجأة يتمزق القناع الجامد حتى الأذنين ، متوهجاً بنور باهر ، ويملا الكنيسة الخاوية ضحك كالرعد يهدر ، ويحطم الأطواق الحجرية ، ويلقي الحجارة ويطوق الرجل الوحيد بهديره الرهيب .

يفتح القس فاسيلي عينيه المبهورتين ، ويرفع رأسه الى فوق ، ويرى كل شيء يسقط . تنحني الجدران وتقترب ببطء وثقل ، وتزحف الأطواق ، وتنهار القبة العالية بلا صوت ، وتتشنى الأرض وتنعكف ، ويتحطم العالم من أسسه ويتهاوى .

وعندئذ يركض نحو الباب في اندفاع مجنون . ولكن لا يجده ، فيروح ويجيء ، ويضرب الجدران ، والزوايا الحجرية العادة ، ويزار . ويسقط على الأرض مع الباب المنفتح . ينهض فرحاً . وتطوفه ذراعان راعشان ، وتمسكانه . يتخبط ويزعق ويحرر يده ، ويضرب بقوة حديدية رأس المقرئ الذي

يحاول الإمساك به ، ويلقي جسمه عنه بضربة من قدمه ، ويخرج .

السماء مغطاة بالنار ، والأشعة الممزقة تتلوى فيها ، وتنطلق بوحشية ، وتسقط بكل كتلتها الجبارة على الأرض المزلزلة ، وينهار العالم من أسسه . ومن هناك ، من الفوضى النارية المتلوية ينطلق ضحك هائل شبيه بالرعد ، وقرقعة وصيحات مرح وحشي . وإلى الغرب شريط أزرق أكثر نوراً ، فيهرول نحوه لاهث الأنفاس . قدماء تتشربكان في مسوحه الطويل الخشن ، فيسقط ، ويتدحرج على الأرض مدمى مخيفاً ، ويستأنف الركض من جديد . والشوارع خالية كما في الليل ، ما من أحد عند البيوت ولا في النوافذ ، ما من كائن حي ، لا وحش ولا طائر .

تومض في ذهنه آخر فكرة : «الجميع ماتوا !» . يخرج الى طريق عريض مطروق خارج القرية . السحابة السوداء المتلوية فوق رأسه تلقي الى الأمام ثلاثة شُعَب طويلة ، مثل ثلاث أرجل معكوفة بشراسة . في الخلف شيء يهدر أصمٌ منذراً - العالم ينهار من أسسه .

في عربة بعيدة الى الأمام عائدة الى زنامينسكويه فلاح وامرأتان . الثلاثه يرون رجلاً في ثياب سود يركض مسرعاً ، يتوقفون لحظة ، ولكن حين يعرفون في شخصه القس ، يضربون الحصان ، وينطلقون جرياً . العربة تتواثب على الطريق ، ترتفع بعجلتها في الهواء ، ولكن الثلاثة الصامتين المنحنين المرعوبين

يحثون الحصان ، ويمضون في اندفاعهم . سقط الأب فاسيلي على بعد ثلاثة فراسخ من القرية ، وسط الطريق العريض المطروق . سقط منكفئاً على وجهه العظمي في تراب الطريق الأغبر المطحون بالعجلات ، والمسحوق بأقدام الناس والدواب . واحتفظ في وضعيته عند السقوط باندفاعه الراكض ، وقد امتدت ذراعه الشاحبتان الميتتان الى الامام ، وانعكفت احدي رجليه تحت جسمه ، وانطرحت الى الخلف الرجل الاخرى الطويلة المستقيمة بجزمته القديمة المحكوكة ، ونعلها المتآكل ، انطرحت بجهد واندفاع ، وكان صاحبها كان يتابع ركضه ، وهو ميت .

١٩ تشرين الثاني ١٩٠٣

قصة سبعة مشنوقين

مهدة الى ليف تولستوي

١ - في الساعة الواحدة ظهراً ،

كان الوزير بديناً جداً ، عرضة للاصابة بجلطة دماغية ، ولهذا احترزوا من كل شيء ، وتجنبوا اثاره انفعاله الشديد ، فنبهوه الى ان محاولة جدية تعد لاغتياله . وحين راوا الوزير يستقبل الخبر بهدوء ، وحتى بابتسامة ، فقد ابلغوه بالتفاصيل ايضاً . وهي ان محاولة الاغتيال هذه ستجري في اليوم التالي ، حين يخرج لالقاء تقرير ، حيث سيجتمع في الساعة الواحدة ظهراً بعض الارهابيين المحرّضين ، والذين هم الآن تحت رقابة المخابرات اليقظة ، وسينتظرون خروجه عند مدخل البيت مسلحين بالقنابل والمسدسات . وهنا قاطعهم الوزير مندهشاً :

- علي مهلكم . من اين يعرفون انني سأخرج بالتقرير في الساعة الواحدة ظهراً ، في حين ان نفسي لم اعرف ذلك الا قبل يومين ؟

بسط رئيس الحرس يديه باشارة غير محددة :

- في الواحدة بالضبط ، يا صاحب المعالي .

هزّ الوزير راسه اما دهشة واما استحساناً

لأعمال الشرطة التي أعدت كل شيء بهذا الشكل الجيد . وأبتسم مقطباً بشفتيه الغليظتين الداكنتين ، وبذلك الابتسامة هيئاً نفسه بسرعة مطيعاً وغير راغب في أن يعرقل الشرطة بعد هذا ، ورحل ليقتضي ليلته في قصر مضياف لأحد المعارف . كما رُحلت زوجته وطفلاه من البيت الخطر الذي سيجتمع حوله رماة القنابل في الغد .

وبينما كانت الأضواء توقد في القصر ، والمعارف المرحبون ينحنون مسلمين ، ويبتسمون ويظهرون استياءهم كان صاحب المقام الرفيع يشعر بانفعال لطيف ، وكأنما مُنح أو في طريقه إلى أن يُمنح وساماً كبيراً غير متوقع . ولكن ها هم الناس قد تفرقوا ، والأضواء أخذت تنطفئ ، وارتضى الضوء الشفاف المزجج التي ترسله مصابيح الشارع الكهربائية على السقف من خلال زجاج النوافذ الشبيه بالمرآة وكان هذا الضوء الغريب على البيت بلوحاته وتماثيله وبالسكون النافذ من الشارع يحمل ، رغم هدوئه وتجرده ، على التفكير بلا جدوى الاقفال والحرس والجدران . وفي الليل ، وصاحب المقام الرفيع وحيد في سكون المخدع الغريب صار يشعر بفزع لا يحتمل . كان يشكو من الكليتين ، وكان عند كل انفعال شديد ينتفخ بالماء وجهه ورجلاه ويداه ، فيصير بذلك أجسم وأكثر بدنة وضخامة . والآن وقد ارتفع كتلة من اللحم المنتفخ فوق نوابض السرير المضغوطة كان يحس في لوعة انسان مريض بوجهه المتورم

وكانه وجه غريب عليه ، ويفكر بالحاح في المصير القاسي الذي كان الناس يعدونه له . وراح يسترجع في ذهنه وواحدًا تلو الآخر كل الأحداث الفظيعة التي حدثت قبل حين ، عندما ألقيت القنابل على أشخاص في مقامه بل وأرفع مقاماً منه وقد مزقت القنابل الجسد أرباً ، وطشَّت الدماغ على الجدران الأجرية القذرة ، واقتلعت الأسنان من أماكنها . ومن استرجاع الفكري هذه بدا غريباً عليه حتى جسده البدين العليل المسترخي على الفراش ، بل وراح يشعر بقوة الانفجار النارية ، وخيل إليه أن ذراعيه تنقلعان عن جسده من الكتفين ، وأسنانه تتساقط ، ودماغه يتفرق إلى جزئيات ، ورجلاه تتخدران ، وتستقران بخنوع وأصابعهما إلى الأعلى ، كما هي عند الميت . تحرك بقوة ، وتنفس بصوت عال حتى لا يشبه الميت بشيء ، واحاط نفسه بالضجيج الحي للنوابض المرنة ، واللحاف الهفواف ، ولكي يؤكد أنه حي تماماً ، ولم تمت أية قطرة منه ، وأن الموت بعيد عنه مثل أي انسان آخر ، رفع عقيرته عالياً في الصمت ووحدته المخدع :

- شطّار ! شطّار ! - مادحاً بذلك المخبرين والشرطة والجنود وجميع الذين يحرسون حياته ، وتداركوا القتل في الوقت المناسب ، وبذلك البراعة . ولكنه مهما تحرك ، وامتدح وابتسم ابتسامة ساخرة مكرمة معوجة ليعبر عن استهزائه بالارهابيين الخائبين البُلّه فقد ظل غير مصدق بسلامته ، ولا بأن حياته

لن تتخلى عنه بغتة ودفعة واحدة . حتى كان الموت الذي كان الناس يبيتونه له ، والذي كان في أذهانهم وحدهم ، في نواياهم ، انتصب قائماً في المخدع ، وسيظل قائماً ، ولن يغرب حتى يلقوا القبض على أولئك الناس ، وينتزعوا القنابل منهم ، ويلقوهم في غياهب السجن . ها هو قائم هناك ، في الزاوية ، ولن ينصرف ، ولا يمكن أن ينصرف ، مثل جندي مطيع وضع لحراسته طوع مشيئته وأمره .

- في الواحدة ظهراً ، يا صاحب المعالي ! كانت هذه العبارة التي قيلت له تتردد في كل النبرات ساخرة مرحة تارة ، وغاضبة تارة أخرى ، وعنوداً غبية تارة ثالثة . وكأنما وضعت في المخدع مئات الغراموفونات المنصوبة ، وجميعها تصرخ متوالية وبعداد الآلة الأحقق بالكلمات التي قيلت له :

- في الواحدة ظهراً ، يا صاحب المعالي ! وإذا بهذه «الساعة الواحدة» التي لم تكن الى وقت قصير تتميز بشيء عن الساعات الأخرى ، ولم تكن غير حركة العقرب على طرة الساعة الذهبية تكتسب فجأة يقيناً رهيباً ، وتقفز من طرة الأرقام ، وتصير تعيش لوحدها ، وتمتد مثل عمود أسود هائل يقطع الحياة كلها الى جزئين . وكأنما لم يكن ثمة وجود لساعات أخرى لا قبلها ولا بعدها . وليس لغير هذه الساعة الوقعة المفترقة الحق في الوجود .

وسأل الوزير غضبان وهو يكرز على أسنانه :

- اذن ؟ ماذا تريد ؟
زعمت الغراموفونات :
- في الواحدة ظهراً ، يا صاحب المعالي !
وابتسم العمود الأسود بسخرية ، وأدى انحناء الاحترام .

رفع الوزير جسمه على الفراش صارفاً بأسنانه وقعد معتمداً وجهه على راحتيه ، فقد كان غير قادر البتة على الاغفاء في هذه الليلة الكريهة .

وتمثل لنفسه بوضوح مفزع ، وهو يضغط وجهه بكفيه المنتفختين المعطرتين كيف أنه كان سينهض من فراشه في صباح الغد ، غير عالم بشيء ، ثم يشرب القهوة غير عالم بشيء ، ثم يرتدي معطفه في الرواق ، دون أن يعلم ولا الحاجب الذي قدم له معطفه الفرائي ، ولا الخادم الذي جلب القهوة أن من العبث تماماً شربه للقهوة ، ولبسه للمعطف ما دام المعطف وجسمه ، والقهوة التي في داخله ستتفجر بعد لحظات ، وتسلم الى الموت . ها هو الحاجب يفتح الباب الزجاجي . . . ذلك الحاجب اللطيف الطيب الرقيق الجندي السابق ذو العينين الزرقاوين ، والصدر المملوء بالنياشين ، يفتح بيديه الباب الرهيب ، يفتحه لأنه لا يعرف شيئاً . والجميع يبتسمون ، لأنهم لا يعرفون شيئاً .

- أهوه ! - قال فجأة بصوت عال ، وابتعد يديه عن وجهه ببطء .

وبنفس البطء مد ذراعه ، محدقاً في الظلام بعيداً

الى الامام بنظرة متفرسة متوترة ، وتلمّس الزر ،
وأشعل الضوء ، ثم نهض ولم يلبس نعليه وطاف في
المخدع الغريب يطأ السجادة خافياً ، وعثر على زر
آخر لمصباح حائطي ، وأشعله . صارت الغرفة
مضيئة ومريحة سوى ان الفراش المبعثر بلحافه
المنسرح على الارض كان يشير الى فزع لم يختف بعد
تماماً ،

كان الوزير ، وهو في ثياب النوم ، ولحيته
منفوشة من الحركات المنفعلة ، وعيناه غاضبتان
اشبه بأي عجوز غاضب آخر اصيب بالارق وضيق
التنفس ، وكان الموت الذي اعدّه الناس له قد
عرّاه ، وانتزعه من ترف الوجاهة المهيبة المحاط
بها ، حتى كان من الصعب التصديق بأن تكون له
هذه السلطات الكثيرة وان يكون جسده ، ذلك
الجسد الاعتيادي ، جسد انسان لا غير ، محكوماً بأن
يهلك في النار ، في دوى انفجار مريع . جلس في اول
مقعد صادفه ، دون ان يضع عليه شيئاً من الثياب ،
ودون ان يشعر بالبرد ، وأسند لحيته المشعثة على
يده ، وثبت عينيه باستفراق وسهوم عميق هادئ
في السقف المزخرف الغريب عليه ،

هكذا ، اذن ! لهذا السبب جبن هذا الجبن ،
وقلق هذا القلق ! لهذا السبب يقف الموت في
زاوية ، ولم ينصرف ، ولا يمكن ان ينصرف .
قال بازدرأ واعتبار :

- حمقى ! لنسعد ، عدل في ملجأ ركن

ثم كرر بصوت أعلى :

- حمقى !

وأدار رأسه قليلاً ليسمع المعنيون بذلك
الخطاب . وكان المعنيون به هم اولئك الذين
وصفهم قبل حين بـ«الشطار» ، والذين ابلغوه في غمرة
الحساس بتفاصيل محاولة الاغتيال المعدة له .

«هذا ، طبيعي» ، - فكر في عمق تفكيراً سلساً
اكتسب قوة مفاجئة . - لأنني الآن بعد ان ابلغوني
اعرف الامر ، وأشعر بالخوف ، ولكن لو كنت لا
اعرف لشربت القهوة بهدوء . ثم هذا الموت ،
بالطبع ، ولكن هل من المعقول انني اهاب الموت بهذا
الشكل ؟ ها انا مريض بالكليتين ، وسأموت في وقت
ما ، ولكن ذلك لا يرعبني ، لأنني أعرف شيئاً ، اما
اولئك الحمقى فقد قالوا : في الساعة الواحدة ظهراً ،
يا صاحب المعالي . وقد تصور الحمقى انني سأفرح ،
وبدلاً من ذلك وقف الموت في زاوية لا ينصرف .
لا ينصرف لأن هذا ما افكر فيه . فالموت لا يخيف
ولكن المعرفة به مخيفة . فمن المستحيل تماماً ان
يعيش الانسان اذا كان يعرف بدقة تامة وبشكل
قاطع اليوم والساعة التي سيموت فيها ! ولكن هؤلاء
الحمقى يحذرونني : «في الواحدة ظهراً ، يا صاحب
المعالي» !

وأحس براحة وانشراح ، وكان أحداً ابلغه بأنه
خالد الى الأبد ، ولن يموت أبداً . واذا شعر بأنه قوي
ولبيب وسط هذا القطيع من الحمقى الذين يقتحمون

بهذا السخف والوقاحة الشديدة حُجِبَ المستقبل راح ، وهو الرجل العجوز المريض المثقل بالأفكار ، الكثير التجارب ، يفكر في هناة الجهل . أن أي كائن حي ، إنساناً كان أو حيواناً ، لم يُقسَّم له أن يعرف ساعة موته . قبل حين كان قد سقط مريضاً وأبلغه الأطباء أنه سيموت ، وأن عليه أن يدلي بتوصياته الأخيرة . ولكنه لم يصدق بهم ويبقى حياً بالفعل . أما في صباح فقد حدث أن تورط في حياته ، فعزم على الانتحار ، فاعد المسدس وكتب الرسائل ، بل وحدد الساعة التي سينتحر فيها ، ولكنه غير رأيه فجأة قبيل التنفيذ تماماً . وفي كل الأوقات يمكن أن يتغير شيء في اللحظة الأخيرة ، وقد تقع مصادفة غير متوقعة ، ولهذا لا يستطيع الإنسان أن يقول عن نفسه متى سيموت .

«في الواحدة ظهراً ، يا صاحب المعالي» - قال له هؤلاء الحمير ، ورغم أنهم قالوا له ذلك لأنهم قد تفادوا موته ، إلا أن معرفته بساعته المحتملة كانت تملؤه ذعراً . أن من المحتمل تماماً أن يُقتل في وقت ما ، ولكن ذلك لن يحدث غداً - لن يحدث ذلك غداً - وفي وسعه أن ينام قرير العين ، كالمخلد . الحمقى . لم يعرفوا أي قانون عظيم حركوا من مكانه ، أية ثغرة فتحو ، حين قالوا بأدبهم الأحق : «في الواحدة ظهراً ، يا صاحب المعالي» .

- لا ، يا صاحب المعالي ، ليس في الواحدة

ظهراً ، بل غير معروف متى ، غير معروف متى . ماذا تقول ؟

رد الصمت :

- لا شيء ، لا شيء .

- لا . أنت تقول شيئاً .

- لا شيء . سفاسف أنا أقول : غداً ، في

الواحدة ظهراً .

وأدرك في لوعة قلب حادة مفاجئة أنه لن يحظى بنوم ، ولا براحة ، وبلا فرحة حتى تنقضي هذه الساعة اللعينة السوداء المنتزعة من طرة الساعة . أن الواقف في الزاوية هناك كان مجرد ظل لمعرفة بما لا ينبغي أن يعرفه أي كائن حي ، وكان وحده كافياً لأن يكشف النور ، ويلقي على الإنسان ظلام الرعب الدامس . فأنت إذا أثرت رعب الموت مرة فانك ستجده يسري في جسمك ، ويدخل عظامك ، ويطل برأسه الرمادي من كل مسام جلدك . الآن لم يعد يخاف قتل نفسه الغد لقد اختفوا ،

نُسيوا ، اختلطوا مع حشد الوجوه المعادية والظواهر المحيطة بحياته الانسانية ، بل كان يخاف شيئاً فجائياً محتوماً : جلطة دماغية ، تمزقاً في القلب ، في شريان دقيق أحق يجد نفسه فجأة لا يتحمل ضغط الدم فيتمزق ، مثل قفاز أدخل بقوة بأصابع متورمة . بدا له عنقه القصير السمين فظيعاً . كما لم

يحتمل النظر إلى أصابعه القصيرة المنتفخة ، الاحساس بقصرها الشديد ، وامتلائها بالماء القاتل . وإذا كان

اتضح أن الأمر كما حدثته الشرطة . وألقي القبض عند مدخل البيت على أربعة ارهابيين ، ثلاثة رجال وامرأة ، مسلحين بالقنابل والعبوات المتفجرة الموقوتة ، والمسدسات . ووجدوا الارهابية الخامسة في شقة المتأمرين التي كانت هي صاحبتهما ، واعتقلوها . واستولوا في تلك العملية ، على مواد ناسفة وقنابل معبأة الى النصف ، وأسلحة . وجميع المعتقلين كانوا في مقتبل العمر : فان اكبر الرجال سناً كان في الثامنة والعشرين ، وأصغر المرأتين فتاة لم تتجاوز التاسعة عشرة . وحوكم المتهمون في القلعة التي سجنوا فيها بعد الاعتقال ، محاكمة سريعة سرية ، كما كانت المحاكمات تجري في ذلك الوقت . وكان الخمسة جميعاً هادئين في المحكمة ، وان بانت عليهم الجدية الشديدة والاستغراق العميق . فقد كان احتقارهم للمقضاة من الشدة بحيث أنهم لم يرغبوا في ابتسامة زائدة ، أو التشديد على جسارتهم بتعبير مصطنع . فقد كانوا من الهدوء بقدر ما تتطلب حماية أنفسهم ، وكربتها الكبرى قبيل الموت من النظرة الغريبة الحاقدة المعادية . أحياناً كانوا يرفضون الإجابة على الأسئلة ، وأحياناً كانوا يجيبون باقتضاب وبساطة ودقة .

وكانهم لا يجيبون قضاة ، بل احصائيين لملء جداول معينة . وثلاثة منهم ، رجلان وامرأة ، أعطوا

عليه من قبل أن يتحرك حتى لا يشابه الميت فقد بدا تحركه الآن ، في هذا الضوء الساطع البارد المعادي الرهيب ، ليتناول سيكارة أو يتلفن لأحد ، مريعاً مستحيلاً . لقد كانت أعصابه تتوتر . وبدأ كل عصب مثل سلك ملوى مشدود ، في قمته رأس صغير ذو عيينين جاحظتين رعباً وفم فاغر متشنج مخنوق لاهث بصمت .

وفجأة صدر جرس كهربائي في الظلام ، في مكان ما عند السقف ، وسط الغبار وخيوط العنكبوت . دق لسان معدني صغير على حافة طاسة مرنة بتشنج وفزع ، وصمت . ثم عاد فاهتز في فزع موصول ورنين . ذلك هو ، صاحب المعالي ، يدق الجرس من غرفته .

تراكض الخدم . واثقلت مصابيح متفرقة هنا وهناك ، في الثريات ، وعلى الحائط ، وكانت لا تكفي للاضاءة ، لكنها تكفي لظهور الظلال . وظهرت الظلال في كل مكان . نهضت في الزوايا ، وامتدت على السقف ، وارتمت على الجدران متشبهة في ارتعاش بكل مرتفع ، وكان من الصعب على المرء أن يدرك أين كانت من قبل كل هذه الظلال القبيحة الصامتة الغفيرة ، الارواح البكم لأشياء بكم .

تكلم صوت راعش كثيف عالي النبرة . وبعد ذلك طلبوا الطبيب بالتلفون قائلين : صاحب المقام الرفيع متوعك الصحة . واستدعوا زوجة معاليه .

أسماءهم الحقيقية ، واثنان امتنعوا عن الأدلاء
باسمائهم ، فبقوا مجهولين للقضاة أيضاً . وكانوا
يبدون لكل ما حصل في المحكمة ذلك الفضول الملطف
المغبش الذي يتميز به المرضى الذين استفحل فيهم
الداء أو الذين استحوذت عليهم فكرة واحدة ضخمة
مهيمنة على كل شيء . وكانوا سريعي النظر ،
يلتقطون ، الكلمة الأهم من غيرها ، وهي طائفة
ويتابعون التفكير من جديد من نفس الموضع الذي
توقف فيه تفكيرهم .

كان أقرب المتهمين موضعاً من القضاة واحد من
الذين كشفوا عن أسمائهم وكان اسمه هو سيرغي
غولوفين ، ابن عقيد متقاعد ، وهو نفسه ضابط
سابق كان في ريعان الشباب أشقر الشعر ،
عريض المنكبين ، يتدفق عافية . أن السجن وتوقع
الموت المحتوم لم يستطيعا أن يزيلا ثورده ،
ولا تعبير السذاجة الفتية السعيدة من عينيه
الزرقاوين . كان طوال الوقت يقرص بحيوية لحيته
الشعثة الشقراء التي لم يتعود عليها بعد ، ويتطلع
إلى النافذة باستمرار مقلصاً عينيه ، رامشاً .

كان ذلك في نهاية الشتاء ، حين كان الربيع على
الأبواب ، فكان يسرب وسط العواصف الثلجية
والأيام الصقيعية المكفهرة نهراً صافياً دافئاً مشمساً
كالبحر ، أو مجرد ساعة واحدة ، ولكنها ربيعية
جداً ، وغضة لهفى ومتألقة حتى أن العصافير في
الشارع كانت تخرج عن أوطارها ، والناس

كالسكارى . والآن كانت تلوح في النافذة العليا
المغبرة ، التي لم تمسح منذ الصيف الماضي سماء
غريبة جميلة كانت تبدو في النظرة الأولى دافئة
حليبية رمادية ، ولكن حين يسرح البصر أبعد كان
يرى الزرقة قد أخذت تسري فيها ، وتزداد عمقاً
وسطوعاً وقرامياً . وكان هذا التدرج من التبرج
والتبرقع العذري في نقاب السحب الشفافة يجعلها
حببية مثل فتاة معشوقة . كان سيرغي غولوفين يحدث
في السماء ويقرص لحيته ، ويقلص عينه اليسرى
مرة ، وعينه اليمنى مرة أخرى ، بأهدابها الطويلة
الوطف ويفكر في شيء بمجاهدة . بل وحرك أصابعه
مرة ، وتغضن وجهه من بهجة ، ولكنه تلفت في
حوله ، وخبا كشرارة سحقت بالقدم ، وأطلق من
خلال تورده الخدين زرقة ترابية ميتة ، فجائية تقريباً ،
دون المرور بالشحوب . الشعر الغزير ، في انجذاده
من مثابته بالأم ، ينكمش في أطراف الأصابع
الشاحبة ، كما في ملقط . ولكن بهجة الحياة والربيع
كانت أقوى ، فبعد بضغ ثوان عاد الوجه الفتى
الساذج ، كما كان ، يتطلع إلى السماء الربيعية .

كما كانت الفتاة الشابة الشقراء المجهولة الملقبة
بموسيا تنظر إلى السماء أيضاً . كانت أصغر سناً
من غولوفين ، ولكنها كانت تبدو أكبر منه في
رصانتها ، في سواد عينيهما الصريحتين الأنوفيتين .
سوى أن رقبتها النحيلة جداً والرقيقة ، ويديها
النحيلتين أيضاً ، العبويتين كانت تنطق بسننها

الحقيقية ، ثم ذلك الشيء الغالت الذي هو الشباب نفسه ، وما كان يتردد بوضوح في صوتها النقسي المتناغم الموزون بلا شائبة ، مثل آلة ثمينة ، في كل كلمة بسيطة ، وهتاف يكشف محتواه الموسيقي . كانت شاحبة جداً ، ولكن ليس بشحوب الموت ، بل بذلك الشحوب المرضي الساخن الخاص ، حين يبدو وكان باطن الانسان ملتهب بنار هائلة شديدة ، والجسم يضيئ بشفافية ، مثل نار خرف «سيفر» الرقيق . كانت في جلستها لا تكاد تتحرك ، سوى انها كانت بين الحين والآخر تمس بحركة من اصابعها لا تلاحظ حزاً عميقاً في الاصبع الوسطى من يدها اليمنى ، هو اثر لخاتم لم يمض وقت طويل على خلعه . وكانت نظراتها الى السماء بلا رقة ولا ذكريات سارة ، لمجرد ان هذه الرقعة الزرقاء من السماء كانت اجمل وانظف وأعدل ما في القاعة الرسمية القذرة كلها ، ذلك لأنها لم تكن تنتزع شيئاً من عينيها . كان القضاة يشفقون على سيرغي غولوفين ، ويكرهون الفتاة .

وكان يجاورها رجل مجهول الاسم يكنى «فيرنر» يجلس مثلها بلا حراك في وضع اصولي متحفظ طاوياً يديه بين ركبتيه . واذا كان الوجه يمكن ان يغلق كباب محكم ، فان هذا المجهول قد أغلق وجهه كالباب الحديدي ، وعلّق عليه قفلاً حديدياً . كان يثبت بصره في الأرضية الخشبية القذرة فكان من المستحيل معرفة ما يستمع الى ما يدلي المخبرون أمام المحكمة .

كان متوسط القامة ، وقسمات وجهه رقيقة تنم عن النبيل . وكان من العذوبة والجمال بحيث يذكر بليلة قمريّة في مكان ما في الجنوب ، على ساحل البحر ، حيث أشجار السرو وظلالها السوداء ، وفي نفس الوقت كان يولد لديك الشعور بقوة هائلة هادئة وصلابة لا تصارع ، وشجاعة باردة جسور . وحتى الطريقة المؤدبة التي يدلي بها أجوبته القصيرة الدقيقة بدت خطيرة في شفثيه ، في انحناءته الخفيفة ، واذا كان الروب يبدو على جميع المعتقلين تزويقاً سخيفاً ، فقد كان عليه مناسباً تماماً ، ولباساً في غاية الضرورة للانسان . ولسبب ما اعتبره القضاة رئيس الارهابيين ، رغم أنهم لم يجدوا عنده غير مسدس أسود بينما وجدوا لدى الارهابيين الآخرين قنابل وعبوات نصف موقوتة ، فكان القضاة يخاطبونه في شيء من الاحترام وبنفس الاقتضاب والروح العملية . والى جانبه كان فاسيلي كاشيرين يملؤه رعب الموت المستحکم الذي لا تتحمله طاقة ، مثلما تملؤه الرغبة الشديدة في كبت هذا الرعب واخفائه عن القضاة . وقد أخذت ضربات قلبه تتزايد منذ ان قيد الى المحكمة مع الآخرين في الصباح الباكر ، وكانت قطرات العرق تتناثر على جبينه طوال الوقت ، كما كانت يداه الباردتان عرقتين ، وقميصه المبلل البارد يلتصق على جسده ويعيق حركاته . وكان يجهد ارادته اجهداً خارقاً لجعل اصابعه لا ترتجف ، وصوته ثابتاً واضحاً ، وعينيّه هادئتين . ولم يكن

يرى شيئاً حوله ، وكانت الأصوات تصل اليه وكأنها تأتي من خلال ضباب وخلال هذا الضباب كان يوجه جهوده المستميتة ، فيجيب بصلافة ، يجيب بصوت عال . ولكن ما أن يجيب حتى ينسى السؤال وجوابه ، ويصارع نفسه من جديد بصمت وشدة . وكان الموت ينفع فيه بشكل جعل القضاة يتحاشون النظر اليه ، ويصعب تبیان سنه ، مثلما يصعب تبیان في جنة دب التفسخ فيها . كان لا يتعدى الثالثة والعشرين ، حسب ما جاء في هويته . وقد مس فيرنر ركبته بيده مساً خفيفاً مرة أو مرتين ، وفي كل مرة كان يجيب بكلمة واحدة .

- لا بأس .

كان أخوف شيء بالنسبة له تلك الرغبة التي استحوذت عليه فجأة وبشكل لا يطاق ، الرغبة في أن يصرخ بلا كلمات ، صرخة حيوانية قانطة . عند ذاك نظر الى فيرنر بمؤخر عينيه ، فأجابه هذا بخفوت دون أن يرفع بصره .

- لا بأس ، فاسيا . عن قريب سينتهي الأمر . وكانت تانيا كوفالتشوك الراهبية الخامسة ، في رهبة مضنية ، وهي تشمل الجميع بنظرة أمومية حنون . لم يكن لها أطفال . فهي ما تزال في ريعان الشباب ، وجميلة جمال سيرغي غولوفين ، ولكنها بدت وكأنها أم جميع هؤلاء الناس ، لما كان في نظرتها وابتسامتها وفرعها من حنان وحب لا حد له . كانت لا تلقي للمحكمة أي اهتمام ، وكأنها شيء لا

يخصها ، وكانت تستمع فقط الى ما يرد به الآخرون . فقد يرتعش صوت أو يرتعب انسان أو تنشأ حاجة لتقديم الماء .

ولم تكن للوعتها تستطيع النظر الى فاسيلي فكانت تفرك أصابعها المنتفخة لا غير ، وكانت تنظر الى موسيا وفرنر باعتزاز واحترام ، وتجعل وجهها رصينا مستغرقاً . وتحاول طوال الوقت أن تنقل لسيرغي غولوفين ابتسامتها .

كانت تقول في نفسها عن غولوفين : «الحلو ينظر الى السماء . أنظر ، أنظر ، يا حمامتي . وفاسيا ؟ ما هذا ، يا ربي ، يا ربي . . . ماذا أفعل معه ؟ سيكون أسوأ لو أقول له شيئاً . ربما يبكي ؟»

ومثل بركة هادئة في الشفق ، تعكس كل غمامة سارية ، كانت هي تعكس على وجهه المنتفخ الحلو التقاطيع ، الطيب ، كل عاطفة سريعة كل فكرة تراود هؤلاء الأربعة . ولم تكن تفكر بالقط في أنها تحاكم مثلهم وستشئق مثلهم ، فقد كانت غير مكترثة البتة . وهي التي اكتشفوا في شفتها مستودع القنابل والديناميت ، وهي التي استقبلت الشرطة ، ومهما يكن في ذلك من غرابة ، بالطلقات ، وجرح أحد المخبرين في رأسه .

انتهت المحكمة في حوالي الساعة الثامنة ، وقد خيم الظلام . خبت السماء المتلألئة زرقاً أمام بصري موسيا وسيرغي غولوفين بالتدريج ، ولكنها لم تتورد ، ولم تبتسم ابتسامتها الهادئة ، كما هي في

امسيات الصيف ، بل اربدت ، وارمدت ، وصارت
باردة شتائية فجأة . زفر غولوفين ، وتمطى ، ونظر
في النافذة مرة أخرى وثانية ، ولكن لم يجد هناك
غير ظلام الليل البارد . فأخذ يتطلع الى القضاة
والجنود المسلحين وهو ما يزال يقرص لحيته وابتسم
لتانيا كوفالتشوك . أما موسييا ، فبعد أن خبت
السماء حولت عينيها بهدوء ، ودون أن تخفطها الى
الأرض ، الى زاوية كان نسيج العنكبوت يرغرف فيها
بهدوء على حركة غير ملحوظة في الهواء المدفأ . وبقيت
كذلك حتى اعلان الحكم .

وبعد صدور الحكم توادع المتهمون مع المحامين
في بدلاتهم «الفراك» تراحموا دقيقة في الباب وتبادلوا
عبارات مقتضبة متحاشين النظر الى عيونهم الذاهلة
في عجز الآسية الشاعرة بالذنب .

قال فيرنر :

- لا يهم ، يا فاسيلي ، عن قريب سيتهي كل
شيء .

فاجاب كاشيرين بصوت عال وهدوء ، بل
وكالمرح :

- نعم ، لا يهمني ، بالطبع .

وبالفعل كان وجهه قد تورد قليلاً ، ولم يعد
يبدو كوجه جثة آخذة بالتفسخ .

وشتم غولوفين بسذاجة :

- تخطفهم الشيطان . اصدروا حكمهم بشنقنا ،
على كل حال .

رد فيرنر بهدوء :

- هذا ما كان يجب توقعه .

- غداً سيصدر الحكم في صيغته النهائية ،

سيحبسوننا سووية . - قال كوفالتشوك من باب

التسرية . - وسنظل سووية حتى نشنق .

ولزمت موسييا الصمت . ثم تقدمت الى الامام

بعزم .

٣- ما لازم اشنق

قبل اسبوعين من محاكمة الارهابيين ، حكمت

هذه المحكمة العسكرية نفسها ، ولكن بطاخم آخر من

الأعضاء ، واصدرت حكمها بالاعدام شنقاً على الفلاح

ايفان يانسون .

كان ايفان يانسون هذا فلاحاً اجيراً عند مزارع

موسر ، وكان لا يختلف بشيء عن الشغيلة الآخرين

الذين لا عائلة لهم . كان في الأصل إستونيّاً من

قيزنبيرغ ، وقد تنقل باستمرار ، وخلال عدة سنين ،

من مزارع الى مزارع الى أن بلغ العاصمة . وكان يتكلم

الروسية بطريقة رديئة جداً ، ولما كان رئيسه روسياً

تلقب عائلته لازارييف ، ولم يكن على مقربة منه

إستونيون ، فقد ظل يانسون طوال عامين تقريباً

صامتاً . ومن المحتمل أنه لم يكن ميالاً الى الحديث

اطلاقاً ، ، فقد كان يلتزم الصمت ليس مع الناس

فقط ، بل ومع الحيوانات أيضاً . فقد كان يسقي

الحصان صامتاً ، ويشده صامتاً ، متحرّكاً حوله ببطء .

وتكاسل وبخطوات صغيرة مترددة ، وحين كان الحصان يأخذ بالنرفزة والقفز غير مرتاح من الصمت ، كان يضربه بالسوط في صمت . ولم يكن يضربه بقسوة ، بل باصرار بارد حائق ، وإذا كان ذلك وهو في حالة خمار شديدة كان يبلغ حد الضراوة . وعندها كانت تصل الى البيت لعلعة السوط وكركة الحوافر المذعورة المتسارعة المفعمة بالألم على ارضية السقيفة الخشبية . وكان السيد يضرب يانسون على ضربه للحصان ، ولكن لم يستطع اصلاحه ، فاستغنى عنه . كان يانسون يسكر مرة او مرتين في الشهر ، وكان ذلك عادة في الايام التي كان يوصل فيها سيده الى محطة القطار ، حيث يوجد مشرب . فبعد ان يعين سيده في ركوب القطار يقطع نصف فرست عن المحطة ويغطس بزلاجه وحصانه في الثلج في منأى عن الطريق ، وينتظر مرور القطار . وكانت الزلاجة تقف على جانبها مطروحة تقريباً ، والحصان يغطس بقوائمه المتباعدة في كتيب الثلج حتى البطن ، ماداً عنقه الى الأسفل من حين لآخر ليلعق الثلج الناعم الهش ، بينما كان يانسون يستلقي نصف استلقاء على الزلاجة في وضع غير مريح ، وكانما أخذته اغفائة ، وقد تدلت الى الأسفل أذنيها قبعتها الفرائية المحكوكة محلولتين مثل أذني كلب صيد ، والبقعة تحت أنفه الصغير المحمر رطبة . وبعد ذلك كان يانسون يعود الى محطة القطار ، ويشرب بسرعة .

وفي طريق العودة كان يقطع الفرستات العشرة كلها في عدو سريع . وكان الحصان الذي الهب ضرباً الى حد الفزع يرقل بكل قوائمه الأربع كالمجنون ، وكانت الزلاجة تهتز وتميل وتضرب في اعمدة التلغراف بينما كان يانسون يرخي الأعنة ويطلق عقيرته بالغناء او بالصراخ بعبارات متقطعة عمياء باللغة الاستونية ، وهو يكاد يطير من الزلاجة في كل لحظة . بل وفي الأغلب لا يغني بل يصمت صاكاً على أسنانه بقوة من زخم الضراوة الخرساء والعذاب وشدة الفرح ، ومندفعاً قُدماً ، فكان كالأعمى لا يرى من يقابله ، ولا ينبهه ، ولا يخفف من سرعته الجنونية لا في المنعطقات ولا في المنحدرات . ولا أحد يعرف حتى الآن كيف لم يسحق أحداً ، وكيف لم يتحطم هو ويموت في إحدى هذه الاندفاعات الجنونية . وكان ينبغي أن يطرد منذ زمان ، مثلما طرد من اشغال أخرى ، ولكنه كان رخيص الأجر ، ولم يكف العمال الآخرون بأحسن منه ، فبقي عامين . ولم تكن في حياة يانسون أية أحداث . ذات مرة تلقى رسالة بالاستونية ، ولما كان هو نفسه أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، والآخرون لا يعرفون الاستونية ، فقد بقيت الرسالة على حالها لم تقرأ ، فألقاها يانسون في الروث بعدم اكتراث بدائي مفرط ، وكانما لم يكن يعرف أنها تحمل اخباراً من الوطن . وحاول يانسون ايضاً مغازلة طباحة ، في تعطشه الى امرأة ، كما يبدو ، ولكنه لم يوفق ورد رداً غليظاً ، واستهزى

به . فقد كان قصير القامة هزيلاً ، وجهه منمش رخو ، وعيناه ناعستان بلون اخضر كدر . وقد تقبل يانسون فشله بعدم اكتراث ايضاً ، وكف عن مضايقة الطباخة .

ولكن يانسون القليل الكلام كان طوال الوقت ينصت الى شيء . فكان يستمع الى الحقل الثلجي الكئيب بأكوام الروث المتجمد الشبيه بصف من القبور المغطاة بالثلج ، والى الابعاد الثلجية الزرقاء ، وأعمدة التلغراف المطنة ، والى احاديث الناس . وكان هو وحده يعرف ما تقول له الحقل وأعمدة التلغراف الطنانة ، بينما كانت احاديث الناس مثيرة للقلق ، مملوءة بالشائعات عن جرائم القتل ، والسرقة والحرق . وقد سمع ذات مرة ليلاً ناقوس الكنيسة البروتستانتية الصغير في القرية المجاورة يرن رنيناً هزيلاً خائراً كجرس ضئيل ، وفرقع لهيب حريق . ان بعض الطائرين نهبوا مزرعة غنية ، وقتلوا صاحبها وزوجته ، وأحرقوا البيت .

وفي مزرعتهم ايضاً كانوا يعيشون في فزع . وكانوا يطلقون الكلاب في النهار ايضاً فضلاً عن الليل . وكان سيده يضع البندقية الى جانبه في الليل . وكان يريد أن يعطي ليانسون مثل هذه البندقية ، ، سوى أنها قديمة وذات ماسورة واحدة ، ولكن يانسون قلب البندقية في يديه وهز رأسه ، ورفضها لسبب ما . لم يفهمه سيده فراح يشتمه . ولكن السبب أن يانسون كان يثق بقوة سكينه

الفنلاندي أكثر من ثقته بتلك القطعة الصدفية القديمة .

قال يانسون ، وهو ينظر الى سيده ناعساً بعينه الشبيهتين بعينين من زجاج :

- انها ستقتلني قبل أن أقتل بها أحداً .
لوح السيد ذراعه في يأس قائلاً :

- انك لأبله ، يا ايفان . اوه ، وتعال عش مع مثل هؤلاء الشغيلة .

ولكن ايفان نفسه الذي لم يثق بالبندقية قام في ليلة شتائية ، حين أرسل الشغيل الآخر الى محطة القطار ، بعملية معقدة للنهب المسلح ، والقتل واغتصاب امرأة . وقد قام ذلك ببساطة مذهلة . قفل باب المطبخ على الطباخة ، وتقدم من سيده من وراء بكسل وبهيئة من استولى عليه نعاس شديد ، وطعنه في ظهره بالسكين بسرعة طعنات متتالية . فسقط رب البيت فاقد الوعي ، ولحظت ربة البيت ذلك ، فأخذت تعول . كشر يانسون عن أسنانه ، وشهر سكينه ، وراح يقلب الصناديق والجرار ، حتى وجد النقود . وبعد ذلك ، وكأنما يرى ربة البيت لأول مرة ، هجم عليها ليغتصبها في مباغطة حتى لنفسه . الا أنه كان قد ترك السكين ، فكانت المرأة ، بسبب ذلك ، ، أقوى منه ، حتى أنها صدته ، فلم يستطع اغتصابها ، وعلاوة على ذلك كادت تخنقه . وفي تلك الأثناء أخذ رب البيت يتقلب على الأرض ، وأخذت الطباخة تضرب

بالكماشة لتكسر باب المطبخ . فركض يانسون هارباً الى الحقل ، حيث أمسك بعد ساعة ، حين كان يقرفص ، وراء ركن السقيفة يوقد عود ثقاب فينطفئ ، فيوقد آخر ، ثم آخر ، ليشعل حريقاً . وبعد بضعة ايام مات صاحب المزرعة من تلوث الدم . اما يانسون ، فحين جاء دوره في سلسلة من جرائم السلب والقتل ، حوكم ، وحكم عليه بعقوبة الموت . كان في المحكمة ، كما هو دائماً ، رخواً ، منمشاً ، ذا عينيْن ناعستين زجاجيتين . كان يبدو وكأنه لم يدرك تماماً خطورة ما حدث ، فكان في مظهره غير مكترث ، يرمش بأهدابه البيض ، ويجيل بصره في القاعة المهيبة الغريبة ببلاهة وبلاهتمام . ويدخل في أنفه اصبعه القاسية المتصلبة المصفرة من التدخين . والذين كانوا يرونه في الكنيسة في ايام الأحاد كان من الممكن أن يحدسوا وحدهم أنه قد تألق قليلاً ، فقد كان يشد على رقبتة لفاحاً محاكاً قنراً وقد رطب شعر رأسه في بعض المواضع فكان الشعر في هذه المواضع داكناً مصفوفاً ، بينما في الجهة الأخرى كان يبرز خصلات فاتحة اللون خفيفة ، مثل قش على تربة محولة أصابها وابل .

وحين أعلن قرار الحكم : الاعدام شنقاً ، دب القلق في يانسون فجأة . احمرّ احمراراً شديداً ، وأخذ يشد اللفاح ويفكه ، وكأنما يشد على خناقه ثم شمرّ ذراعيه بعياً ، وقال مخاطباً قاضياً غير

الذي قرا قرار الحكم ، ومشيراً باصبعه الى الذي قراه :

- هي قالت : انا لازم اشنق .
- من هي هذه ؟ - سأل رئيس المحكمة بصوت عالي النبرة كثيف ، وكان هو الذي قرا قرار الحكم .
ابتسم الجميع خافين ابتساماتهم تحت شواربهم او في الأوراق ، بينما أشار يانسون بسبابته الى رئيس المحكمة ، وأجاب غاضباً خازراً :
انت .

- طيب ؟
ومرة أخرى توجه يانسون الى القاضي الصامت الذي كان يكبت ابتسامته ، والذي شعر به صديقاً وانساناً لا علاقة له البتة بقرار الحكم ، وكرر :
- هي قالت : اننا لازم اشنق . ما لازم اشنق .
- أخرجوا المتهم .

ولكن يانسون لحق أن يكرر مرة أخرى بالبحاث وثقل :
- ما لازم اشنق .

وكان بوجهه الصغير الغاضب الذي حاول عبثاً أن يضفي عليه الوجاهة ، وباصبعه الممدودة على درجة من البلاهة جعلت حتى الجندي المكلف بالحراسة يخرق الأصول ، ويقول له بصوت خافت ، وهو يخرج من القاعة :

- انت والله بهلول ، يا شاب .
فكر يانسون بعناد :
- ما لازم أشنق .
- سيشنقون قبل أن تطرف لك العين .
- طيب ، أسكت ! - صاح الحارس الثاني
غاضباً . ولكنه لم يصطبر هو الآخر فاضاف : -
وتعتبر نفسك لصاً ! لأي شيء أزهقت نفسك ،
يا عبيط ؟ والآن حق لك الشنق .
وقال الجندي الثاني وقد اخذته الشفقة على
يانسون :
- ربما يرافون به .
- أها ! يرحمون بمثله . طيب ، كفى ،
تكلمنا وانتهى .
ولكن يانسون كان قد سكت . وضعوه مرة
أخرى في الزنزانة التي كان قد قضى فيها شهراً .
والتي لحق أن يالفها ، كما كان يالف كل شيء :
الضرب ، والفودكا ، والحقل الثلجي الكثيف المرصع
بالحدبات الدائرية كالمقبرة . بل وشعر بالمرح ،
حين رأى سريره ، ونافذته بقضبانها الحديدية ،
وقدموا له ما يأكله ، ولم يكن قد أصاب شيئاً من
الطعام منذ الصباح . والشيء المزعج الوحيد هو ما
حصل في المحكمة ، ولكنه لم يستطع التفكير في
ذلك لم تكن له المقدرة عليه ، ولم يكن ذهنه
يستوعب الاعدام شنقاً قط .
ورغم أن يانسون قد حكم بالاعدام ، الا ان

أمثاله كانوا كثيرين ، ولم يعتبروه في السجن مجرمًا
خطيراً ولهذا كانوا يتحدثون معه بلا تحوط ، وبلا
احترام ، كما يتحدثون مع مَنْ لا يواجهون الموت .
وكانما لم يكونوا يعتبرون موته موتاً . وحين عرف
السجّان بالحكم قال له راشداً :
- ارايت ، يا اخ ؟ حكموا عليك بالشنق .
فسأل يانسون في ارتياب :
- ومتى سيشنقونني ؟
استغرق السجنان يفكر .
- هذا ما عليك أن تخمنه ، يا اخ ، الى ان
يجمعوا شلة . والا فان شنق شخص واحد ، وعلى
الأخص من أمثالك ، لا يستحق حتى القيام والقعود .
فراح يانسون يسأل بالحاح :
- طيب ، ومتى ؟
لم يكن يكدره قط أنه لا يستحق حتى أن
يشنق لوحده ، فقد كان لا يصدق بذلك ، اعتبره
ذريعة لتأجيل الاعدام ، ثم لالغائه كلياً بعد ذلك .
وشعر بالفرح ، لأن اللحظة الغامضة الرهيبة التي
يستحيل التفكير فيها قد تراجعت بعيداً ، وصارت
خيالية لا تصدق مثل أي موت آخر .
- متى ، متى ! - غضب السجنان ، وهو رجل
عجوز قليل الفهم جهم . ليس هذا كما تشنق كلباً
تأخذه وراء سقيفة ، وتخبطه وينتهي الأمر . ولكن
هذا هو الذي تريده ، يا أحمق .
- أنا لا أريد ، - وكشر يانسون تكشيرة

مرح مفاجئة . - هذا ما قالت هي : لازم اشنق ولكن انا لا اريد .

ولربما كان يضحك لأول مرة في حياته ضحكاً صارفاً سخيفاً وان كان مرحاً فرحاً بشكل غريب ، مثل نقنقة الوز : غا ، غا ، غا ! . نظر السجن الىه بدهشة ، ثم تعبس بجفاء . فان هذا المرح السخيف لانسان محكوم بالشنق كان يهين السجن والشنق ذاته ويجعلهما شيئاً غريباً جداً . وفجأة في لحظة واحدة ، في اقصر لحظة بدا السجن والحياة كلها لهذا السجن العجوز الذي قضى عمره كله في السجن وكان يعتبر قوانينه بمثابة قوانين الطبيعة ، أشبه بدار للمجانين ، وهو ، السجن ، المجنون الرئيسي في هذه الدار ، علاوة على ذلك .

- تفو عليك ! - وبصق السجن . - ما لك تكشر عن أسنانك . لست انت في حانة !

- انا لا اريد . غا ، غا ، غا ! - ضحك يانسون .

- أعوذ من الشيطان ! - قال السجن ، وشعر بأن عليه أن يرسم علامة الصليب .

ان هذا الانسان بوجهه الصغير الرخو كان لا يشبه الشيطان في شيء ، ولكن ضحكته الشبيهة بالنقنقة كانت تنطوي على ما يدمر قدسية السجن وحصانته . واذا ما مضى في ضحكه لبعض الوقت ، فان الجدران ستنهار منخوبة ، وتتساقط القضبان المرطبة ، والسجن نفسه ، سيخرج المعتقلين من

بوابة السجن : تفضلوا ، يا سادة ، تنزهوا في المدينة . أو لعل احدكم يريد الذهاب الى الريف ؟ أعوذ من الشيطان !

الا ان يانسون كان قد كف عن الضحك . سوى انه كان يخاص عينيه في شيطنة .

- طيب ، هوه ! - قال السجن بتهديد غير محدد ، وانصرف وهو يتلفت .

كان يانسون طيلة هذا المساء هادئاً بل ومرحاً . ظل يردد في سره عبارته : ما لازم اشنق ، فكانت تبدو مقنعة حكيمة دافعة الى حد انه لم يكن يقلق لشيء . وكان قد نسي جريمته منذ وقت طويل ، سوى انه كان يتأسف أحياناً على انه لم يغتصب ربة البيت . وحتى هذا سرعان ما نسيه . وفي كل صباح كان يانسون يسأل متى سيشنق ، وفي كل صباح كان السجن يرد غاضباً :

- ستلحق على ذلك ، شيطان . اقعد ! - ويسرع في الانصراف قبل ان يضحك يانسون .

وبسبب الكلمات المتكررة برتابة ، ولأن كل يوم كان يبدأ وينتهي دون أن يحدث شيء ، مثل أي يوم اعتيادي تماماً ، تيقن يانسون تيقناً قاطعاً من أن أي اعدام لن يجري . فأخذ ينسى المحكمة بسرعة شديدة ، ويقضي أياماً كاملة مسترخياً على سريره ، حالماً في غموض وفرح بالحقول الثلجية الكثيبة بحدباتها ، وبمشرب محطة القطار ، وبشيء آخر أبعد وأكثر اشراقاً . وكانوا يطعمونه في

السجن بشكل جيد ، فاكثى جسمه لحمًا بسرعة كبيرة ، وخلال أيام ، وصار يخال قليلاً .
ومرة فكر مع نفسه في ربة البيت : «كانت ستحبني الآن . فانا سمين الآن ، وليس أسوأ من رب البيت» .

سوى أنه كان يتشوّق كثيراً لشرب الفودكا ، يشرب ، وينطلق بالحصان ينهب الأرض نهباً .
وحين اعتقلوا الارهابيين وصل خبر اعتقالهم الى السجن ، واذا بالسجان يرد على سؤال يانسون المعتاد رداً مباغتاً وحشياً .
- الآن عن قريب .

ونظر اليه بهدوء ووجاهة ، وعاد يقول :
- الآن عن قريب . اعتقد ، بعد اسبوع .
شحب وجهه يانسون ، وارتدت عيناه الزجاجيتان بشدة ، حتى لكانه نعس تماماً ، وسأل :
- انت تمزح ؟

- تقول الآن امزح ، بينما كنت لا تطيق صبراً . المزاح غير مسموح عندنا . انت الذي تحب أن تمزح . المزاح غير مسموح عندنا ، - قال السجان بوقار وانصرف .

وحين حل مساء ذلك اليوم كان يانسون قد نحف . وبشرته المتمططة التي صارت ناعمة لبعض الوقت انكمشت فجأة في عدد كبير من التجاعيد الصغيرة ، بل وبدت مرتخية في بعض المواضع .

وصارت عيناه زرقاوين تماماً ، وحركاته كلها بطيئة ذابلة ، وكان كل لفطة من راسه ، كل حركة لأصابعه ، كل خطوة من قدمه كانت فعلاً معقداً وهائلاً . يجب التروي به طويلاً قبل الاقدام عليه . وفي الليل استلقى على سريريه ، ولكنه لم يغمض عينيه ، وهكذا ظلت هاتان العينان الناعستان مفتوحتين حتى الصباح .

- أهاه ! - قال السجان بدهشة ، حين رآه في اليوم التالي . - لست أنت في حانة يا حلو .
ونظر الى السجين بانتباه وتدقيق ، من راسه الى قدميه ، بشعور من الارتياح الهائى ، وكأنه عالم نجحت تجربته مرة أخرى . الآن سيجري كل شيء حسب الأصول . قهر الشيطان ، واعيدت القدسية الى السجن والاعدام . استفسر العجوز بلطف بل وبشفقة صادقة :

- هل ستتواجه مع احد ؟
- ولماذا أتواجه ؟
- للوداع . مع امك او اخيك ، مثلاً .
- ما لازم أشنق ، - قال يانسون . بهدوء ، ونظر الى السجان بطرف عينيه . - أنا لا أريد .
نظر السجان اليه ، ودفع ذراعه صامتاً .
وعند حلول المساء كان يانسون قد هدأ قليلاً . كان النهار اعتيادياً ، والسماء الغائمة اعتيادية في تنورها ، كما كانت اعتيادية الخطوات وكلام الناس الاعتيادي في الممر ، وشوربة الكرنب

الحامض برائحتها الطبيعية الاعتيادية ، حتى ان يانسون صار من جديد لا يصدق بالاعدام . ولكنه احس بالرغبة مع قدوم الليل . من قبل كان يانسون يحس بالليل بمجرد ظلام ، فترة مظلمة من الوقت ، يتوجب فيها النوم ، ولكنه الآن كان يحس بها كأنها غامضاً رهيباً . ان عدم التصديق بالموت يقتضي ان ترى وتسمع فيما حولك ما هو اعتيادي : الخطوات ، والأصوات ، والنور ، وشوربة الكرب الحامض . اما الآن فقد كان كل شيء غير اعتيادي . ان هذا السكون ، وهذا الظلام ، في حد ذاتهما ، كانا بمثابة موت .

وكلما اوغل الليل ازدادت الرهبة . وسذاجة متوحش أو طفل يعتبر ان كل شيء ممكناً ، ود لو يصرخ بالشمس : اشرقى ! فكان يرجو ، يتوسل ان تشرق الشمس ، ولكن الليل كان يجرجر ساعاته فوق الارض بلا هوادة ، وما من قوة كانت قادرة على ايقاف جريانه . وهذه الاستحالة التي تبدت لعقل يانسون الضئيل لأول مرة قد ملاته بالذعر ، ووعي حتمية الموت الوشيك ، قبل ان يستشعر ذلك بوضوح ، ووضع قدماً ميتة على اول درجة من المشنقة .

مداه النهار مرة أخرى ، افزعه الليل من جديد ، وهكذا دواليك حتى تلك الليلة التي وعى فيها وشعر بأن الموت لا مناص منه وأنه سيحدث بعد ثلاثة أيام ، في الفجر ، حين تنهض الشمس .

انه لم يفكر قط في ما هو الموت ، ولم يكن للموت شكل بالنسبة له ، ولكنه الآن كان يشعر بوضوح ، ويرى ، ويتحسس بأنه دخل الزنزانة ، وهو يبحث عنه ، متلمساً بيديه . ومن خوفه اخذ يركض في الزنزانة .

ولكن الزنزانة كانت صغيرة جداً ، حتى بدا له وكأن كل شيء فيها ، لا الزوايا الحادة فقط ، بل والكليلة أيضاً ، يدفعه الى الوسط . ولا شيء يخفى وراءه . والباب مغلق ، وهناك ضوء الزنزانة مضاة . ضرب الجدار بجسمه عدة مرات صامتاً ، ودق الباب مرة . كان اصم صلداً . انحنى على شيء ، وسقط على وجهه . وشعر بأن الموت يمسك به . فاخذ يولول من الذعر ، وهو منبطح على بطنه ، ملتصق بالأرض ، يخفى وجهه في سفليتها الداكن القذر . انبطح على وجهه ، وصار يصرخ بكل اوتار صوته ، حتى جاءوا على صياحه . وحين رفعوه من الأرض واجلسوه على السرير ، وسكبوا على رأسه الماء البارد ، بقي يانسون غير عازم على فتح عينيه المغمضتين بشدة . وحين يفتح عيناً واحدة قليلاً ، ويرى الركن الفارغ المضاء ، او جزمة في فراغ ، يأخذ بالصراخ من جديد .

الا ان الماء البارد اخذ يحدث مفعوله ، كما نفع ان السجان الخفير ، وهو نفس ذلك السجان العجوز ، ضربه على رأسه عدة مرات ضربات علاجية . وهذا الاحساس بالحياة طرد الموت بالفعل .

ففتح يانسون عينيه ، ونام بقية الليل نوماً عميقاً ،
لبك الدماغ . استلقى على ظهره فاغر الفم ، يشخر
شخيراً قوياً على طبقات متنوعة ، وقد لاحت من بين
جفنيه المطبقين بقوة عين بيضاء مسطحة بلا حدقة
وبلا حياة .

وبعد هذا صار كل شيء في العالم : النهار
والليل ، والخطوات والأصوات ، وشوربة الكرنب
الحامض ، فزعاً صرفاً بالنسبة له ، أسلمه الى حالة
من الذهول الوحشي الذي لا يمكن ان يقارن بشيء .
ولم يستطع عقله الضعيف ان يربط بين هاتين
الفكرتين المتناقضتين فيما بينهما الى حد مريع :
النهار المنير عادة ، ورائحة وطعم الكرنب ، وكونه
سيموت بعد يومين ، بعد يوم . لم يكن يفكر في
شيء ، بل ولم يكن يعد الساعات ، بعد ان كان يقف
في ذعر أخرس ، امام التناقض الذي شق دماغه الى
جزئين ، واكتسى شحوباً صافياً لا بياض فيه ولا
احمرار ، حتى بدا في مظهره هادئاً . سوى انه لم
ياكل شيئاً وكف عن النوم كلياً . فكان يجلس على
مقعد طوال الليل واضعاً رجليه تحته بفزع ، أو
ينزع الزنزانة في مشية مختلسة ، ينظر فيما حوله
وسنان العينين . كان فمه نصف مفتوح طوال
الوقت ، وكأنما من دهشة دائمية بالغة الشدة ،
وقبل ان يمسك بيده أي شيء مهما يكن اعتيادياً
كان يتفحصه وقتاً طويلاً وببلاهة ، ويتناول
بارتياب .

وحين صار بهذا الشكل كَف السجانون
والجنود ، الذين كانوا يراقبونه من الفتحة عن
الالتفات اليه . فقد كانت هذه ، بالنسبة
للمحكومين ، حالة اعتيادية ، هي في رأي السجان
الذي لم يمر بها قط ، شبيهة بتلك التي تحس بها الدابة
المعدة للذبح ، حين تُسطر بضربة على جبينها بعقب
آلة جارحة .

- انه الآن مصعوق ، انه الآن لا يحس بشيء
الى ان يموت ، - كان السجان يقول ، وهو يتفحصه
بعينيه الخبيرتين . - ايفان ، تسمع ؟ ها ، يا
ايفان ؟

فكان يانسون يرد بصوت كامد :
- ما لازم اشنق .

ويرتخي فكه الأسفل من جديد .

- ما كنت ستشنق لو لم تقتل ، - قال كبير
السجانين بعظلة ، وكان ما يزال شاباً الا انه رجل
كبير الشأن ذو نياشين . - ولكنك قتلت ، وتريد
الا تشنق .

- يريد ان يقتل انساناً بلا قصاص . بليد ،

بليد ، ومحتال .

قال يانسون :

- ما أريد .

قال كبير السجانين :

- لا تريد ، هذا شأنك ، يا حلو . الأفضل ان

توصي بما تملكه بدلاً من التفوه بالسخافات . لا بد أن يكون لديك شيء تملكه .

- ما عنده شيء . ما عنده غير القميص والبنطلون ، وقبعة فرو . أناقة !

وهكذا انقضى الوقت حتى يوم الخميس . وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً من يوم الخميس دخل الزنزانة على يانسون ناس كثيرون ، وقال سيد عليه اشارات رسمية :

- هيا ، هيا . حان الرحيل .

لبس يانسون كل ما لديه من ثياب بنفس البطء والتراخي ، وشد لفاحه الأحمر القذر ، وقال السيد ذو الشارات الرسمية لشخص ما ، وهو يراقب يانسون أثناء ارتدائه لثيابه .

- أي يوم دافئ اليوم . ربيع تماماً . عميت عيننا يانسون ، ونعس تماماً ، وصار يتحرك ببطء وثقل شديد ، حتى أن السجنان صاح :

- هيا ، هيا ، أسرع . نمت !

توقف يانسون بغتة . وقال بذبول :

- ما أريد .

أمسكوه من يديه ، وساقوه ، فمشى طائفاً رافعاً كتفيه . وفي الفناء هب عليه فجأة هواء ربيعي رطب ، وترطبت البقعة أسفل أنفه ، كانت موجة الدفء رغم الليل ، أكثر شدة ، وكانت قطرات الربيع تتساقط متتابعة على الصخر في مكان ما .

مرّر يانسون أصبعه تحت أنفه الرطب بكسل ، وعدل اللفاح الذي شده بتراخ ، في انتظار أن يركب الجندرة العربية السوداء بلا مصباح ، وهم ينحنون ، ويصلصلون بسيوفهم .

٤ - نحن اهالي اريول

وهيئة المحكمة العسكرية - الاقليمية التي حاکمت يانسون ، حكمت أيضاً بالاعدام شنقاً على الفلاح ميخائيل غولوبيتس ، الملقب بميشكا تسيفانوك * ، والتتري أيضاً من قضاء يليتس التابع لولاية اريول . وكانت جريمته الأخيرة ، التي تأكدت ثبوتاً ، هي قتله لثلاثة أشخاص ، والنهب المسلح . أما عدا هذا فان ماضيه المجهول يكتنفه الغموض . كانت هناك اشارات مضطربة الى اشتراكه في جملة من أعمال النهب والقتل الأخرى ، كما كان في ذمته دم وعريضة سكر غامضة . وقد سمى «قاطع طرق» بصراحة خالصة ، وصدق تام ، وسخر من أولئك الذين يعظمون أنفسهم ، حسب الموضة الجديدة ، فيسمون بـ «مصادري الملكيات» . وقد تحدث عن جريمته الأخيرة التي لا ينفع معها افكار بتفصيل ، وعن طواعية ، ولكنه كان يكشر عن أسنانه ، حين يسأل عن ماضيه ، ويصفر قائلاً :

- اقبضوا على ريح !

* وتعني الفجري بالروسية . المترجم .

وحين كانوا يلحون كثيراً في استجواباتهم ، كان
تسيغانوك يتخذ هيئة الجد الكرامة ، ويقول برزانة
وتعقل :

- نحن ، أهالي أريول ، مثقوبو الرؤوس
جميعاً . أريول وكرومي لصوص من الدرجة الأولى .
أعاجيب لكل اللصوص . ويليتس أبو اللصوص
كلهم . ولا حاجة الى كلام !

وقد سمى تسيغانوك لمظهره ، وسلوكياته
للصوصية . كان شعره أسود فاحماً ، وعوده
هزيلاً ، وعلى وجنتيه التريتين البارزتين بقع من
الحروق الصفراء ، وكان يقلب مقلتيه كما يفعل
الحصان ، ويسرع دائماً الى مكان ما . وكانت نظراته
مقتضبة ، ولكنها مسندة الى حد القسوة ، ومفعمة
بالفضول ، وكان ما يسدد اليه نظراته المقتضبة
يبدو وكأنه فقد شيئاً ما ، وتخلى له عن جزء منه
وأبقى الجزء الآخر . وحتى السيكرة التي يوجه
اليها نظراته تبدو وكأنها انتزعت من فم الآخر .
وكان ثمة شيء دائم العرامة يسكن فيه ، فكان هذا
يلويه كالجبل المفتول أو ينثره جزمة عريضة من
الشرر الحلزوني . كان يشرب الماء قرابة جردل
كالحصان .

كان يرد على جميع الأسئلة في المحكمة
باقتضاب ، ناطقاً بسرعة ، يرد بثبات ، بل
وبارتياح ، كما يبدو :

- مؤكداً !

وأحياناً كان يقطع الكلمة :

- . . . اك . . . د !

وحين تطرق الكلام فجأة الى شيء آخر وثب من
مكانه ، وطلب من رئيس المحكمة :

- اسمع لي أن أصفر !

قال هذا مندهشاً :

- ولماذا ؟

- الإشارة التي يقولون أنني أشرت بها الى

الرفاق . طريقة جداً . اسمع لي .

وافق الرئيس في شيء من الحيرة . أسرع

تسيغانوك فوضع أربع أصابع في فمه ، أصبعين من

كل يد ، وقلب عينيه بضراوة وخرق هواء قاعة

المحكمة الميت صغير لصوص وحشي حقيقي تجفل

منه الخيول ، وتوتر آذانها ، وتقف على قوائمها

الخلقية ، ويشحب وجه الانسان بشكل لا ارادي .

لقد كان في هذا الزعيق الثاقب الذي لا هو بالانساني

ولا بالحيواني تلك اللوعة القائلة التي يحس بها

القتيل ، وفرحة القاتل الوحشية ، والتحوط المخيف ،

ونداء وظلام ليلة خريفية ممطرة .

صرخ رئيس المحكمة بشيء ، ثم هز ذراعه على

تسيغانوك ليسكته ، فسكت هذا طائعاً . وجلس

كمثل كان يؤدي مظفراً أنشودة صعبة ، ولكنها

ناجحة دائماً ، ومسح أصابعه المبللة بردائيه

وأجال بصره في الحاضرين راضياً عن نفسه .

قال أحد القضاة وهو يفرك أذنه :

- لص حقيقي ! -
 الا ان قاضياً آخر ذا لحية روسية عريضة
 وعينين تتريتين مثل عيني تسيفانوك ، حلق في نقطة
 فوق رأس تسيفانوك ، وابتسم وقال معترضاً :
 - ذلك طريف بالفعل .
 واصدر القضاة حكم الموت على تسيفانوك
 باطمئنان نفسي ، ودون شفقة او اقل تائب من
 ضمير .
 - مؤكد ! - قال تسيفانوك ، حين قرئ قرار
 الحكم . - مؤكد . كما في الأغنية - «خشبستان
 قائمتان بينهما عارضة» .
 وتوجه الى حراسه ، ولهج لهجة الشطار :
 - هيا ، نمشي ، يا صوفه . ولكن امسك
 البندقية جيداً ، والا انتزعتها منك !
 نظر الجندي اليه نظرة حادة ، وباحتراز ،
 وتبادل النظرات مع رفيقه ، وتلمس ترباس
 البندقية . وفعل الجندي الآخر الشيء نفسه .
 وطوال الطريق الى السجن كان الجنديان وكأنهما
 لا يسيران ، بل يطيران طيراناً ، لأنهما قد اذهلهما
 المجرم ذهولاً تاماً ، لم يكونا يشعران بالأرض
 تحت أقدامهما ، ولا بالوقت ، ولا حتى
 بأنفسهما .
 وكان على ميشكا تسيفانوك ، مثلما كان على
 يانسون ، ان يقضي في السجن سبعة عشر يوماً .
 وكل هذه الأيام السبعة عشرة انقضت ، بالنسبة

له ، بسرعة كيوم واحد ، كفكرة واحدة لا تهدا في
 الهروب ، في الحرية ، في الحياة . ان العرامة التي
 كانت تسيطر على تسيفانوك ، والمكبوتة الآن
 بالجدران والقضبان وبالنافذة المصمتة التي لا يرى
 منها شيء حولت كل شواظها الى داخله ، ولذعت
 ذهن تسيفانوك ، مثل جمره تناثرت على الواح
 خشبية . فكانت صور وهاجة ، وان كانت غير
 مكتملة ، تنشال وتتدافع وتتشربك ، وكأنما وهج
 في سورة سكر ، وتمر بذهنه في زوبعة خاطفة
 جامحة ، متجهة كلها الى غاية واحدة : الهروب
 الحرية ، الحياة . كان تسيفانوك تارة يفرد
 منحيه ، كالحصان ، ويظل يتشمم الهواء ساعات
 كاملة ، فيتصور أنه يشم رائحة القنب ودخان
 الحريق ، والهباب اللاذع عديم اللون ، وتارة يدور
 في الزنازة كالذئب ، يتلمس الجدران بسرعة وينقر
 باصبعه ، ويقيس السقف بنظرة دقيقة ، ويقطع
 القضبان الى أجزاء . وقد أضنى بعرامته الجندي
 المكلف بمراقبته من الفتحة ، حتى أنه ليأسه هده
 عدة مرات باطلاق النار عليه . فكان تسيفانوك
 يعترض بفظاظة وسخرية ، ولم ينته الأمر بسلام
 الا لأن التصادم سرعان ما تحول الى سباب بسيط
 غير مسيئ بين رجلين ، صار اطلاق النار بسببه
 سخيفاً وغير ممكن .

كان تسيفانوك ينام لياليه نوماً عميقاً ، لا يكاد
 يتحرك وفي جمود ثابت وحي ، مثل نابض توقف عن

العمل مؤقتاً . ولكنه حالما ينهض يأخذ بالتحرك والتفكير والتلمس . كانت يده جافتين وساخنيتين على الدوام ، ولكن قلبه كان يبرد فجأة ، وكان في صدره وضعت قطعة جليد لا تذوب ، تسري بسببها رعشة جافة خفيفة في جسده كله . وكان تسيغانوك الذي كان داكن البشرة قبل هذا يسود في تلك اللحظات ، ويكتسي لون الحديد المزرق . ثم أن عادة غريبة قد ظهرت عليه . فقد صار يلحس شفثيه ويتمطق باستمرار وكان أكل شيئاً مفراطاً في حلاوته بشكل لا يحتمل ، وكان يبصق لعابه السائل على الأرض بهسيس ، من خلال أسنانه . ولم يعد ينطق بالكلمات كاملة بسرعة توارد الأفكار في ذهنه ، حتى أن لسانه لم يستطع متابعتها .

وفي صباح أحد الأيام دخل الزنزانه كبير السجانين ومعه حارس . ورمق الأرض المبللة بالبصاق ، وقال متجهماً :

- أراك قد قذرت !

فردّه تسيغانوك بسرعة :

- آه ، يا بوز مسمن ، أنت قذرت الأرض كلها ، ولا أحد اعترض عليك . لماذا جئت ؟

فاقترح عليه كبير السجانين بنفس لهجته الجهماء أن يصير جلاداً . كثر تسيغانوك عن أسنانه وضحك :

- أهوه ، لم تجد شخصاً غيـري ، عجيبة ! طيب ، كيف ستشنق الآن ، ها ، ها ! توجد رقاب ،

ويوجد جبل ، ولكن لا يوجد أحد يشنق . أي والله ، عجيبة !

- ولكنك ستظل حياً .

- طبعي ، تريدني أشنق لك وأنا ميت . أي قول ، يا أحمق !

- وكيف اذن ؟ أنت لا يهمك في كلتا الحالتين .

- وكيف يشنقون عندكم اذن ؟ اظنهم يخنقونهم خفية !

رد السجان بفظاظة :

- لا ، مع الموسيقى .

- أحمق حقيقي . لازم مع الموسيقى ، بالطبع . هكذا !

وترنم كما يفعل الأشقياء . فقال السجان :

- أكيد أنك جننت ، يا عزيزي . تكلم كلاماً عاقلاً .

كثر تسيغانوك :

- أنت عجول جداً ! خطط خطوة أخرى ، وسأعرف كيف أتكلم .

وانضمت صورة جديدة الى دوامة الصور الساطعة وغير المتكاملة التي كانت ترهق تسيغانوك باندفاعها : فيا للروعة أن يكون جلاداً في قميص أحمر . وتمثلت أمامه بصورة حية ساحة مكتظة بالناس ، ومنصة عالية ، وهو ، تسيغانوك ، في قميصه الأحمر يتمشى عليها يحمل طبر الجلاد ، وكل

شيء مرح وترف حتى أن الذي سيقطع رأسه بعد دقائق يبتسم أيضاً . ووراء حشد الناس تلوح عربات وأبواز خيول . هؤلاء فلاحون جاءوا من الريف . ووراء ذلك كله يلوح حقل .

- مطلق ! - تمطق تسيغانوك وتلمظ ، وبصق لعباً سال على الأرض .

وفجأة كأنما غطست في رأسه قبعة فرائية وصلت حتى فمه ، واظلمت الدنيا في عينيه ، واختنقت أنفاسه ، وصار قلبه قطعة جليد لا يذوب ، مرسله رعشة خفيفة جافة في جسده .

وعاود السجن زيارته مرة أو مرتين ، وفي كل مرة كان تسيغانوك يكشف عن أسنانه ويقول :

- عجول جداً . تعال مرة أخرى . وفي آخر الأمر صاح السجن من فتحة خطفاً :

- ضيعت فرصتك الثمينة ، يا أغبر . وجدنا شخصاً آخر !

- طيب ، عليكم اللعنة ! اشنقوا بأنفسكم ! جأر تسيغانوك . ولم يعد يحلم في أن يكون

جلاداً . ولكن انشغال الصور الممزقة صار لا يطاق

أخيراً مع اقتراب موعد تنفيذ حكم الإعدام . وصار تسيغانوك يود لو يتوقف ، يبعد رجليه ويتوقف ،

ولكن السيل المنشال كان يجرفه ، ولم يكن له ما يمسك به ، فكان كل شيء حوله يلف ويدور .

وصار نومه قلقاً . وتراءت له رؤى جديدة مكورة

ثقيلة مثل كتل خشبية مزوقة ، أكثر سرعة من الأفكار نفسها . ولم يكن ذلك سيلاً ، بل سقوطاً من جبل لأناله ، انقضاضاً عبر العالم الملوّن في مظهره . كان لتسيغانوك ، قبل السجن ، شاربان على قدر معتبر من الأناقة . أما في السجن فقد نمت له لحية قصيرة سوداء شائكة فجعله ذلك مخيفاً . مجنوناً في شكله . كان تسيغانوك في بعض الأحيان ينسى نفسه بالفعل ، ويدور في الزنزانة في بلاهة تامة ، ولكنه ظل على دأبه السابق يتلمس الجدران الخشنة الملاط . وكان يشرب الماء كالحصان .

وفي إحدى الأمسيات ، حين أضيئت الأنوار ، جثا تسيغانوك على الأربع وسط الزنزانة ، وعوى

عواء ذئبياً مرتعشاً . وكان في عوائه هذا على قدر كبير من الجدية ، وكأنه كان يقوم بفعل مهم

ضروري . كان يملأ صدره بالهواء ويرسله ببطء في عواء ممطوط مرتعش ، ويصغي ويقلص عينيه ،

ويصغي بانتباه ليسمع كيف يبدو عواؤه . وكانت رعشة الصوت نفسها مقصودة ، كما لم يكن صراخه

بلا معنى ، بل كانت كل نبرة معتنى بها في هذا الصراخ الوحشي المعبأ بذعر وأسى لا يوصف .

وبعد ذلك قطع العواء ، وصمت لبضع دقائق ، وهو ما يزال جاثياً على الأربع . وفجأة تمت فسي

الأرض بخفوت :

- يا أعزاء ، يا حلوين . . . يا أعزاء يا حلوين . تفضلوا . . . يا أعزاء ، يا حلوين ! . .

ومرة أخرى صار وكأنه يتسمع كيف يبدو
صوته . ينطق بكلمة ، ويتسمع .
وبعد ذلك نهض ، وقضى ساعة كاملة يشتم
شتائم مفذعة ، دون أن يلتقط أنفاسه .
- أوه ، يا كيت ، وكيت ، ه . . . نا ! -
زعى مقلباً عينيه الممثلتين دماً . - اشنقوا ، كما
ينبغي ، وليس . . . أوه ، يا كيت ، وكيت . . .
أخذ جندي مبيض كالكلس ، يحشر ماسورة
بندقيته في الباب ، مولولاً من الضيق والفزع ،
ويصرخ في عجز من أمره : - سارميك ! سارميك ،
والله . أسمع !

ولكنه لم يجسر على إطلاق النار . اذ لم يحدث
قط أن أطلقت النار على المحكومين بالاعدام ، دون
أن يقدموا بعصيان حقيقي . وصار تسيغانوك يصرف
بأسنانه ، ويشتم ويبصق . فقد كان ذهنه الانساني
الذي كان في الحد الرهيف للغاية بين الحياة والموت
يتفتت الى أجزاء ، مثل كتلة من الطين الجاف
المتآكل .

وحين دخلوا الزنزانة ليلاً ليقودوا تسيغانوك
الى الاعدام ، أخذ هذا يتحرك ويضطرب وكأنما عاد
الى الحياة . وتحلب فمه أكثر ، وصار اللعاب
يسيل بلا رادع . الا أن خديقه توردا قليلاً ،
والتمعت الشقاوة الوحشية في عينيه أكثر من ذي
قبل . وحين كان يلبس ثيابه سأل الموظف :

- مَنْ سيقوم بالشنق ؟ الجلاد الجديد ؟ ما
زال يتقن الصنعة بعد .
أجاب الموظف بجفاف :
- لا تقلق بهذا الخصوص .
- كيف لا أقلق ، يا حضرة المحترم ، أنا
الذي ساشنق ، لا أنت . على الأقل لو تدهـنـ
الأنشطة بالصابون الحكومي ، ولا تبخل به .
- طيب ، طيب ، أرجوك أن تسكت ،
- لأن صاحبكم هذا أكل الصابون كله ، -
وأشار الى السجنان . - انظر الى وجهه كيف يلمع .
- أسكت !

- يعني لا تبخل به !
وضحك تسيغانوك ، ولكن فمه أخذ يتحلب
أكثر ، ومن العجيب أن رجليه أخذتا تخدران فجأة .
ومع ذلك فحين خرج الى الفناء استطاع أن ينادي
بصوت عال :
- هيئوا العربة لأمير البنغال !

٥ - قبله واسكني

أعلن قرار الحكم على الارهابيين الخمسة في
صيفته النهائية وصودق عليه في نفس اليوم . ولم
يخبروا المحكومين بيوم تنفيذ الاعدام ، ولكنهم
عرفوا مما كان يجري عادة أنهم سيعدمون في هذه
الليلة أو في الليلة القادمة في أقصى تقدير . وحين

عرضوا عليهم مقابلة ذويهم في اليوم التالي ، وكان
يصادف يوم الخميس ، عرفوا أن الاعداد سينفذ في
فجر يوم الجمعة .

لم يكن لتانيا كوفالتشوك اقارب من الاولين ،
ومن تبقى من اقاربها كانوا في منطقة نائية في
اوكرانيا ، ومن المستبعد ان يكونوا قد سمعوا
بالمحاكمة والاعداد المنتظر . اما موسيا وفيرنر
المجهولا الهوية ، فمن المفروض ان لا يعرف لهما
اقارب كليا . فكانت زيارة الاقارب تخص اثنين
فقط ، وهما سيرغي غولوفين وفاسيلي كاشيرين .
وكان كلاهما يفكر ان في هذه المقابلة برعب
ولوعة ، ولكنهم لم يريدوا ان يرفضوا لكبار السن
الحديث الأخير ، والقبلة الأخيرة .

كانت المقابلة المنتظرة تعذب سيرغي غولوفين
بشكل خاص . فقد كان يحب اياه وامه حبا
شديدا ، وقد تقابل معهما قبل وقت قصير ، وهو
الآن في فزع مما سيكون في انتظاره . ان الاعداد
نفسه بكل فظاعته غير الاعتيادية ، وجنونه المشل
للعقل كان في ذهنه اخف واقل رهبة من تلك
الدقائق القليلة القصيرة التي لا يستوعبها الادراك
والتي تبدو وكأنها خارج الزمن ، وخارج الحياة
نفسها . كان عقله الانساني يرفض ان يعي كيف
ينظر وفيم سيفكر ، وماذا سيقول . ان ابسط
الاشياء واكثرها اعتيادية ، وهو ان يصافح اياه
ويقبله ، ويقول له : «مرحباً ، يا ابي» كان يبدو

مريعاً بشكل لا يتصوره العقل في زيفه البشع
الانساني المخبول .

وبعد صدور الحكم لم يوضع المحكومون
سوية ، كما كانت تتصور كوفالتشوك ، بل وضعوا
كل واحد منهم في زنزانة انفرادية . وطوال الصباح ،
حتى الساعة الحادية عشرة كان سيرغي غولوفين
ينزع زنزانيته بجنون ، ويقرص لحيته ، ويرسم
على وجهه تقطيبية يائسة ، ويدمدم بشيء ما .
وأحيانا كان يتوقف وهو في كل حركته ، ويملا
صدره بالهواء ويطلقه بقوة كمن قضى وقتاً طويلاً
جداً تحت الماء . ولكنه كان من العافية وعنفوان
الشباب بحيث ان الدم كان ، حتى في هذه اللحظات
من العذابات المبرحة ، يتدفق تحت جلده ، ويلوّن
خديه ، وكانت عيناه تتألقان زرقة وسداجة .

ومع ذلك فقد جرى كل شيء أحسن بكثير مما
كان سيرغي يتوقعه .

كان أول مَنْ دخل الحجرة التي جرت فيها
المقابلة ، هو نيقولاي سيرغيفيتش غولوفين ، والد
سيرغي ، وهو ضابط متقاعد برتبة عقيد ، وكان
كله بياضاً في بياض : وجهه ولحيته ، وشعر
رأسه ، ويداه حتى وكأنه تمثال من الثلج البس
ثياب انسان . كان بنفس السترة الطويلة القديمة
وان كانت منظفة جيداً ، تفوح منها رائحة البنزين
وبشارات عرضانية جديدة ، وقد دخل يسير
بخطوات استعراضية ثابتة قوية واضحة الايقاع .

ومدّ يده البيضاء اليابسة ، وقال بصوت عال :

- مرحباً ، سيرغي !

وخلفه سارت الأم بخطوات قصيرة ، مبتسمة بغرابة . الا انها صافحته ايضاً ، وقالت بصوت عال :

- موحباً ، سيريوجنكا !

وقبلته من شفتيه ، وجلست صامتة . لم تندفع نحوه ، ولم تبك ، ولم تنبذ منها صرخة ، ولم تقم بأي شيء مفزع ، كان سيرغي يتوقعه . بل قبلته وجلست صامتة . بل وعدت بيديها راعشتين ثوبها الحريري الأسود .

لم يكن سيرغي يعرف ان اباه العقيد أغلق عليه باب مكتبه طوال الليل ، وراح يجهد كل قابلياته ويفكر في هذا الترتيب الشعائري ، حتى قرر بعزيمة : «لا يجب ان نثقل على ابنا اللحظة الأخيرة ، بل يجب ان نخففها عنه» . فكان يزن بعناية كل جملة يمكن ان تقال في حديث الغد ، كل حركة . ولكنه كان أحياناً يرتبك ، ويضيع ما توصل اليه ، فيبكي بكاء مريراً في ركن أريكته المخططة القماشية ، ولكنه في الصباح أبلغ زوجته بما ينبغي ان يسلكه أثناء اللقاء قائلاً :

- المهم ان تقبلينه وتسكتي ثم تستطيعين ان تتكلمي ايضاً ، بعد بعض الوقت . ولكن حين

* صيغة التدليل والتعجب من سيرغي . المترجم .

تقبلينه اسكتي . لا تتكلمي بعد القبلة مباشرة . فاهمة ؟ والا فستقولين ما لا ينبغي ان تقوليه .

ردت الأم باكية :

- فاهمة ، يا نيقولاي سيرغيفيتش .

- ولا تبكي . وقاك الله من البكاء ! ثم انك

ستقتلينه ، يا عجوز ، اذا بكيت .

- ولماذا تبكي انت ؟

انت تدفعين الى البكاء . لا يجوز ان تبكي .

فاهمة ؟

- حسناً ، يا نيقولاي سيرغيفيتش .

وفي العربة التي استأجروها أراد ان يكرر نصيحته مرة أخرى ، ولكنه نسي . وسارت بهما

العربة وهما صامتتان ، منحنيان كلاهما أشيب

وهرم ومستغرق في افكاره . بينما كانت المدينة

تضج في مرح ، فقد كان ذلك في اسبوع المرافع ،

والشوارع صاخبة ومكتظة بالناس .

جلس الاثنان . وصار العقيد في الوضع المهيأ

مسبقاً ، وقد وضع يده اليمنى وراء فتحة سترته .

وجلس سيرغي برهة واحدة ، وقابله وجه أمه ذو

الغضون المتقاربة ، فنهض . رجته أمه قائلة :

- اجلس ، يا سيريوجنكا .

وكرر الأب :

- اجلس ، سيرغي .

وصمتوا قليلاً . وكانت الأم تبتمس ابتسامة

غريبة .

- كم تشفعنا لك ، يا سيريجينكا .
 - لا لزوم لذلك ، يا اماء . . .
 قال العقيد بصلافة :
 - كان علينا أن نفعل ذلك ، يا سيرغي ، حتى
 لا تفكر بأن والديك تخليا عنك .
 وصمتوا من جديد . كان يرعبهم أن يتفوهوا
 بكلمة ، وكان كل كلمة على اللسان كانت تفقد
 مدلولها ولم يكن لها الا معنى واحد : الموت .
 نظر سيرغي الى سترة أبيه النظيفة الفوَّاحة برائحة
 بنزين ، وفكر : «الآن ليس لأبني جندي مرافق ،
 يعني هو الذي نظفها بنفسه . فكيف لم اكن
 الحظه قبل وهو ينظف سترة ؟ لا بد أن يكون في
 الصباح» . وسأل فجأة :
 - وكيف الأخت ؟ هي في صحة ؟
 - اسرعت الأم ترد :
 - اختك نينا لا تعرف شيئاً .
 الا أن العقيد أوقفها بحدة :
 - ولماذا الكذب ؟ اختك قرأت الخبر في
 الصحف . دعي سيرغسي يعرف أن جميع . . .
 ذويه . . . في هذا الوقت يفكرون و . . .
 ولم يستطع أن يستمر أكثر ، فتوقف .
 وفجأة بدا وجه الأم وكأنه قد تلوى فجأة ،
 وساح ، وتماوج ، وصار رطباً موحشاً . وجحظت
 عيناهما جحوظاً جنونياً ، وصارت أنفاسها تتلاحق
 وتصير أكثر قصراً وأعلى صوتاً .

كررت دون أن تفرج شفيتها :
 - سي . . . سي . . . سي . . .
 - اماء !
 تقدم العقيد الى الامام ، وقال لزوجته ، وهو
 يهز بكليته ، بكل ثنية من سترة ، بكل تجعيدة في
 وجهه ، غير مدرك كم هو مرعب في ابيضاض الموت
 البادي عليه ، في تصلبه القنوط المعذب :
 - أسكتي ! لا تعذبيه ! لا تعذبيه ! لا !
 امامه موت ، فلا تعذبيه !
 صمتت الأم مذعورة ولكن الأب مضى يهز
 قبضتيه المضمومتين امام صدره مكظوماً ، ويكرر :
 - لا تعذبيه !
 ثم عاد راجعاً ، وحشر يده المرتعشة وراء فتحة
 سترة ، وسأل بهدوء مشدد ، وشفته مبيضتان :
 - متى ؟
 - اجاب سيرغي من شفيتين مبيضتين ايضاً :
 - في صباح الغد .
 نكست الأم رأسها ، واخذت تعلق شفيتها ،
 وكأنها لم تسمع شيئاً . وقالت ، وهي ماضية في
 علك شفيتها ، وكأنها تلقي كلمات بسيطة
 وغريبة :
 - طلبت اختك مني أن اقبلت ، يا
 سيريجينكا .
 قال سيرغي :
 - قبلتها عني .

- طيب . كما أن آل خفستوف يبلغونك
تحياتهم .

- من آل خفستوف هؤلاء ؟ آه ، نعم .
تدخل العقيد قائلاً :

- طيب ، حان وقت الانصراف . انهضي ،
يا أم ، حان الوقت .

ساعدها الاثنان على النهوض ، بعد أن وهنت
قوامها . ولكنها رسمت علامة الصليب على ابنها ،

وقبلته قبلة قصيرة ، وهزّت رأسها ، وراحت
تكرر بلا معنى :

- لا ، غير ممكن ، غير ممكن . لا ، لا . وماذا
سيكون من أمري بعد هذا ؟ ماذا سأقول ؟ لا ،

غير ممكن .
قال الأب :

- وداعاً ، يا سيرغي .
وتصافحا بقوة ، ولكنهما تبادلا قبلة قصيرة .

وبادر سيرغي يقول :

- أنت . . .
سأل الأب بصوت متقطع :

- ماذا ؟
- لا غير ممكن ، غير ممكن . ماذا سأقول ؟

قالت الأم وهي تهز رأسها ، ولحقت أن تجلس
ثانية ، وهي تهتز بكل جسدها .

- أنت ، يا أب ، انسان نبيل .
قال العقيد مذعوراً :

- ما هذا منك ! ما هذا منك !

وفجأة أسقط رأسه على كتف ابنه ، وكأنه
أصيب بانفيار مفاجئ . كان في وقت ما أطول قامته

من سيرغي ، أما الآن فقد صار قصيراً ، فاستلقى
رأسه اليابس الناعم الشعر كل كتف ابنه تكويراً

أبيض . وراح أحدهما يقبل الآخر بنهم وصمت .
وسيرغي يقبل الشعر الأبيض الناعم ، والأب يقبل

رداء السجن .
وفجأة قالت الأم بصوت عال :

- وأنا ؟
والتفتا ، ورآيا الأم واقفة ، وقد دفعت رأسها

الى الوراء وراحت تنظر بحنق وربما يقرب من
الكره .

صاح العقيد :

- ماذا بك ، يا أم ؟
- وأنا ؟ - كانت تقول بقوة افصاح جنونية ،

وهي تهز رأسها : - أنتما تتبادلان القبلات ،
وأنا ؟ أنتم رجال ، ها ؟ وأنا ؟ وأنا ؟

اندفع سيرغي نحوها :

- أمه !
وحدث ما لا يمكن ولا يجوز التحدث عنه .

وكانت آخر كلمات العقيد :

- أباركك في موتك ، يا سيرغي .
شجاعاً ، كضابط .
وانصرفا . انصرفا على ما يبدو . جاءا ، ووقفوا ،

وتحدثنا ، وانصرفا فجأة . ها هنا كانت الأم تقف ،
وها هنا كان الوالد يقف . وفجأة انصرفا على ما
يبدو . وعاد سيرغي الى الزنزانة ، واستلقى على
تحتة ، ووجهه الى الحائط ، ليختبئ عن الجنود ،
وظل مستلقياً وقتاً طويلاً . ثم تعصب من ذرف
الدموع ، وغفا اغفاءة عميقة .

لم يأت لزيارة فاسيلي كاشيرين غير أمه ، فقد
كان أبوه تاجراً ثرياً ، ولم يرغب في المجيء . استقبل
فاسيلي أمه العجوز ، وهو يذرع الحجر ، ويرتجف
من البرد ، رغم أن الحجر كانت دافئة . بل وحارة .
وكانت المحادثة قصيرة ومرهقة .

ما كان يجب أن تأتي ، يا ماما . ستعذبين
نفسك وتعذبيني لا غير .

— ما حاجة الى أن تقول هذا ، يا فاسيا !
لماذا اقدمت على ذلك ! يا الهي !

واخذت العجوز تبكي ، وهي تمسح دموعها
بأطراف منديلها الصوفي . وعلى عادته وعادة اخوته
في الصياح على أمهم التي لا تفهم شيئاً ، توقف ،
وقال في غضب ، مرتعشاً من البرد :

— هذا هو ! وكنت أعرف ! أنت لا تفهمين
شيئاً ، يا ماما ، لا تفهمين شيئاً !

— طيب ، على مهلك . هل تشعر بالبرد ؟
— برد . . . — رد فاسيلي بحدة ، وراح يذرع

الحجرة من جديد ، وهو ينظر الى أمه من طرف
عينه في غضب .

— ربما أصبت ببرد ؟

— آه ، يا ماما ، ما يعني البرد ، اذا كان . . .

واتى بحركة قنوط من ذراعه ، أرادت العجوز

أن تقول : «صاحبنا طلب أن نخمر عجيين القطاير

اليوم الاثنين» ، ولكنها ارتعبت ، وبادرت تقول :

— كنت أقول له : هـذا ابننا ، ابننا ،

فاذهب ، وقدم له فدية . ولكن التيس العجوز

عاند . . .

— الى جهنم ! أي والد هو . ما زال حقيراً مثلما

كان طوال حياته .

انتصبت العجوز بقامتها في عتاب ، وقالت :

— أنت تتحدث عن أبيك ، يا عزيزي فاسيلي .

— عن أبي .

— عن أبيك الحميم .

— وأي أب حميم هو ؟

كان الموقف مجافياً للطبيعة وغير معقول . فقد

كان الموت قاب قوسين ، بينما أخذ ينشأ وضع

تافه فارغ لا لزوم له ، وراحست الكلمات تتكسر

مترقعة ، كما تقرقع قشور الجوز تدوسها الأرجل .

ان عدم التفاهم الذي كان قائماً كالجدار بين فاسيلي

وذويه طوال حياته أخذ الآن يطل أيضاً بعينيهِ

الصغيرتين البلهاوين الوحشيتين ، وبسببه وبسبب

اللوعة التي تملكته اخذ فاسيلي يصرخ وهو يكاد يبكي :

- ولكن افهموا انني سأسئق ! أسئق ! تفهمون ؟ أسئق ! صاحت العجوز :

- لو لم تتجاوز على الناس ، لما . . . يا ربي ! ما هذا ! لا يوجد مثله حتى بين الوحوش . أنا ابنكم ام لا ؟

واخذ يبكي ، وجلس في ركن . وراحت العجوز تبكي ايضاً في الركن الذي هي فيه . بكى الاثنان بدموع الوحدة الباردة التي لا تدفئ القلب ، عاجزين عن الانغمار في عاطفة الحب ، ولو للحظة واحدة ، والاحتماء بها عن فزع الموت المقبل . قالت الأم :

- اراك تتساءل هل أنا أمك ام لا . وتعاتب بينما شاب رأسي خلال هذه الأيام ، وصرت عجوزاً . وانت تقول ذلك وتعاتب .

- طيب ، ماما ، طيب . سامحيني . حان وقت انصرافك قبلي لي اخوتي .

- الست أمآ ؟ ألا تأخذني الشفقة عليك ؟ وانصرفت اخيراً . بكت بكاء مريراً ، ماسحة

الدموع بأطراف منديلها ، ولم تهتد الى الطريق . وكلما ابتعدت عن السجن اشتدت حرارة دموعها الفياضة ، عادت الى السجن ، ثم أضاعت طريقها هائمة في المدينة التي ولدت فيها ، وكبرت ،

وشاخت . ودخلت حديقة صغيرة خالية فيها بضعة اشجار هرمة محطمة . وجلست على مسطبة مبللة من الثلج الذائب . وفجأة أدركت أن ابنها سيسئق غداً .

نهضت العجوز مسرعة ، وارادت ان تركض ولكن رأسها دار بشدة فجأة ، فسقطت . كان الدرب قد تبلل من الجليد الذائب عليه ، وكان زلقاً . فلم تستطع العجوز النهوض من سقطتها . دارت ، ورفعت جسمها على كوعها ، وعلى ركبتيها ووقعت على جنبها من جديد . انزلق المنديل الأسود من رأسها كاشفاً عن رقعة صلع في قفاها وسط شعرها الأشيب المغبر . ولسبب ما خيل اليها أنها في حفلة عرس يتزوج فيها ابنها ، وقد شربت خمرأ ، وسكرت سكرأ شديداً .

- لا أقدر ، بحق الرب ، لا أقدر ! - كانت تمتنع هازة رأساً ، وتزحف على الجليد المتصلب الرطب ، بينما ظلوا يصبون لها الخمر ويصبون . وصار قلبها يوجعها من الضحك الخمر ، من كثرة الأكل ، من الرقص العارم ، ولكنهم مضوا يصبون لها الخمرة ، ويصبون .

٦ - الساعة تركض

كان في القلعة التي سجنها فيها الارهابيون برج ناقوس له ساعة قديمة . وكانت هذه الساعة تدق

كل ساعة ، كل نصف ساعة ، كل ربع ساعة دقاً مرهقاً ، شجياً ، يتلاشى في الأعالي ببطء . وكأنه صيحة بعيدة شاكية لطيور مهاجرة . في النهار كانت هذه الموسيقى الغريبة الشجية تضيق في ضجيج المدينة ، والشارع الكبير المزدحم بالناس والذي كان يمر قرب القلعة . كانت عربات الترام تهدر ، وحوافر الخيول تقرر الأرض والسيارات المتمايلة تزمز إلى مدى بعيد إلى الأمام والفلاحون يأتون من ضواحي المدينة لعيد المرافع على عرباتهم الخاصة بهذا العيد ، وأطواق الأجراس في رقاب خيولهم القصيرة القوائم تملأ الهواء بالجلجلة . وفي الجو أصوات تتكلم ثملة قليلاً ، فيها مرح أيام المرافع . وعلى هذا المجرى من تعدد الأصوات وتنافرهما أقبل ذوبان الجليد الربيعي البهيج ، والبرك العكرة على الأرصفة وأشجار الساحة التي غمقت فجأة . وكانت الريح الدافئة تهب من جهة البحر هبات عريضة رطبة . فكان يبدو وكأن في وسع العين أن ترى جزئيات الهواء الضئيلة الطرية تسري طائرة في وئام إلى الأبعاد الطليقة اللانهائية ، وتضحك في طيرانها .

في الليل هذا الشوارع في الضوء المتماثل للشموس الكهربائية الكبيرة . وعند ذلك كانت القلعة الهائلة التي لم يكن داخل جدرانها السميكة أي ضوء ، تذوب في الظلام والسكون منفصلة عن المدينة الحركة الحية أبداً بقاطع الصمت والجمود

والظلمة . عند ذلك كانت دقات الساعة تصير مسموعة ، وينشق النغم العجيب الغريب على الأرض ويتلاشى في الأعالي ببطء وشجى ثم ينبثق من جديد ، خادعاً السمع ويرن مستوحشاً ، خافتاً وينقطع ، ثم يرن من جديد . كانت الساعات والدقائق مثل قطرات زجاجية كبيرة شفافة تسقط من عل في طاسة معدنية ترن بخفوت . أو كطيور مهاجرة تمر طائرة .

لقد كان هذا الرنين وحده يدخل ليل نهار في الزنانات الانفرادية لهؤلاء المحكومين . ينفذ من خلال السقف ، وعبر سماكة الجدران الحجرية ، هائلاً السكون ، ويختفي غير ملحوظ ، ليعود من جديد ، بنفس الطريقة ، غير ملحوظ . وأحياناً كان المحكومون ينسونه ، ولا يسمعون ، وأحياناً كانوا ينتظرونه بلهفة ، راصدين حياتهم من دقة إلى أخرى ، وقد كفوا عن الوثوق الصمت . إن السجن منخصص للمجرمين ذوي الشأن ، وله قواعد خاصة شديدة صارمة ، صلبة ، مثل زاوية سور السجن ، وإذا كان في الصلابة نبل ، فهو ذلك السكون النبيل الأصم ، الميت المتوفز يلتقط الهسهسة والأنفاس . وفي هذا السكون المهيب المهتز برنين الدقائق الهاربة الشجي كان ثلاثة رجال وامرأتان مفصولين عن كل ما هو حي ، ينتظرون قدوم الليل ، والفجر ، والاعدام ، وكل واحد منهم يتهيأ له على طريقته الخاصة .

كانت تانيا كوفالتشوك ، طوال حياتها لا تفكر الا في الآخرين ، ولم تفكر في نفسها قط ، وكذلك هي الآن لم تكن تتألم الا من اجل الآخرين ، وتأخذها اللوعة الشديدة عليهم . وكانت لا تتصور الموت الا بقدر ما هو شيء مؤلم سيقع لسيرغي غولوفين ، وموسيا وللآخرين ، اما هي فلم يمكن ان يمسيها بشيء اطلاقاً .

وكنوع من المكافاة لنفسها على الصلابة الاضطرارية التي أبدتها في المحكمة ، بكت ساعات كاملة ذلك البكاء الذي تجيده العجائز اللواتي عرفن مصائب كثيرة ، او الشبان المتفجعون الطيبون جداً . ولعل التفكير في الاعدام لم يعذبها بقدر ما عذبها ظنها بأن سيرغي قد يكون بلا تبغ وفيرنر قد يكون محروماً من شايه القوي المعتاد - كان هذا بالاضافة الى انهما يواجهان الموت . ان الاعدام شيء محتوم ، بل وجانيبي ، بحيث لا يستحق التفكير ، ولكن الفظاعة التي لا تطاق كلياً هو أن يكون الانسان في السجن ، ويواجه الاعدام علاوة على ذلك ، وليس لديه تبغ يدخنه . واسترجعت الذكرى ، وراحت تستعيد التفاصيل الحبيبة للحياة المشتركة ، وجمدها الذعر ، وهي تتصور لقاء سيرغي مع والديه . وكانت تشفق على موسيا بشكل خاص . فقد

كان يتراعى لها منذ زمن ان موسيا تحب فيرنر ، ومع ان ذلك لم يكن صحيحاً البتة ، فقد كانت تمنى لهما كليهما الخير والصفاء . كانت موسيا قبل السجن ، تلبس خاتماً فضياً رسمت عليه جمجمة وعظم حولهما اكليل شوكي ، وكانت تانيا كوفالتشوك غالباً ما تنظر الى هذا الخاتم بآلم ، كما تنظر الى رمز الهلاك المحتوم ، وكانت بين الجد والهزل تتوسل الى موسيا ان تخلعه وتقول : - اهديه لي .

- لا ، يا عزيزتي تانيا ، لا اهديه . قريباً سيكون في اصبعك خاتم من نوع آخر . لقد كانوا هم بدورهم يتصورون لسبب ما ، انها ستتزوج حتماً وفي القريب العاجل وكان هذا يكدرها فهي لم ترد ان يكون لها اي زوج . وحين كانت تانيا تتذكر تلك الأحاديث شبه المازحة مع موسيا ، وأن موسيا الآن هالكة بالفعل تضيق انفاسها بالعبرات ، بشفقة الأمومة . وكلما كانت الساعة تدق ، كانت ترفع وجهها الباكي ، وتنصت لتعرف كيف يتلقى من في تلك الزنانات نداء الموت المرهق الملحاح هذا . بينما كانت موسيا سعيدة .

وضعت يديها وراء ظهرها في روب السجن الفضفاض غير المناسب لحجمها ، والذي يجعلها كرجل في غرابة ، كغلام مرهق في ثياب ليست ثيابه ، وراحت تسير بخطوات موزونة وبلا كلل .

كان ردنا الروب طويلين عليها ، وقد طوتهما ، حتى برزت ذراعاهما الرقيقتان شبيهة الطفولتين ، النخيفتان ، من الفتحتين العريضتين مثل عودي زهرتين طالعين من فتحة جرة خشنة الصنع قدرة . وكانت قماشة الروب الغليظة تحفحف وتحك رقبتها النخيلة ، وكانت موسيا من حين لآخر تحرر رقبتها بحركة من كلتا يديها ، وتلمس بأصابعها بحذر موضع احمرار الجلد واحتقانه .

كانت موسيا تذرع الزنانة تثبت أحقيتها أمام الناس ، منفعة محمرة . تثبت أحقيتها في هذا الموت المشرف الرائع الذي يعرضونها له ، والذي مات به قبلها أبطال ورجال حقيقيون ، أحقيتها فيه ، وهي الفتاة الصغيرة السن ، القليلة الشأن ، والتي فعلت الشيء القليل جداً ، أقل كثيراً مما يؤهلها لتكون بطلة . وباعتقاد لا يتزعزع في طيبة الناس ، وفي تجاوبهم وفي حبهم كانت تتصور كم سيقبلك الناس عليها الآن ، وكم سيتعذبون ويشفقون ، فكانت تشعر بالخجل الشديد من ذلك . وكأنها قامت بحماقة كبيرة وهي على المشنقة .

وكانت قد طلبت من محاميها في اللقاء الأخير أن يحصل لها على سم ، ولكنها فطنت فجأة . فماذا لو يتصور هو وآخرون أن ذلك من التباهي أو الجبن ، وأنها تريد أن تثير ضجة أكبر بدلاً من أن تموت بتواضع ودون أن تلاحظ . فأسرعت تضيف :

- لا ، على كل حال ، لا حاجة .

والآن لم تكن تريد الا شيئاً واحداً ، وهو أن توضح للناس ، وتثبت لهم أنها ليست بطلة على الإطلاق ، وأن الموت لا يخيفها أبداً ، فلا حاجة الى الشفقة عليها ، والاهتمام بها . توضح لهم أنها ليست ملومة اطلاقاً في أن يكتبوا لها هذه الميثة ، ويشيروا عليها هذه الضجة ، مع أنها فتاة صغيرة السن ، ضئيلة الشأن .

ومثل انسان متهم فعلاً كانت موسيا تبحث عن التبريرات ، وتحاول أن تجد أي شيء يعلو بتضحيتها ، ويعطيها قيمة حقيقية . فكانت تقول : - بالطبع أنا ما أزال شابة ، وكان في امكاني أن أعيش حياة طويلة ، ولكن . . .

ومثلما تهفت الشمعة في ألق الشمس الطالعة ، كان شبابها وحياتها يبدوان خافتين معتمين أمام عظمة واشراق ذلك الذي كان يشع متألّقاً في عقلها الضخم . لا محالة .

ولكن قد يكون ذلك الشيء المميز الذي تنطوي عليه نفسها - حباً لا حدود له ، استعداداً لا حد للاتيان بعمل ماثور ، استهانة لا حد لنفسها ؟ لأنها ليست ملومة بالفعل في أنها لم تعط كل ما كانت قادرة على القيام ، وتريد القيام به ، فقتلوها ، وهي على عتبة المعبد ، عند قدم مذبح القرايين .

ولكن اذا كان الأمر كذلك ، واذا كان الانسان لا يُقيّم فقط بمقدار ما فعله ، بل وبما كان يريد

ان يفعله ، انها عندئذ ستكون مستحقة لا كليـ
الشهيد .

وتفكر موسيا في خجل : «معقول ؟ معقول ان
اكون مستحقة ؟ مستحقة لان يبكي الناس عليّ ،
ويقلقون عليّ ، انا الصغيرة الضئيلة الشأن ؟»

ويتملكها فرح لا يوصف . ما من شك انها قد
قبلت بين ظهرانهم وهي الآن تدخل بشكل مشروع
في صفوف اولئك النورانيين الذين يرتقون الى
السماء العليا عبر نار الحرق ، والتعذيب ،
والاعدام . عالم الصفاء والطمانينة ، والسعادة
المطلقة المتألقة بهدوء . فلكانها خرجت عن الارض ،
اقتربت من شمس الحقيقة والحياة غير المرئية فهي
يخلق في نورها بلا جسد .

وتفكر موسيا بهناء : «وهذا موت . أي موت هذا ؟»

فلو اجتمع في زنازنتها العلماء والفلاسفة
والجلادون من أرجاء الدنيا ، وبسطوا امامها كتبهم
ومشارطهم ، وبلطاتهم ، وانشوطات مشانقهم وصاروا
يثبتون ان الموت موجود ، وان الانسان يموت
ويقتل ، وان الخلود لا وجود له ، فانهم سيثيرون
استغرابها ليس الا . فكيف لا وجود للخلود ، بينما
هي الآن خالدة ؟ وما وجه الكلام عن الخلود وعن
الموت اذا كانت هي الآن ميتة وخالدة ، حية في
موتها ، مثلما كانت حية في حياتها ؟

وحتى لو دخلوا عليها الزنازنة يحملون تابوتها

وفيه جثمانها المتفسخ مالمين الجو برائحة التعفن ،
وقالوا :

- انظري ! هذا انت !
لنظرت اليه واجابت :
- لا ، هذا ليس انا .

ولو صاروا يؤكدون لها ذلك مخوفين اياها
بمنظر التفسخ المريع فانها ستجيب مبتسمة :

- لا . هذا ما تتصورون انتم بانه انا ، ولكنه
ليس انا . فكيف يمكن اكونه انا التي تتحدثون
معها ؟

- ولكنك ستموتين ، وتصيرنه .
- لا ، لن اموت .

- سيشنقونك . هذه هي الانشودة .
- سيشنقونني ، ولكنني لن اموت . وكيف
سأموت اذا كنت الآن خالدة ؟

عند ذاك سيتراجع العلماء والفلاسفة والجلادون
قائلين بارتجاف :

- لا تمسوا هذا المكان . ان هذا المكان
مقدس .

وفيم كانت موسيا تفكر ايضاً ؟ كانت تفكر في
اشياء كثيرة ، لان خيط الحياة لم يكن ، بالنسبة

لها ، قد قطع بالموت ، فكان يمتد هادئاً مستويًا .

كانت تفكر في الرفاق ، البعيدين الذين يلوعهم
ويؤلمهم اعدام رفاقهم ، والقريبين الذين سيصعدون

المشنقة معها . وكان تستغرب من ارتعاب فاسيلي

بهذا الشكل ، بينما كان شجاعاً دائماً بل وكان في وسعه أن يتمازح مع الموت . ففي صباح الثلاثاء ، حين كانوا يضعون في حزامها وحزام فاسيلي العبوات الناسفة التي كان ستفجرهما أيضاً كانت يدا تانيا كوفالتشوك ترتجفان من القلق ، فاضطروا الى ابعادها ، بينما كان فاسيلي يتمازح اثناء تحزمه ويتحرك دون احتراس حتى ان فيرنر قال له بحدة : - لا لزوم للتبسط مع الموت .

فأي شيء يخيفه الآن ، ولكن هذا الخوف غير المفهوم كان غريباً على نفس موسيا ، حتى أنها سرعان ما كفت عن التفكير فيه ، والبحث عن سببه . وفجأة تملكته الرغبة في ان ترى سيرغى غولوفين ، وتضحك معه على شيء ما . كانت تفكر فتتأجج رغبتها اكثر في ان ترى فيرنر ، وتحاجبه على شيء ما . تتصوره يسير الى جنبها بمشيئته السديدة ، الموزونة ، يقرع الأرض بعقبه ، فتقول له :

- لا ، يا فيرنر ، يا عزيزي . كل هذا توافه ، لا يهم اطلاقاً انك قتلت ن أم لم تقتله . أنت ذكي ، ولكن تبدو وكأنك تلعب الشطرنج . تستولي على هذه القطعة ، وتلك القطعة ، وتربح . المهم هنا ، يا فيرنر ، اننا أنفسنا مستعدون لأن نموت . فاهم ؟ ماذا يتصور هؤلاء السادة ؟ لا شيء افطع من الموت ، فهم أنفسهم يخافونه ويخوفوننا به . بل اني لأود حتى ان أخرج لوحدي امام فوج كامل من الجنود ، وأبدا باطلاق النار عليهم من «البراوننج» .

ولا يهم ان اكون ، لوحدي ، وهم الوف ، ولكن لن أقتل أحداً . المهم ان يكونوا الوفاً . حين يقتل الألوف واحداً يعني ان المنتصر هو هذا الواحد . ذلك صحيح ، يا عزيزي ، يا فيرنر .

ولكن هذا أيضاً كان من الواضح بحيث انها لم ترد ان تستمر في التأكيد عليه ولعل فيرنر قد أدركه بنفسه الآن . او ربما مجرد ان افكارها لم ترد ان تتوقف على موضع واحد ، مثل طائر خفيف التحليق يرى الآفاق المترامية الأطراف ، ويطال كل الرحاب ، كل الأعماق ، كل فرحة السماء الزرقاء العنون الرقيقة . كانت الساعة تدق بلا انقطاع ، وتهز السكون المطبق ، وكانت الأفكار تنصب في هذا الصوت المتناغم الرائع في بعده ، وتأخذ أيضاً بالرنين ، وتصير الصور المنزلة المنسابة موسيقى . وكان موسيا كانت تقطع طريقاً عريضاً مستويًا في ليلة داجية هادئة ، مستقلة عربة تهددها نوابضها اللينة ، وترن الأجراس . ولت جميع المخاوف والظنون ، وذاب الجسد المتعب في الظلام ، وراح الذهن المتعب الفرح يخلق الصور الساطعة بهدوء ، ويتلذذ بألوانها وسكينتها الهادئة . تذكرت موسيا رفاقها الثلاثة الذين شنقوا قبل مدة ليست بالطويلة ، فطلعت وجوههم صافية بهيجة ، واكثر قرباً من وجوه الذين ما يزالون أحياء . بهذا الشكل يفكر انسان في الصباح مبتهجاً في بيت اصدقائه الذي سيدخله في المساء ، والسلام على شفتيه الباسمتين .

تعبت موسيياً كثيراً من المشي . فارتمت على
السرير بحذر ومضت تحلم بعينين مغمضتين قليلاً .
كانت الساعة تدق بلا انقطاع هازة الصمت المطبق ،
وكانت الصور المشرقة الصداحة تنساب وادعة في
شواطئها الرنانة . لقد كانت موسيياً تفكر :

«أهذا موت ، حقاً ؟ أوه ، يا ربّي ، ما أروعه !
أم هذا حياة ؟ لا أعرف ، لا أعرف . ساري
واسمع» .

كانت لها حاسة سمع موسيقية زادهـا السكون
رهافة فراحت تولد على خلفيته لوحات موسيقية كاملة
من جزيئات الواقع الشحيحة ، وخطوات الحارس في
الممر ، ورنين الساعة ، وهههفهه الريح على السقف
الحديدي ، وصريف المصباح . في البداية كانت
موسيا تخافها ، وتبعدها عنها ، كهلوسات مرضية ،
وبعد ذلك أدركت أنها سليمة وليست مريضة بشيء
فأخذت تستسلم لها هادئة .

أما الآن فسمعت بوضوح وجلاء تامين إيقاعات
موسيقى عسكرية . فتحت عينين مندهشة ، ورفعت
رأسها . كان الليل يخيم خلف النافذة ، والساعة
تلق . «يعني مرة أخرى !» - فكرت بهدوء ،
وأغمضت عينيها . وما إن فعلت حتى أخذت الموسيقى
تعزف من جديد . كانت تسمع بوضوح خطوات
الجنود ، فوج كامل منهم وهم يخرجون من وراء ركن
المبنى إلى اليسار ، ويمرون بنافذتها . كانت أقدامهم
تقرع الأرض المتجمدة متناسقة : واحد اثنين !

واحد ، اثنين ! بل كانت تسمع صريف الجلد على
الجزمات أحياناً ، وفجأة ، تنزلق قدم ، فيسحبها
صاحبها وتقرب الموسيقى أكثر وتعزف «لحناً
عسكرياً غير مألوف كلياً ، ولكنه عال جداً واحتفالي
طروب . والظاهر أنهم يحتفلون بعيد في القلعة .

وهي الفرقة الموسيقية تحاذي النافذة ، فتمتلي الزنانة كلها بنغمات ايقاعية مرحة متعددة الاصوات متناسقة . وينشز بوق كبير نحاسي ، يتأخر تارة ، ويتقدم تارة أخرى بشكل مضحك . وترى موسييا الجندي حامل هذا البوق ، وسحنته المجاهدة وتضحك .

وتبتعد الموسيقى أكثر فأكثر ، وتخفت الخطوات :
واحد ، اثنين ، واحد ، اثنين ! والموسيقى من بعيد
أحلى وأمرح . ويرتفع صوت البوق النحاسي مرة ثم
أخرى عاليةً ناشزاً بهيجاً ، ويخمد كل شيء وتدق
ساعة البرج من جديد بطيئة شجية ، لا تكاد تهنز
الهواء . وتقول موسيا في سرها بشيء من الحزن :
« راحت ! » وأسفت على اختفاء هذه النغمات المرحية
الضاحكة ، بل وأسفت على اختفاء الجنود لأن هؤلاء
المثابرين بأبواقهم النحاسية وجزماتهم الصارفة
يختلفون تماماً عن الذين كانت تود إطلاق النار عليهم
من مسدسها .

- مرة أخرى ! - ترجو برقة . ويأتى هؤلاء .
ينحنون عليها يحيطونها بغمامة شفاقة ، ويرفعونها
الى فوق ، الى حيث تنطلق الطيور المهاجرة ، وتصيح

مبشرة . من يمين وشمال ، من فوق ، ومن تحت .
تصيح مبشرة . تنادي ، تبشر ، تعلن عن مقدمها الى
البعيد . ترفرف بأجنحتها العريضة ، والظلام يعيقها ،
مثلما يعيقها النور . والمدينة المشعة زرقة تنعكس
من الأسفل على صدورها الطالعة ، الشاقة للهواء .
وقلب موسيا يدق أكثر انتظاماً فأكثر ، وانفاسها
أهدأ ، فأهدأ . وتغفو موسيا ، والوجه متعب
شاحب ، وتحت عينيها دائرتان ، وذراعاها نحيلتان
رقيقتان مثل ذراعي فتاة صغيرة ، وعلى شفثيها
ابتسامة . غداً ، حين تطلع الشمس ، ستشوه هذا
الوجه الانساني تقطبية لانسانية وينتفخ الدماغ
بالدم ، وتخرج العينان الزجاجيتان من محجريهما .
ولكنها اليوم تنام بهدوء ، وتبتسم في خلودها
العظيم .

غفت موسيا .

ولكن الحياة في السجن تسير في مجراها ، صماء
وحساسة عمياء ومبصرة ، مثل انذار أبدي الى أقصى
حد . أقدام تسير في مكان ما ، وتهامس في مكان
آخر . وترباس بندقيّة في مكان ثالث . وشخص
صاح ، أو ربما لم يصح بل ذاك مجرد وهم وخداع
سمع .

ها هي كوة المراقبة في الباب قد انفتحت بلا
صوت . - ويلوح وجهه داكن مشورب في الفتحة .
وتبخلق عينان في موسيا بدهشة ولوقت طويل -
ويغفي صامتاً ، كما ظهر .

ساعة البرج تدق وتهزج ، لوقت طويل ، وبشكل
موجع . وكأن الساعات المتعبة تدب على جبل شاهق
في منتصف الليل ، ويمسي المرتقى أصعب عليها
وأشق . تنزلق ، تتخلخل ، وتهوي الى الأسفل
بأنين ، ومن الأسفل تدب الساعات بعذاب الى ذروتها
السوداء .

أقدام تسير في مكان ما ، وتهامس في مكان آخر .
وما هم يشدون الخيول الى العربية السوداء غير
المزودة بمصابيح .

٨ - هناك موت وهناك حياة

لم يفكر سيرغي غولوفين في الموت ، وكأنه شيء
خارج عنه ، ولا يمسه إطلاقاً . كان شاباً قوياً
سليماً ، مرحاً ، وهيب تلك البشاشة الرصينة
العافية التي تمتص كل فكرة أو عاطفة مضرّة بالحياة ،
فتتلاشى في كيانه بسرعة ودون أن تخلف أثراً . مثلما
كانت الحزوز والجراح والوخزات التي يصاب بها
تندمل بسرعة ، كان كل ما يرهق نفسه ويجرحها يطفح
على السطح ، ويزول . وكان في كل فعل ، أو حتى
في تسلية ، سواء أكان ذلك تصويراً ، أو دراجة
هوائية أو أعداداً لعمل ارهابي يتخذ نفس الجدية
الهائلة البشوش . ذلك لأن كل شيء في الحياة بهيج ،
كل شيء فيها مهم ، كل شيء يجب أن يؤدي بشكل
جيد .

وكان يؤدي كل شيء بشكل جيد ، كان يوجه الشراع ببراعة ويصوب من المسدس بشكل جيد . وكان راسخاً في صداقته ، مثلما هو راسخ في حبه ، يؤمن بـ «كلمة شرف» ايمان الغلاة المتعصبين وكان رفاقه يضحكون منه يعني اذا اعطى المخبر ، المسخ ، الجاسوس المتاصل كلمة شرف بأنه ليس مخبراً ، سيصدق به سيرغي ، ويصافحه كرفيق . لقد كانت له نقیصة واحدة : وثوقه بأنه يغني بشكل جيد ، بينما كان ، وهو الذي كان يفتقر الى حاسة سمع مهما كانت ضئيلة ، يغني بشكل منفر ، وينشز صوته حتى في الاناشيد الثورية ، ويتكدر حين يضحكون منه . وكان يقول بجدية وانزعاج :

- اما أنكم جميعاً حمير ، واما أنا حمار .

وكان الجميع يستغرقون في تفكير قصير بنفس الجدية ، ويقولون في حسم :

- أنت الحمار ، وصوتك يدل على ذلك .

ولكنهم ، كما يحدث أحياناً مع الطيبين من الناس ، كانوا يحبونه على هذه النقیصة ربما أكثر على فضائله .

كان لا يهاب الموت ، ولا يفكر فيه الى حد أنه في صبيحة ذلك اليوم المشؤوم ، وقبل خروجه من شقة تانيا كوفالتشوك كان الوحيد الذي تناول فطوره ، حسب الاصول بشهية ، واحتسى قدحين من الشاي المخلوط بالحليب مناصفة ، واكل كعكة كاملة بسعر

خمسة كوبيكات . وبعد ذلك نظر بأسى الى خبز فيرنر ، وهو على حاله لم يمس ، وقال :

ولماذا لم تأكل ؟ كل ، يجب ان تقوي نفسك . - لا اشتهي .

- طيب ، سأكل انا . ممكن ؟

- ان لك شهية هائلة ، يا سيريوجا .

وبدلاً من أن يرد سيرغي ، راح يغني بصوت ناشز ، وفمه مملوء :

زوابع العدا ترمجر فوقنا . . .

بعد القبض عليه أصابه بعض الحزن . فقد انقلبت الامور منقلباً سيئاً ، وسقطوا في الفخ ، ولكنه فكر : «والآن هناك شيء آخر يجب ان يُنجز بشكل جيد وهو الموت» . واستخفه طرب . والغريب جداً انه بدأ في الصباح الثاني من حجزه في القلعة باداء التمارين الرياضية وفق نظام عقلائي بشكل غير مالوف وضعه الماني يدعو ميولر كان قد استهواه . فكان يتعري ويؤدي كل التمارين الثمانية عشرة التي يتضمنها هذا النظام ، والحارس يراقبه بدهشة هالعة . وكان سيرغي يتلذذ بمراقبة الحارس له ، وباندھاشه منه ، على ما يبدو ، يتلذذ بذلك باعتباره داعية لنظام ميولر هذا ، فكان لا يفتأ يقول للعين المبھلة من فتحة المراقبة رغم علمه بأنه لن يحصل على جواب :

- تقوية البدن شيء جيد ، يا أخ ، حبذا لو أدخلتم ذلك في فوجكم .
صاح باقناع ولطافة حتى لا يخيف الجندي . وهو لا يشك بأن الجندي يعتبره مجنوناً بالفعل .
ولكن رعب الموت أخذ يتسرب إليه تدريجياً ، وعلى دفعات وكان شخصاً يمسك ، يقبض يد على قلبه من الأسفل وتدفعه بكل قوتها . وكان ذلك موجعاً أكثر مما هو مخيف . وبعد ذلك يختفي هذا الاحساس ، ثم يعود من جديد بعد بضع ساعات ، وفي كل مرة يعود بها يصير أطول أمداً ، وأشد قوة . حتى صار يتخذ بوضوح معالم مغبشة لرعب كبير بل وغير محتمل .
وفكر سيرغي بدهشة : «معقول أنا أخاف ؟ أوه ، سخافات !»
لم يكن هو الخائف ، بل جسده الفتى القوي الضليع ، الذي لم تستطع خداعه تمارين الألماني ميولر ، ولا التدليكات الباردة . وكلما صار هذا الجسد أقوى وأنضر بعد التدليك بالماء البارد كانت أحاسيس الرعب الخاطف تصير أكثر حدة وأبعد عن التحمل . في تلك اللحظات بالذات ، حين كان يحس ، وهو طليق ، بارتفاع ملحوظ في البشاشة والقوة كان هذا الرعب الحاد ، وكالغريب عليه ، يظهر في الصباح بعد النوم العميق ، والتمارين الرياضية . وقد فطن سيرغي إليه ، وفكر مع نفسه :
«حماقة منك ، يا أخ سيرغي . فانت لكي تسهل

على جسدك موته يجب أن تضعفه ، لا أن تقويه . انها حماقة منك !»
وترك التمارين الرياضية والتدليك بالماء البارد وصاح بالجندي ايضاحاً له وتبريراً :
- «لا يهملك تركي التمارين . فانها جيدة بالفعل ، يا أخ . سوى أنها لا تصلح للمذين ينتظرهم الشنق ، ولكنها مفيدة جداً لمن عداهم جميعاً» .
وبالفعل أحس وكان ثقلاً انزاح عن كامله . بل وحاول أن يقلل من أكله ليزداد ضعفاً ، ولكن شهيته رغم حرمانه من الهواء الطلق والتمارين الرياضية كانت طاغية ، وكان من الصعب عليه أن يقهرها ، فكان يأكل كل ما يجلب إليه . وعند ذاك عمد الى ان يسكب نصف الحساء في سطل الماء القذر قبل ان يبدأ بتناول الطعام . وأحس بشيء من الجدوى في ذلك . فقد استولى عليه نعاس خامل ، واسترخاء . هدد جسده قائلاً :
- سأريك ! - بينما راح يمرر يده بعزن على عضلاته الذابلة المسترخية .
ولكن جسده سرعان ما ألف هذا النظام ايضاً ، وعاد الرعب من الموت مجدداً - وان لم يكن بتلك الحدة والتلطي ، ولكنه أكثر ازعاجاً كالتقزز . وفكر سيرغي : «هذا لأنهم يطيلون الوقت . لطيف لو أقضي في النوم كل الوقت ما قبل الاعدام» ، وحاول ان ينام أطول وقت ممكن . ونجح في البداية ، ولكن أرقاً أصابه فيما بعد ، أما لأنه نام أكثر من

اللازم ، أو بسبب آخر . ومع الأرق غزته أفكار حادة
ثاقبة ، ومعها الحنين الى الحياة . واخذ يفكر في
الموت : «معقول انني اخاف من هذا الشيطان ؟ شيء
عظيم مهما قال المتشائمون فيه . وماذا لو شئق
متشائم ؟ آه ، أسف على الحياة أسف شديد . ولماذا
نمت لي لحية ؟ من قبل لم تنم ، وما هي قد نمت .
فما الفائدة ؟» راح يهز رأسه أسى ، ويزفر زفرات
طويلة عميقة . صمت ، ثم زفرة طويلة عميقة ، ثم
صمت قصير ، تعقبه زفرة طويلة عميقة .

واستمرت الحال كذلك حتى المحاكمة ، حتى لقائه
الآخر الرهيب مع والديه العجوزين . وحين استيقظ
في زنزائنه يخامرهم وعي نابض بأن كل ما يربطه
بالحياة قد انتهى ، ولم يبق أمامه غير بضع ساعات
من الانتظار في الخواء والموت أحس بشيء من الغرابة .
وكانما قد عرّى ، عرّى بشكل غير مألوف ، لم
يخلعوا عنه ثيابه فقط ، بل جردوه من الشمس والهواء
والضجيج والنور ، والأفعال ، والأقوال . لم ، يحل
الموت بعد ، ولكن لا وجود للحياة أيضاً ، بل شيء
جديد ، مبهم بشكل مذهل ، ليس مجرداً من المعنى
تماماً ، كما أنه ليس ذا معنى ، ولكنه عميق ،
غامض ، لانساني ، بحيث لا يمكن اكتشافه .

- عليك اللعنة ، أيها الشيطان ! - تفوه
سيرغي في دهشة موجهة . - ولكن أي شيء أنت ؟
وهل هذا أنا ؟ أنا . . . كيف أنا ؟ وتفحص نفسه
بعناية ، واهتمام ، ابتداء من نعلي السجن الكبيرين ،

وانتهاء ببطنه والروب بارز عليه . جال في الزنزانة ،
وقد بسط ذراعيه ، ومضى يتفحص نفسه ، مثل امرأة
في فستان جديد طويل عليها . أدار رأسه ، ودار .
ان هذا الشيء الغريب لسبب ما ، هو ذاته ، سيرغي
غولوفين ، وهذا الشيء لن يكون له وجود .
وصار كل شيء غريباً .

جرب السير في الزنزانة ، ووجد في سيره
غرابة . جرب الجلوس ووجد في جلوسه غرابة .
وجرب أن يشرب ماء ، واستغرب من شربه الماء ،
وابتلاعه ، ومسكه القدح ، ومن الأصابع ، ومن
امساك هذا الأصابع بالقدح . تنحنح ، واخذ يسعل ،
وفكر ، وهو يسعل : «كم غريب انني أسعل» .
وفكر سيرغي والبرودة تسري في أوصاله : «هل
انا في الطريق الى الجنون ! هذا هو الذي يعوزني ،
عليهم اللعنة !»

مسح جبينه بيده ، ولكن حتى هذا بدا غريباً
له . عندئذ حبس أنفاسه ، وسقط في جمود طويل بدا
وكأنه استغرق ساعات ، طارداً كل فكرة من ذهنه ،
كابتاً نفسه العالي ، متحاشياً أية حركة ، لأن أية
فكرة ستكون جنونية ، وأية حركة ستكون مخبولة .
واختفى الزمان ، وكأنه تحول الى مكان ، شفاف ، لا
هواء فيه ، الى ساحة هائلة فيها كل شيء : الأرض
والحياة ، والناس ، وكل ذلك مرئي بنظرة واحدة ،
مرئي الى النهاية ، الى الحافة المملعة بالغموض -

الموت . ولم يكن يتعذب من رؤيته للموت ، بل لأنه كان يرى الموت والحياة في آن واحد . ان يداً تدنس القدسية أزاحت الحجاب الذي كان يخفي منذ القدم سر الحياة ، وسر الموت ، فلم يعودا سرين ، ولكنهم لم يصيرا مفهومين ، كحقيقة مكتوبة بلغة غير مرئية . ولم تكن له من المفاهيم في عقله الانساني ، ولا الكلمات في لغته الانسانية ما كان من الممكن ان يستوعب رؤياه وعبارة «يرعيني» لم تكن تتردد في نفسه الا لعدم وجود عبارة أخرى غيرها ، ولم يكن ، ولا يمكن ان يكون ثمة مفهوم يناسب هذه الحالة الجديدة للانسانية . وهذا ما سيحصل لانسان لو يرى الرب بغتة وهو ما يزال في حدود عقله الانساني وتجربته ومشاعره ، فسيراه ولا يفهم ، وان كان يعرف ان من يراه يسمى الرب ، وستخضه آلام طاغية لعدم فهم طاغ .

- هكذا خذ لك ميولر ! - قال فجأة بصوت عال وفي قناعة باللغة وهز رأسه . واخذ يضحك بمرح وصدق وبتحول مفاجئ في الشعور ، تجيده النفس الانسانية خير اجادة :

- آه ، منك يا ميولر ! آه منك ، يا عزيزي ميولر ! آه منك ، يا صاحبي الالماني الرائع ! ومع ذلك فأنك محق ، يا ميولر ، بينما أنا جحش ، يا أخى ميولر .

وطاف في الحجرة بسرعة ولعدة مرات ، ومن جديد اندمش الجندي الذي كان يراقبه من الفتحة اندمهاشاً

عظيماً ، حين رآه يتعري بسرعة ، ويقوم بكل التمارين الثمانية عشرة بمرح وعناية بالغة . ويبسط جسمه الفتى الناحل قليلاً ويطويه ، ويقرفص ، ويستنشق الهواء ويزفره ، واقفاً على أطراف أصابعه ، ويبسط رجله وذراعيه . وكان مع كل تمرين يقول بتلنذ :

- هكذا ! ذلك هو الصحيح ، يا أخ ميولر ! احمر خداه ، وطلعت من مسامه قطرات عرق حار لذيد ، ودق قلبه بقوة واتساق .

وكان يقول ، وهو ينفخ صدره بقوة حتى كانت ضلوعه تبرز بوضوح من تحت جلده الرقيق المشدود :

- الحقيقة ، يا ميولر ، ان هناك تمريناً آخر ، التمرين التاسع عشر ، وهو التعليق من الرقبة في وضع ساكن . وهو ما يسمى الشنق . هل تفهم ، يا ميولر ؟ يأخذون انساناً حياً ، سيرغي غولوفين مثلاً ، ويشدونه بكفن مثل دمية ، ويعلقونه من رقبتهم حتى يموت ، انها حماقة ، يا ميولر ، ولكن لا حيلة لنا معها . لا بد .

انقلب على جنبه الأيمن ، وكرر :
- لا بد ، يا أخ ميولر .

٩ - وحدة مريضة

وعلى دقات تلك الساعة ذاتها كان فاسيلي كاشيرين يقضي بقية حياته في فزع ووحشة تفصله

عن سيرغي وموسيا بضع زنانات فارغة ، ولكنه في وحدة شديدة ، كما لو أن الكون كله ليس فيه أحد سواه .

كان يدور في الزنانة في ارتعاش ويأس مثل رجل يعاني من وجع ممض في أسنانه عرقاً ، وقميصه المبلل ملتصق على جسده ، وشعره الأجعد سابقاً منقوش . كان يجلس قليلاً ، ثم يدور من جديد ، ضاغطاً جبينه على الجدار ، ويتوقف ، ويبحث عن شيء ما بعينه ، وكأنما يبحث عن دواء . وقد تغير كثيراً حتى لكانما كان له وجهان مختلفان ، غاب أحدهما وهو وجهه السابق الفتى ، وحل مكانه وجه رهيب خرج من الظلام .

وكان رعب الموت قد داهمه رأساً ، واستولى عليه كلية وبشكل قاهر . كان قد ألف صحبة الموت منذ الصباح ، حين كان ماضياً الى موت محقق ، حتى اذا حل المساء ، وهو في زناناته الانفرادية كان موج الرعب الجنوني قد لفه وطفى عليه . عندما كان يتصدى للخطر والموت بمحض ارادته ، ويأخذ بيديه ناصية موته رغم مظهره الرهيب ، كان يحس بطلاقة ، وحتى ببهجة وكان يفرق خوفه الضئيل الهش المنكمش في شعوره بالحرية المطلقة ، والاثبات الجريء الصلب لارادته الجسور الشجاعة فلا يُبقي له على أثر . وحين تحزّم بالعبوات الناسفة بدا وكأنه تحول هو نفسه الى عبوة ناسفة ، ودمج نفسه في عقلية الديناميت القاسية ، واستخلص لنفسه قوة

الديناميت النارية المميّنة . وحين كان يسير في الشارع بين الغادين والرائحين من الناس ، المشغولين بشؤونهم الخاصة ، والمتجنبين خيول العربات والترام بعجالة ، بدا وكأنه قادم من عالم آخر غير منظور لا يعرف الناس فيه الموت ولا الخوف .

وفجأة يحدث هذا التحول الحاد المفاجئ* الوحشي الصاعق ، دفعة واحدة . ما عاد يذهب الى حيث يشاء ، بل يساق الى حيث يشاء الآخرون . ولا يختار الأماكن ، بل يوضع في قفص حجري ، ويغلق عليه بقفل ، وكأنه شيء من الأشياء . وما عاد قادراً على أن يختار بحرية بين الحياة والموت ، كما يفعل الناس ، بل يُسلم الى موت محتوم محقق . وفي لحظة واحدة ، يصير ، وهو الذي كان تجسيدا للارادة والحياة والقوة ، صورة بائسة للعجز الوحيد في العالم ، ويتحول الى حيوان ينتظر الذبح ، الى شيء اصم ابكم يمكن أن يُنقل ، يُحرق ، يُهشم . لا تسمع كلماته مهما قال ، واذا صرخ حشرت خرقة في فمه . وسواء أسار على رجله ، فانه سيساق ويشنق ، واذا قاوم ، ولبط ، ورقد على الأرض ، فانهم سيتغلبون عليه ، ويرفعونه ويشدون وثاقه ، ويرفعونه الى المشنقة مشدود الوثاق . ولأن هذا العمل الآلي يُنفّذه فيه بشر مثله فقد كان هذا يكسب البشر شكلاً جديداً غير مألوف همجياً ، أشباح ، شيء خادع لا يظهر الا لغاية ما ، او شكل دمي آلية بنوا بضع . يأخذ

الانسان ، ويتشبث به ، ويسوقه وتعلقه ، وتجبر من
رجليه . وتقطع الجبل وتطرح الانسان ارضاً وتحمله ،
وتدفنه .

ومنذ اليوم الاول في السجن تحول الناس والحياة
بالنسبة له الى عالم من الاشباح والدمى الآلية لا حد
لفظاعته . وكان يحاول ، والرعب يكاد يجنسه ، ان
يتصور ان للناس السنة يتكلمون بها ، ولكنه عجز
عن تصور ذلك . فقد كانوا يبدوون خرساً . وحاول
ان يتذكر كلامهم ، معانى الكلمات التي يستعملونها
عند الاختلاط ، ولم يستطع . فالافواه تنفتح ،
ويصدر صوت ما ، ثم يتفرقون ، منقلبين أقدامهم ،
ولا يبقى شيء .

كان يشعر شعور انسان كان وحيداً في بيته
ليلاً ، فرأى الحياة تدب في كل الأشياء حوله
وتتحرك ، وتصير لها عليه ، وهو الانسان ، سلطة
لا حد لها . وفجأة تخيل انها تحاكمه : الدولاب
والكرسي ومنضدة الكتابة ، والأريكة تحاكمه . وانه
يصرخ ويتقلب ويتوسل ، ويتنجد ، وهي تتحدث
فيما بينها بلغتها ، ثم أمرت بشنقه . الدولاب
والكرسي ومنضدة الكتابة والأريكة أمرت بشنقه .
والأشياء الأخرى تنظر الى ذلك .

وبدا لفاسيلي كاشيرين المحكوم بالاعدام شنقاً
ان كل شيء لعب : زنزانته ، والباب بفتحة
المراقبة ، ورنين الساعة المنصوبة ، والقلعة
المصبوبة بعناية ، ولا سيما تلك الدمية الآلية

حاملة البندقية التي تطرق الممر بقدميها والدمى
الأخرى التي تطل عليه من فتحة المراقبة لتخيفه ،
وتقدم له الطعام صامتة . وما كان يعانيه لم يكن رعباً
من الموت . فقد كان يريد التعجيل بالموت . كان
الموت مع كل غموضه العريق وتعذره على الادراك
اقرب الى العقل من هذا العالم الذي تغير بهذه
الصورة الوحشية الخيالية . وفضلاً عن ذلك فقد بدا
وكان الموت قد يتضاءل تماماً في هذا العالم المجنون ،
عالم الاشباح والدمى ، فاقداً معناه العظيم الملعن ،
وقد تحول ايضاً الى شيء آلي ، ومخيف لهذا السبب
وحده . وهذه الاشباح والدمى تأخذ الانسان ،
وتتشبث به ، وتسوقه ، وتعلقه وتجبره من رجليه ،
وتقطع الجبل ، وتطرحه ارضاً ، وتحمله ، وتدفعه .
ويزول الانسان من الدنيا .

في المحكمة أعاد كاشيرين الى صوابه قرب رفاقه
منه ، فقد رأى الناس من جديد في لحظة خاطفة .
رأهم يجلسون ، ويحاكمونه ، ويتكلمون شيئاً ما
بلغه انسانية ، ويصغون ، وكأنهم يفهمون . ولكن
عند مقابلته لأمه داهمه رعب انسان اخذ في فقدان
عقله ، وهو يدرك ذلك ، فشعر شعوراً حاداً بأن
هذه المرأة العجوز ذات المنديل الأسود ما هي الا
دمية آلية مصنوعة بمهارة ، مثل تلك الدمى التي
تنطق : «با - با» ، «ما - ما» ، ولكنها أحسن صنعاً .
حاول ان يتحدث معها ، بينما كان يفكر مع نفسه

مرتعداً : «يا لهي ! ولكنها دمية . دمية أم . بينما تلك دمية جندي ، وفي البيت هناك دمية أب . وهذا دمية فاسيلي كاشيرين» .

وبدا وكأنما لم يبق الا القليل حتى يسمع دمدمة الآلة الداخلية ، وصريف العجلات غير المزيّنة . وحين أخذت أمه تبكي ، تراءى من جديد شيء انساني لحظة خاطفة ، ولكنه اختفى بعد كلماتها الاولى ، وصار ينظر بفضول وفزع الى الماء الذي يسيل من عيني الدمية .

وفيما بعد ، في الزنزانة ، حين صار الفزع لا يحتمل حاول فاسيلي كاشيرين ان يصلي . لم يكن قد تبقى الا القليل من كل ما كان يحيط بحياته تحت عباءة الدين في بيت أبيه التاجر ، ولم يكن هناك ايمان . ولكنه حينذاك ، ولربما في طفولته الباكرة ، سمع ثلاث كلمات ، أصابته بقلق واجف ، وبعد ذلك بقيت طيلة حياته تتضوّع شعراً هادئاً . وهذه الكلمات :

«مسرة جميع المفجوعين» .

أحياناً ، في اللحظات الصعبة ، كان يهمس في سره ، دون صلاة وبلا وعي محدد «مسرة جميع المفجوعين» فيحس بانفراج فجأة . ويجب ان يزور شخصاً عزيزاً ، ويتشكى بهدوء :

— حياتنا . . . ولكن أهذه حياة ! آه ، يا عزيزتي ، أهذه حياة !

وبعد ذلك ينقلب الامر مضحكاً فجأة ، وتتملكه

الرغبة في أن يجعد شعره ، ويدفع ركبته الى الخارج ، ويطرح صدره للضرب : تفضل ، اضرب !

ولم يقل لأحد ، ولا حتى لأقرب رفاقه اليه ، عن جملته «مسرة جميع المفجوعين» ، وحتى نفسه بدا وكأنه لا يعرفها ، لاختفائها عميقاً في حنايا نفسه . ولم يكن يتذكر كثيراً واذا تذكرها فبحذر .

والآن ، حين كان ذعر السر المستعصي المترائي له رأي العيان يغطيه حتى رأسه ، كما يغطي ماء الفيضان صفصافة صغيرة عند الشاطئ ، رغب في أن يصلي . أراد أن يركع ، ولكنه خجل من الجندي ، فطوى ذراعيه على صدره ، وهمس :

— مسرة جميع المفجوعين ، اقبلي على ، اسندي فاسكا كاشيرين .

منذ زمن بعيد ، حين كان في السنة الاولى في الجامعة ، ويعاقر الخمرة من حين لآخر ايضاً ، وقبل أن يتعارف مع فيرنر . وينضم الى الجمعية كان يسمى نفسه تباهياً وحسرة بهذه الصيغة التجببية «فاسكا كاشيرين» والآن ايضاً لم يعرف لماذا أراد ان يتسمى بهذه الصيغة ايضاً . ولكن الكلمات «مسرة جميع المفجوعين» رنت ميتة وبلا صدى .

وتماوج شيء ، وكان صورة شخص مفجوعة هادئة سرت في البعيد ، وانطفأت بهدوء ، دون أن تبصر سر ساعة الموت . دقت الساعة في برج الناقوس . وقعقع الجندي في الممر بسيف أكثر منه بيندقية ، وتواصل الرنين متقطعاً .

- يا مسرة كل المفجوعين ! وأنت ساكنة ! لا تريد أن تقولي شيئاً لفاسكا كاشيرين ؟
 راح يبتسم بحنان وينتظر . وكان الفراغ في داخله وفيما حوله . واختفت الصورة المفجوعة الهادئة . ولاحت في ذاكرته شموع محترقة بعذاب ، وقس في مسوحه ، وايقونة مرسومة على حائط . والأب يحني جذعه ويبسط في ركعات متتالية ، وهو ينظر بطرف عينه الى فاسكا ليرى هل يصلي أم يعبت عبث الأطفال . وازداد ذعره أكثر مما قبل الصلاة .
 اختفى كل شيء .
 كان الجنون يزحف مرهقاً ، والوعي يخفت كحجرات نار مبعثرة خافتة ، والبرودة تسري في جسده سريانها في جثة انسان مات لتوه والدفع لم يغادر قلبه بعد ، بينما تصلبت ذراعه ورجلاه .
 ومرة أخرى قالت الفكرة المنطقية ، بعد أن توهجت دموية ، أنه ، أي فاسكا كاشيرين ، قد يفقد عقله ، ويقاسي عذابات لم توضع لها أسماء ، وسيبلغ حداً من الألم والتباريح لم يصل اليه من قبل أي كائن حي ، وأن له أن يضرب رأسه في الحائط ، وأن يفقس عينيه بأصابعه ، ويتكلم ويصرخ بما يشاء ، ويؤكد ذارفاً الدموع بأنه لا يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك . ولا شيء . سيكون لاشيء .
 وحل اللاشيء . استمرت الرجلان بما لهما من وعي وحياة ، في السير وحمل الجسد المرتجف المبلل . واجهدت اليدان بما لهما من وعي ، جاهدتا عبثاً أن

تلما الروب الذي انحسر عن صدره ، وتغطيا الجسد المبلل المرتجف . وكان الجسد يرتجف مقشعراً ، والعينان تنظران . وكان ذلك ما يشبه السكينة . ولكن لحظة من الفزع الوحشي ظهرت ايضاً ، حين دخلوا عليه في الزلزلة . مجرد أنه رأى الناس يدخلون حتى دون أن يفكر في ذلك يعني أن وقت الذهاب الى المشنقة قد حان ، وارتعب ارتعاباً طفولياً تقريباً .

- لا أريد ! لا أريد ! - همس غير مسموع بشفتين صائرتين الى الموت ، وابتعد بهدوء الى عمق الزلزلة ، مثلما في الطفولة ، حين يرفع أبوه يده عليه .
 - يجب أن نذهب .

يقولون ، ويدورون ، ويقدمون شيئاً ، أغمض عينيه ، ترنح ، وأخذ يتهاى بتناقل . ولعل الوعي أخذ يعود اليه ، فجأة طلب من الموظف سيكارا . فتلطف هذا فتح عليه سيكائر فضية مزينة برسم .

١٠ - الجدران تتداعى

كان المجهول المسمى فيرنر رجلاً قد تعب من الحياة والنضال . وقد مرّ حين من الزمن كان فيه يحب الحياة حباً جمّاً ، ويستمتع بالمرسح ، والأدب ، والاختلاط بالناس ، وقد تعلم وأتقن ، وهو الموهوب بذاكرة رائعة ، وإرادة صلبة ، عدة لغات أوروبية ،

واستطاع بطلاقة ان يتظاهر بأنه ألماني أو فرنسي أو انجليزي . وكان يتكلم الألمانية ب لهجة بافاريا عاده ، ولكنه ، اذا اراد ، استطاع ان يتكلم كما يتكلم البرليني المولد الاصيل . وكان يهوي ان يلبس بشكل جيد ، وله طرائق رائعة في السلوك ، فكان وحده من بين افراد جماعته ، يجرا على حضور حفلات الرقص الراقية دون خطر الانكشاف .

ولكن ازدرأ غير واضح للناس كان ينمو في نفسه منذ زمان ، وبدون ان يلحظ رفاقه ، كما كان ثمة قنوط وتعب مرهق مميت تقريبا . وكان في طبيعته ضليعا في الرياضيات أكثر منه شاعرا ، فهو لحد الآن لم يعرف الالهام ولا الوجد ، وفي بعض الأحيان كان يشعر بأنه مجنون يبحث عن حل المعضلة في برك الدم الانساني . والعدو الذي يكافح ضده كل يوم لم يستطع ان يوحى له بالاحترام نحوه ، فكان ذلك شبكة كثيفة من الحماقة والخيانة والكذب والبصقات القذرة ، والخدع الحقيرة . وكان قتله لعميل بتكليف من المنظمة قد قضى على آخر رغبة له في العيش . لقد قتله بهدوء اعصاب ، ولكنه ، حين رأى وجهه الميت الزائف ، والهادى الآن ، الوجه الانساني البائس على كل حال ، كف عن احترام نفسه وقضيته . لم يشعر بالندم ، بل مجرد أنه لم يعد يقدر نفسه وصار في عين نفسه اجنبيا مضجرا لا اهمية له ولا شأن . ولكنه كانسان ذي ارادة واحدة لا تتجزأ لم يخرج من المنظمة ، وبقي ظاهريا

كما هو سوى ان شيئا باردا مرهقا لاح في عينيه . ولم يبع لأحد بشيء .

وكان يمتلك خاصية اخرى نادرة . فمثلا يوجد اناس لم يعرفوا قط ما هو الصداق ، كان هو ايضا لا يعرف ما هو الخوف . وحين كان الآخرون يخافون ، كان ينظر اليهم بدون ادانة ، ولكن بدون تعاطف ملحوظ ايضا ، مثلما ينظر الى مرض منتشر الى حد كاف . الا أنه لم يمرض به قط . كان يشفق على رفاقه ، ولا سيما فاسكا كاشيرين ، ولكن شفقتة كانت باردة ، ورسمية تقريبا ولعل بعض القضاة لم يكونوا يخلون منها .

كان فيرنر يدرك أن الاعداء ليس موتا محضا بل شيء آخر ، الا أنه ، في كل الأحوال ، عزم على ان يقابله بهدوء ، كشيء لا يخصه ، أن يقضى ما تبقى من حياته وكان شيئا لم يحدث ولن يحدث . وبهذا فقط استطاع ان يعبر عن ازدرائه الشامخ بالاعداء ، ويحتفظ بحرية النفس الأخيرة الطاغية . وفي المحاكمة - وهذا ما كان سيصدق به ، ربما ، رفاقه الذين يعرفون بسالته الباردة وخيلاءه - لم يفكر في الموت ، بل في الحياة . كان يكمل لعبة شطرنج صعبة بتركيز ذهن ، وانتباه هادى ومستغرق . وكان وهو اللاعب الممتاز في الشطرنج ، قد بدأ هذه اللعبة منذ اليوم الأول لاعتقاله ، واستمر فيها بلا توقف . والحكم عليه بالاعداء شتقا لم يحرك أية قطعة في رقعة الشطرنج المتخييلة .

ولم يوقفه عن اللعب حتى كونه سيضطرب ، كما يبدو ، الى عدم اتمام اللعبة . وافتتح صباح اليوم الأخير الذي تبقى له على الأرض بتصحيح نقلة قام بها يوم أمس لم تكن موفقة تماماً . ضغط يديه المسبيلتين بين ركبتيه ، وجلس طويلاً في هيئة انتظار ، ثم نهض وأخذ يسير مفكراً . كانت له مشية خاصة يحني قليلاً نصفه الأعلى الى الأمام ، ويقرع الأرض بكعبيه بقوة وتلاحق . وكانت خطواته تترك ، على الأرض الجافة ، أثراً عميقاً ملحوظاً . وكان يصفر بهدوء ونفس واحد لحن أغنية إيطالية بسيطة وكان ذلك يساعده على التفكير .

ولكن الأمر سار بشكل سيء هذه المرة . كان يعود الى الخلف عدة مرات ، ويبدأ اللعبة من جديد تقريباً يخامره شعور غير مريح بأنه ارتكب خطأ كبيراً بل وفضلاً . ولم يكن هناك من خطأ ، ولكن الشعور بارتكاب الخطأ ليس فقط لم يزايله ، بل صار يزداد قوة وإزعاجاً . وفجأة لاحت فكرة مفاجئة ومكدرية : اليس خطاه في أنه بلعبه الشطرنج يريد أن يصرف باله عن الاعداد ، ويتقي خوف الموت الذي يزعمونه أن المحكوم لا بد أن يشعر به ؟ - لا ، غير ممكن ! - أجاب ببرود ، وأطبق رقعة الشطرنج في خياله . وحاول بنفس الانتباه المركز الذي كان يلعب به ، أن يرد على فظاعة وضعه ويأسه ، وكأنه يرد على امتحان قاس . أجال بصره في الزنزانة محاولاً أن لا يفوت شيئاً ، وحسب

الساعات التي تبقت له حتى الاعداد ، وتصوّر في ذهنه صورة تقريبية ودقيقة الى حد كاف لعملية الاعداد ، وهز كتفيه .

وأجاب شخصاً متخيلاً بسؤال يراد به النفي : - اذن ؟ وهذا كل شيء . فأين الخوف ؟ ولم يكن هناك خوف بالفعل . وليس ذلك فحسب ، بل كان يتنامى شيء كأنما على الضد منه ، شعور بفرح مبهم ، ولكنه هائل وجسور . والخطأ الذي ما يزال غير مكتشف ، ولم يعد يثير كدراً ولا انزعاجاً كان يشير بصوت عال الى شيء طيب وغير متوقع ، وكأنما قد ظن أن صديقاً عزيزاً قريباً منه قد مات ، واكتشف فجأة أنه حي سليم يضحك .

ومرة أخرى هز فيرنر كتفيه ، وتحسس نبضه . كان قلبه يندق دقات متسارعة ، ولكن بحيوية وانتظام ، وبقوة رنانة ملحوظة . ومرة أخرى تلفت الى الجدران ، والأقفال ، والمقعد المسمّر بالأرض ، مثلما يتلفت سجين مستجد يدخل الزنزانة لأول مرة .

«لاي سبب اشعر بالخفة والفرح و الحرية ؟ الحرية بالذات . أفكر في الاعداد غداً ، كأنه غير موجود ، وانظر الى الجدران ، وكأنما غير موجودة . ولهذا اشعر بحرية ، وكأنني لست في السجن ، بل خرجت لتوي من سجن قضيت فيه عمري كله . فما هذا ؟

أخذت يدها ترتجفان ، وتلك ظاهرة لم يشهداها

فيرنر . ظل فكره يعمل بضراوة متزايدة وكان السنة نارية كانت تلتهب في رأسه ، والنار تريد ان تطلع الى الخارج ، وتنير دائرة واسعة من الأمد البعيد الذي ما يزال ليلاً مظلماً ، وما هي قد طلعت الى الخارج ، وشع البعيد مضاء في دائرة واسعة .

اختفى التعب المبهم الذي كان يضني فيرنر خلال السنتين الأخيرتين ، وانزاحت عن قلبه الأفعى الميتة الباردة الثقيلة ذات العينين المغمضتين ، والفم المطبق اطباقة الموت ، وعاد قبيل الموت الصبا الممراح الجميل . لقد كان ذلك أكبر من الصبا الجميل . فجأة ، وبذلك الشفافية المدهشة التي تهل على الانسان في لحظات نادرة ، وترفعه الى ذرى الكمال السامقة رأى فيرنر الموت والحياة معاً وبهره هذا المشهد الفريد الرائع . وكأنما سار على ذروة جبلية عالية الارتفاع ضيقة كحد السكين ، فرأى الحياة في جانب ، والموت في الجانب الآخر ، مثل بحرين متلائين عميقين رائعين يندمجان في الأفق في قضاء عريض واحد لا حد له .

- أي شيء هذا ! أي مشهد الهي !

قال ببطء ، رافعاً جسمه لا ارادياً ، منتصباً وكأنه في حضرة كائن سام . ومدّ بصره واسعاً في عمق الحياة المترامية ، محطماً الجدران ، والمكان والزمان ببصره الثاقب المستوعب لكل شيء . ولاحت الحياة جديدة . لم يحاول كما من قبل ان

يبلور المرئي بكلمات ، كما لم يخلق مثل هذه الكلمات في اللغة الانسانية التي ما تزال فقيرة شحيحة . واختفى تماماً ذلك الشيء الضئيل القدر الخبيث الذي كان يشير فيه ازدياء الناس ، بل ويبعث فيه أحياناً النفور من رؤية وجه انسان . مثلما تختفي بالنسبة لانسان حلق في منطاد قذارة ووحل الشوارع المزدهمة لبلدة مهجورة ، ويصير القبيح جميلاً .

خطا فيرنر نحو المنضدة بحركة لا ارادية ، واتكا عليها بيده اليمنى . لم يكن ، وهو الأنوف ذو السلطان في طبيعته ، قد اتخذ قط هذا الوضع الأنوف الطليق السلطوي ، ولم يدرك رقبته ، ولا نظر بهذا الشكل ، لأنه لم يكن قط حراً ذا سلطان ، كما هو هنا ، في السجن ، على بعد بضع ساعات عن الاعدام والموت .

وبدا الناس جدداً ، ولاحوا لبصره المنور لطافاً فاتنين بشكل جديد ، ورأى بجلاء ، وهو يحلق فوق الزمان ، كم هي فتية الانسانية التي كانت حتى يوم أمس تصيح في الغابات كالوحش ، وصار حبيباً الى القلب فجأة ما كان يبدو فظيلاً في الناس دنيئاً لا يفتخر ، مثلما هو حبيب الى القلب في الطفل - عدم قدرته على المشي مشية الكبار ، وتمتمته عند تعلم النطق ، وكأنها مخايل العبقرية ، هفواته وأخطاؤه ورضوضه القاسية .

- يا أحبائي ! - واذا بفيرنر يبتسم ابتسامة

قبل أن يضعوا المحكومين في عربات جمعهم
خمسهم في غرفة كبيرة باردة لها سقف معقود ،
تشبه حجرة كتّبة مهجورة أو حجرة استقبال فارغة .
وسمحوا لهم بالتحدث فيما بينهم .

الا أن تانيا كوفالتشوك وحدها استخدمت هذا
السماح رأساً . أما الآخرون فقد تصافحوا بقوة
وصمت ، بأيديهم الباردة كالجليد ، الحارة كالنار ،
وتجمهروا في صمت أيضاً وارتابك وخرج ، وهم
يحاولون أن ينظر أحدهم الى الآخر . الآن ، حين
كانوا سوية ، بدا وكأنهم قد خجلوا مما شعر به
كل واحد منهم في عزله . فكانوا يخافون أن ينظروا
خشية أن يروا ويبدوا ذلك الشيء المعين الجديد
المخجل قليلاً ، الذي كان كل واحد منهم يشعر به ،
ويرتاب بنفسه منه .

ولكنهم نظروا مرة ثم أخرى ، وابتسموا ،
وشعروا فجأة بالآلفة والبساطة ، كما من قبل . لم
يحصل أي تغير وإذا كان قد حصل شيء ، فانه قد
شمل الجميع بالتساوي ، بحيث لم يكن يلحظه احد
بمفرده . كان الجميع يتكلمون ، ويتحركون بشكل
غريب : بحركات حادة منقطعة ، ودفعات ببطء ،
شديد أو بسرعة فائقة ، أحياناً يشهقون بالكلمات ،
ويكررونها عدة مرات ، وأحياناً لا يكملون الجملة

مباغته ، ويفقد رأساً كل مهابة وضعه ، ويعود من
جديد سجيناً في محبس ضيق غير مريح ، وسئماً
بعض الشيء من العين المتلهمة المتفحصة الجاحظة
على سطح الباب . والغريب أنه نسي فجأة ما كان
قد رآه لتوه مجسماً واضحاً ، والأغرب من ذلك أنه لم
يحاول حتى أن يتذكره . مجرد أنه جلس في وضع
أروح ، بدون الجفات المعتاد في وضعية جسمه ،
وأجال بصره في الجدران والقضبان بابتسامة غريبة
واهنة ورقيقة ليست هي ابتسامته . وحصل شيء .
آخر جديد لم يحصل لفيرنر من قبل . طفق يبكي
فجأة . همس :

- يا رفاقي الأعزاء ، - وبكى بمرارة . - يا
رفاقي الأعزاء !

فاية طرق سرية سار لينتقل من شعوره بالحرية
الأنوف اللامتناهية الى هذا الحنان الرقيق الجيئاش ؟
لم يكن يعرف ، ولم يفكر بذلك . فهل كان يشفق
على رفاقه الأعزاء ، أم أن هذه الدموع كانت تنطوي
على شيء آخر غريب أكثر سمواً وعاطفة ؟ لم يكن
يعرف ذلك حتى قلبه الذي بُعث من جديد ،
واخضوضر . كان يبكي ويهمس :

- يا رفاقي الأعزاء ! أنتم ، يا رفاقي الأعزاء !
وما كان لأحد أن يتعرف في هذا الشخص الباكي
بمرارة ، والباسم من خلال الدمع ، على فيرنر البارد
المتعجرف ، المتعب ، الجسور - لا القضاة ، ولا
الرفاق ، ولا هو نفسه .

التي بداوها ، او يعتبرونها مكمله ، اذ لم يكونوا يفتنون الى ذلك .

كان الجميع يقلصون عيونهم ، وينظرون الى الاشياء الاعتيادية بفضول دون ان يتعرفوا عليها ، وكانهم اناس تعودوا على لبس النظارات ، فاذا بهم يخلعونها فجأة . كانوا جميعاً يلتفتون الى الورا ، كثيراً ، وبحركات حادة ، وكان احداً وراءهم يناديهم باستمرار ويظهر شيء . ولكنهم لم يلحظوا هذا ايضاً . كانت آذان موسيا وتانيا كوفالتشوك وخدودهما ملتهبة . وكان سيرغي في بادى الامر شاحباً قليلاً ، ولكن سرعان ما استرد لون وجهه الطبيعي .

ولكن فاسيلي وحده لفت انتباههم . فقد كان ، حتى وهو بينهم ، غير طبيعي ومخيفاً . اضطرب فيرنر ، وقال لموسيا بخفوت ، وقلق رقيق :
- ما هذا ، يا عزيزتي موسيا ؟ معقول انه ، ها ؟ كيف ؟ يجب ان نتقدم منه .

نظر فاسيلي الى فيرنر من بعد ، وكانما لم يعرف انه فيرنر ، وأطرق ببصره .

- فاسيا ، ماذا جرى لشعرك ، ها ؟ ثم ماذا بك ؟ لا يهم ، يا أخ ، لا يهم ، سينتهي كل شيء حالاً . يجب التماسك ، يجب ، يجب .

صمت فاسيلي . وحين تراءى وكأنه لن يقول شيئاً بعد هذا الصمت كله ، جاء رد أصم متأخر

كأنه صادر من مكان سحيق ، كما لو كان من الممكن ان يرد قبر بعد نداءات غديدة :

- نعم ، لا يهمني . سأصمد .
وكرر :
- أصمد .

فرح فيرنر .
- بالضبط ، بالضبط . هذا شيء رائع .
ولكنه واجه نظرة داكنة ، مثقلة ، منطلقة من غور عميق ، وفكر بوحشة خاطفة : «من اي الأعماق ينظر ؟ من ايها يتكلم ؟» . وقال برقة عميقة ، لا يخاطب بها الا القبر :

- فاسيا ، هل أنت تسمع ؟ انا احبك كثيراً .
- وانا ايضاً احبك كثيراً ، - رد لسانه متقلباً بثقل .

وفجأة أمسكت موسيا يد فيرنر ، وقالت ، بتشديد ، مثلما تفعل الممثلة على خشبة المسرح ، معربة عن الدهشة :

- ماذا بك ، يا فيرنر ؟ قلت : احبك ؟ لم تكن تقول لاحد قط : احبك . فلماذا كلك . . . اشراق ورقة ؟ ها ، ماذا ؟

- ماذا ؟
وشد فيرنر على يد موسيا ، وهو يعبر بتشديد يد ايضاً ، عما يعتمل في نفسه :

- نعم ، انا احب كثيراً الآن . لا تقولي

للآخرين ، لا حاجة ، فان ذلك يُخجلني . ولكنني
أحب كثيراً .

والتقت نظراتهما ، وتوهجت ساطعة ، وانطلقا
كل شيء حولهما ، مثلما تنطفئ لحظة في وميض
البرق كل الأنوار الأخرى ، ويلقي اللهب الثقيل
الأكثر اصفراراً ظلاً على الأرض .

قالت موسيا :

- صحيح ، صحيح ، يا فيرنر .

فرد فيرنر :

- صحيح ، صحيح ، يا موسيا .

وكان ثمة شيء مفهوم يؤكد أنه بما لا يدع
مجالاً للشك . وشع فيرنر ثانية تنيره النظرات ،
وخطا نحو سيرغي مسرعاً وخاطبه بتحبب :

- سر يوجا !

ولكن تانيا كوفالتشوك هي التي ردت ، جذبت
سيرغي من كفه بصرامة في غمرة من الفرح ، وهي
تكاد تبكي بافتخار أم .

- اسمع ، يا فيرنر ! أنا أبكي عليه . أنا
أتمزق ، وهو يلعب التمارين الرياضية !

قال فيرنر مبتسماً :

- حسب نظام ميولر ؟

تجهّم سيرغي مرتبكاً :

- لا داعي للضحك ، يا فيرنر . تيقنت
نهائياً . . .

ضحك الجميع . انهم باختلاطهم واحدهم يمدّ

الآخر بالقوة والصلابة ، يصيرون ، بالتدريج ،
كما كانوا من قبل ، ولكنهم لم يكونوا يلحظون حتى
هذا ، ويظنون أنهم بقوا كما هم . وفجأة قطع
فيرنر الضحك ، وقال لسيرغي بجدية بالغة :

- أنت على حق ، يا سر يوجا . على حق تماماً .

فرح غولوفين :

- لا ، أفهمني . بالطبع ، نحن . . .

ولكنهم في هذه اللحظة عرضوا على المحكومين
ركوب العربات . وكانوا من اللطف حتى أنهم سمحوا
لهم بأن يجلسوا فيها اثنين اثنين ، كما يريدون .
وعلى العموم كانوا مؤدبين جداً ، بل ولأقصى حد . ما
بين أن يقال أنهم كانوا يحاولون التعبير عن موقفهم
الانساني ، أو اظهار أن الأمر يجري تلقائياً ، وكأنهم
غير موجودين الا أنهم كانوا شاحبين جداً .

قال فيرنر ، وهو يشير الى فاسيلي الذي كان
يقف جامداً :

- كوني معه ، يا موسيا .

هزت موسيا رأساً :

- فاهمة . وانت ؟

- أنا ؟ تانيا مع سيرغي ، وانت مع

فاسيلي . . . وأنا لوحدي . لا يهم ، أنا أتحمل ،

أنت تعرفين .

وحين خرجوا الى الفناء ، صدم الظلام الرطب

وجوههم وعيونهم بنعومة ولكن بدفء وقوة ، وقطع

أنفاسهم ، ونفذ برقة الى أجسامهم المرتعدة كلياً ،

منظفًا أياها فجأة وكان من الصعب التصديق بأن هذا الشيء المذهل ما هو الا ريح ربيعية ، دافئة ، رطبة . وكان الليل الربيعي الحقيقي المذهل يشي بثلج ذائب ورحابة لا حدود لها ، ورنين قطرات . كانت القطرات السريعة تتساقط بهمة وتتابع ، يلاحق بعضها بعضاً ، وتنقر ايقاع أغنية صادحة . ولكن احداًها تخرج عن الايقاع فجأة ، ويشتبك كل شيء في رقص مرج ، في هرج عجول . وبعد ذلك تسقط قطرة كبيرة صلبة حادة ، ومن جديد يصدر ايقاع أغنية مرحة في جلاء ورنين . وكان وهج شاحب من الأنوار الكهربائية يخيم على المدينة ، فوق سطوح القلعة .

- آه ! - تنفس سيرغي غولوفين نفساً واسعاً ، وحبس نفسه ، وكأنما يتأسف على اطلاق مثل هذا الهواء الطليق اللذيذ من رئتيه .

وتساءل فيرنر :

- هذا الطقس منذ وقت طويل ؟ ربيعي تماماً .
- منذ يوم أمس فقط ، - جاء الجواب اريحيًا مهذبًا . - وكان الصقيع في اكثر الاوقات .

كانت العربات الداكنة تأتي واحدة بعد الأخرى ، وتحمل اثنين ، وتغيب في الظلام ، حيث كان المصباح يتأرجح فوق بوابة القلعة . كان الحراس يحيطون كل عربة مثل اشباح رمادية ، وحدوات افراسهم الحديدية تضرب الأرض برنين ، أو تبقبق في الثلج الرطب .

وحين أنحنى فيرنر يريد أن يندس في العربة قال الدركي بشكل غير محدد :
- هناك شخص آخر ذاهب معك .

اندهش فيرنر :

- الى أين ؟ الى أين يذهب ؟ آه ، نعم !
شخص آخر ؟ من هو ؟

صمت الدركي . وبالفعل كان شيء صغير جامد ولكنه حي يقبع في الظلام في ركن العربة ، ولمعت عين مفتوحة في شعاع المصباح المنحرف . صدم فيرنر ركبتيه بقدمه .

- المعذرة ، يا رفيق .

فلم يرد هذا . وحين تحركت العربة فقط ، سأل فجأة بلغة روسية مهشمة ، وهو يتلعثم :

- من أنت ؟

- فيرنر المحكوم بالشنق لمحاولة اغتيال
نن . وأنت من ؟

- أنا يانسون . ما لازم اشنق .
وسارا ليكونا بعد ساعتين في مواجهة السر العظيم الذي لا يُحْدَس ، والخروج من الحياة الى الموت . وتم التعارف . في مسطحين كانت الحياة والموت تسيران في آن واحد ، وبقيت الحياة حياة حتى النهاية ، حتى اصغر الصغائر المضحكة السخيفة .

- وماذا فعلت ، يا يانسون ؟

- ذبحت مخدومي بالسكين ، وسرقت نقوده .

كان صوت يانسون ينم على أنه يغفو . وجد
فيرنر في الظلام يده المرتخية ، وشدّ عليها .
سحب يانسون يده بنفس الرخاوة .

سأل فيرنر :

- هل انت خائف ؟

- لا أريد .

صمتا . وجد فيرنر يد الاستوني من جديد ،
وضغطها بقوة بين كفيه الجافتين الساخنتين . كانت
تنطرح جامدة كدوحة خشب صغيرة ، ولكن يانسون
لم يحاول أن يسحبها ثانية .

كانت العرببة ضيقة خائقة من الداخل ، فيها
رائحة جوخ الجنود وعفن وروث وجلد جزمات
مبللة . وكان الدركي الشاب الجالس قبالة فيرنر
ينفث عليه مزيجاً حاراً من رائحة البصل والتبغ
الرخيص . ولكن نفحة حادة من الهواء الطازج كانت
تتسلل من الشقوق . ولهذا السبب كان الربيع في
داخل هذا الصندوق الصغير المتحرك محسوساً بقوة
أكثر من خارجه . كانت العرببة تنعطف الى اليمين
تارة والى اليسار تارة أخرى ، وتبدو وكأنها تعود
راجعة تارة ثالثة ، وكان يبدو أحياناً وكأنهم يدورون
ساعات كاملة في مكان واحد . في البداية كان النور
الكهربائي المزرق ينفذ من النوافذ من خلال الستائر
السميكة المسدلة ، وبعد ذلك يظلم الجو فجأة ،
بعد عطفة ، ومن هذا فقط كان من الممكن الحدس
أنهم تحركوا الى شوارع الضاحية البعيدة ، وهم

يقتربون من محطة س للقطار . أحياناً ، عند
الانعطافات الحادة كانت ركبة فيرنر المطوية الحية
ترتطم في لطف بركبة الدركي المطوية الحية مثلها ،
فكان يصعب التصديق بالاعدام .

سأل يانسون فجأة :

- الى أين ذاهبون ؟

كان رأسه يدور قليلاً من الدوران الطويل في
الصندوق المظلم ويشعر برغبة خفيفة بالتقيؤ .
ردّ فيرنر ، وشدّ على يد الاستوني بقوة .
وودّ أن يقول شيئاً ودياً بشكل خاص ، رقيقاً لهذا
الإنسان الناعس المعذب ، الذي صار يحبه كما لم
يحب انساناً في كل حياته .

- عزيزي ! يبدو أنك تجلس في وضع غير
مريح ، اقترب مني .

صمت يانسون قليلاً ، وردّ :

- لا ، شكراً . مرتاح . وانت أيضاً

سيشئقونك ؟

- نعم !

أجاب فيرنر بمرح غير متوقع ، وهو يكاد
يضحك ، وهز ذراعه برهاوة ملحوظة وخفة . وكان
الكلام دار حول نكتة سخيفة تافهة يريد أن يوقعها
بهم أناس لطاف ، ولكنهم هازئون بشكل شنيع .

سأل يانسون :

- عندك زوجة ؟

- لا . وما حاجتي الى الزوجة ! انا وحيد .

- أنا أيضاً وحيد ، وحيدة ، - تحول يانسون الى المؤنث بعد ان فكر غير متأكد من صحة كلامه . بدا راس فيرنر يدور . وفي بعض اللحظات كان يتصور انهم ذاهبون الى الاحتفال بعيد ، وذلك شيء غريب ، ولكن جميع الذين كانوا ذاهبين الى الاعداد كانوا يشعرون بنفس هذا الشعور ، والى جانب الوحشة والفزع كان يسرهم بشكل غامض ذلك الشيء غير الاعتيادي الذي يحدث الآن . كان الواقع يتلذذ بالجنون ، والموت المقرب بالحياة يولد الاشباح . ومن المحتمل جداً ان الاعلام كانت ترفرف على البيوت .

- ها قد وصلنا ! - قال فيرنر بفضول ومرح ، حين توقفت العربة وقفز خارجاً بخفة . الا ان الامر مع يانسون قد طال . تلكا بصمت وفطور شديد ، ولم يرد ان يخرج . يتشبث بالمقبض ، فيفك الدركي اصابعه الخائرة ، وينتزع يده ، ويتشبث بالركن ، بالباب ، بالعجلة العالية ، ولكنه يفكها فوراً ، عندما يبذل الدركي جهداً بسيطاً . حتى ان يانسون الصموت لم يكن يتشبث . بل يلتصق في الأخرى ناعساً بكل شيء ، ويفكه بسهولة ، وبدون جهد . وأخيراً نهض .

لم تكن هناك اعلام . كانت المحطة مظلمة ظلام الليل ، خيالية ، وبلا حياة . وقطارات المسافرين لم تتحرك بعد ، الا ان القطار الذي كان واقفاً على السكة ينتظر هؤلاء بصمت ليس بحاجة الى أضواء ساطعة ،

ولا حركة لاغطة . وفجأة أحس فيرنر بالضجر . لم يحس بالخوف ، ولا بالوحشة ، بل بضجر هائل مضن مرهق يريد ان يفلت منه الى مكان ما ، يستلقي ، يغمض عينيه . بقوة تمطى فيرنر ، وتشاءب تشاؤباً طويلاً . كما تمطى يانسون أيضاً ، وتشاءب بسرعة ولعدة مرات . قال فيرنر متعباً :

- على الأقل لو استعجلوا . صمت يانسون ، وانكمش .

وحين تحرك المحكمون على الرصيف الخالي المطوق بالجنود متجهين الى عربات شاحبة الاضاءة ، وجد فيرنر نفسه جنب سيرغي غولوفين ، فأشار هذا بيده الى ناحية ، وأخذ يتكلم ، فلم تسمع بوضوح غير كلمة «مصباح» ، وغرقت النهاية في تشاؤب طويلة تعب .

سأل فيرنر ، وهو يرد بتشاءب أيضاً :

- ماذا تقول ؟ قال سيرغي :

- المصباح . الشمعة في المصباح تسود . التفت فيرنر . بالفعل كانت الشمعة قد تسخمت كثيراً في المصباح ، كما أسود الزجاج في الأعلى . - نعم ، تسود .

وفجأة فكر : «ماذا يضمنني ان يسود زجاج المصباح ؟ اذا كان . . . » والظاهر ان سيرغي خطرت في ذهنه نفس الفكرة . نظر الى فيرنر نظرة

سريعة ، واستدار . الا ان كليهما لم يعد يتشاب ،
 سار الجميع الى العربات بأنفسهم ، الا يانسون
 فقد اضطروا ان يقودوه من ذراعيه . في البداية
 تثبت قدميه وكأنما سمر نعليه بالواح الرصيف ،
 ثم عكف ركبتيه وتدل على ايدي الدرك ، وقد ارتخت
 رجلاه كما ترتخي رجلا سكران افراط في الشرب ،
 وانخرط بوزا حذائه على الخشب . وظلوا وقتاً طويلاً
 يحشرونه في الباب ، ولكن بدون كلام .
 وفاسيلي كاشيرين ايضاً سار بنفسه ، يقلد
 حركات رفاقه بابهام ، ويفعل كل ما يفعلونه . ولكنه
 حين دخل فسحة العربة ، تراجع ، فامسكه الدركي
 من مرفقه ليسنده . واندهل فاسيلي ، وصاح بصوت
 ثاقب جاذباً يده :
 - آي !
 اندفع فيرنر نحوه :
 - فاسيا ، ماذا بك ؟
 صمت فاسيلي ، وهو يرتعد بشدة .
 ارتبك الدركي بل واغتم فاوضح :
 - كنت اريد ان اساعد حضرتك ، لكنه . . .
 - لنذهب ، يا فاسيا ، سأسندك ، - قال
 فيرنر وهمّ بأن يمسك يده . الا ان فاسيلي جذب
 يده ثانية ، وصاح بصوت اعلى :
 - آي !
 - فاسيا ، هذا انا ، فيرنر .
 - اعرف . لا تمسني . انا لوحدي .

ودخل العربة بنفسه ، وهو ما يزال يرتعد ،
 وجلس في ركن . انحنى فيرنر على موسيا ، وسألها
 بخفوت ، وهو يشير بعينه الى فاسيلي :
 - كيف تريته ؟
 - سييء ، - اجابت موسيا بنفس الخفوت .
 انه ميت الآن . قل لي ، يا فيرنر ، هل يوجد موت
 حقاً ؟
 اجاب فيرنر بجدية واستغراق :
 - لا اعرف ، يا موسيا ، اظن لا يوجد موت .
 - هذا ما كنت اظن . اما هو ؟ تعذبت معه
 في العربة وكأنني كنت راكبة فيها مع ميت .
 - لا ادري ، يا موسيا . ربما للموت وجود ،
 بالنسبة لبعض الناس . في لحظة راهنة ، وبعد ذلك
 لن يكون تماماً . بالنسبة لي ، مثلاً ، كان هناك
 موت . اما الآن فلا وجود له .
 وتوهجت وجنتا موسيا اللتان كان قد علامهما
 بعض الشحوب .
 - كان ، يا فيرنر ؟ كان ؟
 - كان . والآن لا وجود له . كما بالنسبة لك .
 ترددت ضجة في باب العربة ، وقرع كعوب عال ،
 ودخل ميشكا تسيغانوك ، يتنفس بصخب ، ويصق .
 قلب عينيه ، وتوقف متصلياً .
 - لا يوجد مكان هنا ، يا دركي ! - صاح
 بالدركي المنهك الغاضب النظرات . - هبي ، لي
 مكاناً رحباً ، والا لن اذهب ، اشنقني هنا على

المصباح . ويحسبون أنفسهم قدموا لنا عربة ، اولاد
الكلبة . وهل هي عربة حقاً ؟ رمة ، وليست عربة !
الا انه اخنى رأسه فجأة ، ومد عنقه ، وبهذه
الحال سار الى الامام نحو الآخرين . كانت عيناه
السوداوان تبدوان في اطار شعره المنفوش ولحيته
وحشيتين حادثي النظرات عليهما مسحة خفيفة من
الجنون .

وجار :

ها ! يا سادة ! هكذا ، اذن . مرحباً ، يا
سيد .

لكز يد فيرنر ، وجلس قبالة . ثم انحنى
كثيراً ، وغمز بعين واحدة ، ومرر يده على رقبته
بسرعة :

انت ايضاً ؟ ها ؟ ايضاً .

وابتسم فيرنر .

معقول ، الجميع ؟

الجميع .

اهوه ! - وكشّر تسيفانوك عن أسنانه ،

وتحسس الجميع بعينه بسرعة ، وأوقف بصره على

موسيا ويانسون برهة اكثر . وغمز لفيرنر مرة

اخرى :

قضية الوزير ؟

الوزير . وانت ؟

- انا ، يا سيد ، في قضية اخرى . اين نحن
من الوزير ! انا ، يا سيد ، بلطجي . هذا انا .
زاهق ارواح . لا بأس ، يا سيد ، انحشر . فانت
مجبور على أن تنحشر . في العالم الآخر امكنة تكفي
الجميع .

وطوّف في الجميع نظرة خاطفة مرتابة بشكل
وحشي من تحت شعره الأشعث . ولكن الجميع نظروا
اليه بصمت وجدية ، بل وبتعاطف ظاهر . كشر
وربّت على ركبة فيرنر بسرعة وعدة مرات .

- اذن ، يا سيد ! مثلما تقول الأغنية : لا

تندبي ، يا أمي ، يا بسيطة القلب .

- ولماذا تخاطبني يا سيد ، بينما نحن

كلنا . . .

- صحيح ، - وافقه تسيفانوك بارتياح . -

اي سيد أنت ، حين ستشئني الى جانبي ! هذا سيد ،

- وأشار باصبعه الى الدركي . آه ، صاحبكم ذاك لا

اسوا من صاحبنا . - واوما بعينه الى فاسيلي .

- سيد ، يا سيد ، هل أنت خائف ؟

- لا بأس ، - أجاب وهو يدير لسانه

بصعوبة .

- مفهومة لا بأس هذه . ولكن لا تخجل ، لا

داعي للخجل هنا . الكلب وحده يسبل ذيله ويكشر ،

حين يسوقونه للشئق ، ولكنك انسان . ومن هذا

الأخطل ؟ هذا ليس منكم ؟

وراح ينقل عينيه بسرعة ، ويظل يبصق لعباً

حلوا سيالا . كان يانسون قد تكدر منكشاً في ركن بلا حراك ، فحرك قليلاً أذنيته قبعته الفرائية المنسولة ، ولكنه لم يرد بشيء . فرد فيرنر عنه :
- ذبح مخدومه .
فهتف تسيفانوك مندهشاً :

- الله ! ويسمحون لمثل هؤلاء بذبح الناس !
كان تسيفانوك يختلس النظر الى موسيا منذ وقت طويل والآن استدار بسرعة ، وحقق فيها بحدة ومواجهة :

- يا آنسة ، آه ، يا آنسة ! كيف هذا منك !
الخدان موردان ، وتبتسم . انظر ، تبتسم فعلاً ، -
وامسك ركبة فيرنر بأصابعه المتشبثة وكأنها من حديد . - انظر ، انظر !

- احمرّت موسيا ونظرت كذلك بابتسامة مرتبكة قليلاً الى عينيه الحادتين المغبولتين قليلاً المتسائلتين برهق ووحشية .
سكت الجميع .

كانت العجلات تدق دقات قصيرة متتابعة مؤدية عملها ، والعربات الصغيرة تنط على السكة الضيقة ، وتجري جامدة . وعند الاستدارة أو اجتياز معبر كانت القاطرة تصفر في حرق ، فقد كان سائق القطار يخاف أن يسحق أحداً . وكان من الغرابة أن يتصور المرء أن يدخل في شئق الناس هذا القدر الكبير من الاعتناء الانساني المعتاد ، والاجتهاد ، والروح العملية ، وأن أكثر الأفعال

جنوناً في الدنيا يؤدي بهذا الشكل البسيط المعقول . انطلقت عربات كان يجلس فيها أناس ، كما يجلسون في العربات عادة ، ويسافرون كما يسافرون دائماً ، وبعد ذلك سيتوقف القطار وقفة يعلن فيها ، كما يعلن دائماً - «القطار سيتوقف الخمس دقائق» .

وهنا سيحل الموت - الأبدية - السر العظيم .

١٢ - جاؤا بهم

كانت العربات تجري ساعية .
لعدة سنوات متتالية عاش سيرغي غولوفين مع والديه في بيت ريفي على نفس الطريق ، وكان غالباً ما يقل القطار ليلاً ونهاراً ، فكان يعرف الطريق جيداً . ولو أغمض عينيه لأمكن أن يتصور أنه الآن عائد الى بيته ، بعد أن تأخر لدى أصحابه في المدينة ، وهو الآن عائد في القطار الأخير .

- الآن ، عن قريب ، - قال ، بعد أن أغمض ، وحقق في النافذة المظلمة المشبكة ، التي لا تنطق بشيء .

لم يتحرك أحد ، ولم يرد ، سوى أن تسيفانوك بصق لعابه المتحلب بسرعة مرة أو مرتين . كما أن الجندي بدأ يجيل عينيه في العربة ، ويتحسس النوافذ والأبواب .

- برد ، - قال فاسيلي كاشيرين من شفيتين

مشدودتين كأنهما متجمدان بالفعل . فقد نطق هذه الكلمة هكذا : « ب . . . دد » .
اضطربت تانيا كوفلتشوك .
- هاك المنديل ، وشد الرقبة . فهو يدفى كثيراً
- الرقبة ؟ - سال سيرغي مباغتة ، وارعبه السؤال .

ولأن الجميع كانوا يفكرون ايضاً فان احداً لم يسمعه ، وكان لم ينطق احد بشيء ، أو الجميع قالوا نفس الكلمة في آن واحد .
- لا بأس ، يا فاسييا ، شدة ، شدة ، وستشعر بالدفء .

نصحه فيرنر بذلك ، ثم استدار نحو يانسون ، وسأل برقة :

- وانت ، يا عزيزي ، الا تشعر بالبرد ؟
- فيرنر ، ربما يريد أن يدخن . يا رفيق ، ربما تحب أن تدخن ؟ - سألت موسيا . - عندنا سيكائر .

- احب .
فقال فيرنر فرحاً :

- أعطه سيكارة ، يا سيرغي .
ولكن سيرغي كان قد أخرج سيكارة . ونظر الجميع بحب الى أصابع يانسون ، وهي تمسك بالسيكارة ، وعود الثقاب يشتعل ، والدخان الأزرق يخرج من فم يانسون .

قال يانسون :

- أها ، شكراً . لطيف .

قال سيرغي :

- غريبة .

التفت فيرنر :

- ما هو الغريب ؟ ما وجه الغرابة ؟

- هذه ، السيكارة .

كان يمسك بالسيكارة ، سيكارة اعتيادية ، بين اصبعين اعتياديتين حيتين ، وينظر اليها شاحباً ، مندهشاً ، بل وكالمذعور . وتثبتت الأبصار كلها على اللقطة النحيلة التي يتصاعد من أحد طرفيها شريط أزرق حلزوني من دخان تدفعه الأنفاس ناحية الرماد يسود حين يتجمع . وخمدت السيكارة . قالت تانيا :

- خمدت .

- نعم ، خمدت .

- طيب ، الى جهنم ! - قال فيرنر وقد قطب

حاجبيه ، ونظر بقلق الى يانسون التي كانت يده الممسكة بالسيكارة قد استرخت ، كالميتة . وفجأة التفت تسيغانوك ، وانحنى الى فيرنر عن قريب ، وجهاً لوجه ، وهمس وهو يتقلب حدقتيه كالحصان :

- يا سيد ، ماذا لو خلصنا على الحراس . . .

ها ؟ نحاول ؟

- لا داعي ، - رد فيرنر همساً ايضاً . -
تحمل حتى النهاية .
- ولاي شيء ؟ في العراك اللف . ها ؟ اضر به
ويضربني ، ولا أعرف ما تكون النتيجة . وكان
أحداً لم يتقصد القتل .
- لا ، لا داعي ، - قال فيرنر ، والتفت نحو
يانسون قائلاً : - لماذا لا تدخن ، يا عزيزي ؟
وفجأة تغضن وجهه يانسون الرخو بانساً ،
وكان يداً جرّت فجأة الخيط الذي يحرك الغضون ،
فتمايلت كلها . وأخذ يانسون يولول ، وكانما في
نومه ، بلا دموع ، وبصوت جاف مفتعل تقريباً .
- لا أريد التدخين . آه ، آه ، آه ، آه ، آه ! ما
لازم أشنق . آه ، آه ، آه ، آه ، آه !
وتحرك الناس حوله ، وأخذت تانيا كوفالتشوك
تمسد على رذنه ، غزيرة الدمع ، وتعدّل أذنتي
قبعته المحكمة المتدلّيتين .
- يا قلبي ، يا عزيزي ، لا تبكي ، نعم ، يا
قلبي ! يا بؤسي !
نظرت موسيا في ناحية ، التقطت تسيفانوك
نظرتها ، وكشّرت .
- عجيب حضرة المحترم ! يشرب الشاي ،
وكرشه بارد ، - قال بضحكة هزء قصيرة . الا ان
وجهه هو نفسه صار مزرقاً أسود ، كالحديد ،
وكانت أسنانه الصفراء الكبيرة تطقطق .
وفجأة ارتجت العربات ، وأبطات سيرها بشكل

واضح . والجميع ، ما عدا يانسون وكاشيرين
نهضوا قليلاً ، ثم عادوا فجلسوا ثانية .
قال سيرغي :
- المحطة .
وفجأة بدا وكان الهواء كله قد تسرب من
العربة لأن التنفس صار متعسراً جداً . وصار القلب
المتضخم يفتق بالصدر ، حتى وصل الى الحلقوم ،
وخفق بجنون ، صرخ بصوته الممتلئ دماً مذعوراً .
وصارت العيون تنظر الى الأسفل ، الى الأرض
المهتزة ، والأذان تسمع العجلات تدور ببطء
متزايد ، وتنزلق ، وتدور من جديد حتى توقفت
فجأة .
القطار توقف .
في تلك اللحظة تراءى حلم . لم يكن رهيباً
جداً ، بل شفافاً ، غيبوبياً ، كأنه طاري . الرؤيا
نفسها تخلفت في ناحية ، وطيفها وحده كان يتحرك
بلا جسد ، ويتحدث بلا صوت ، ويتعذب بلا
عذاب ! خرجوا من العربة في حلم ، وتجزأوا الى اثنين
اثنين ، وتشمموا الهواء الطازج بشكل خاص ،
الغابي ، الربيعي . قاوم يانسون في الحلم بضيق
وعجز ، وجروه من العربة بصمت .
نزلوا الدرجات .
سأل أحدهم بما يشبه المرح :
- يعني سنمشي على الأقدام ؟

- المكان ليس بعيداً . - أجاب آخر بنفس المرح .
ثم ساروا جمعاً كبيراً أسود صامتاً وسط الغابة ، على طريق سيء ، مبلى ربيعي ناعم . ومن الغابة كان الثلج يجعل الهواء طازجاً قوياً . وكانت القدم تنزلق ، وتغطس في الثلج أحياناً ، فيجد المرء نفسه يتشبث في رفيقه لا رادياً ، وكان الحراس يسرون بصعوبة على الثلج غير الممسوس على الجانبين ، متنفسين بعسر . قال صوت غاضب :
- لم يقدرُوا أن ينظفُوا الطرق . فتعال أنت واغطس في الثلج .
فواضع شخص في شعور بالذنب :
- نظفوه ، يا حضرة المحترم . ولكن الثلج في موسم الذوبان ولا ينفع شيء .
عاد الوعي . ولكن ليس بالكامل ، بل قطعاً مجزأة غريبة . ولكن الذهن اقتنع فجأة بشكل عملي :
« بالفعل ، ما كان في وسعهم أن ينظفوا الطرق » .
فكان كل شيء يخمد من جديد ولا تبقى إلا النشوة وحدها : الرائحة القوية بشكل لا يحتمل للهواء والغابة ، والثلج الذائب ، أو سيصير كل شيء غير اعتيادي . الغابة ، والليل ، والطريق ، وكونهم سيشتقون الآن ، حالاً . وسرى حديث مكتوم هامس متقطع .
- الرابعة قريباً .
- كان يقول : سنطلع في وقت مبكر .

- تتنور الدنيا في الخامسة .
- أها ، في الخامسة . كان من الضروري . . .
في الظلام توقفوا في فرجة في الغابة .
وفي ناحية بعيدة قليلاً ، وراء الأشجار المتباعدة المشفّة ، كما هي في الشتاء ، كان مصباحان صغيران يتحركان في صمت ، حيث كانت تنصب المشانق .
قال سيرغي غولوفين :
- فقدت الكالوش .
سأل فيرنر غير فاهم :
- ماذا ؟
- انخلع الكالوش من رجلي . برد .
- وأين فاسيلي ؟
- لا أعرف . هناك واقف .
كان فاسيلي يقف قائماً بلا حراك .
- وأين موسيا ؟
- أنا هنا . أهذا أنت ، يا فيرنر ؟
وبدأوا يلتفتون بأبصارهم ، متحاشين النظر في الجهة التي كان فيها المصباحان ماضيين في حركتهما بصمت وجلاء رهيب . وإلى اليسار بدت الغابة المعراة وكان أشجارها قد تباعدت ، ولاح شيء مسطح أبيض كبير . كانت ريح رطبة تهب من هناك .
- البحر ، - قال سيرغي غولوفين ، وهو يتشمم ، ويتذوق الهواء بغمه . - البحر هناك .

سأل شخص :

- ماذا تفعل هناك ، يا دكتور ؟ هل ستفرغ بسرعة ؟

- لا شيء ، انغماء بسيطة . افركوا اذنيه بالثلج . اخذ يفيق . يمكن البدء بالتلاوة .

سقط ضوء المصباح المخفي على الورقة واليدين البيضاتين غير المقفرتين . كانت تلك الورقة وهاتان اليدان ترتعشان قليلاً ، كما ارتعش الصوت أيضاً .

- ايها السادة ، ربما لا حاجة الى تلاوة القرار ، فأنتم تعرفونه ؟ ما رأيكم ؟

اجاب فيرنر نيابة عن الجميع :

- لا تقراوه !

انطلقا المصباح بسرعة .

ورفض الجميع الكاهن أيضاً . فتراجع بسرعة شبحه القاتم العريض الى الأعماق في صمت ، واختفى . ولعل الفجر قد بزغ ، فقد صار الثلج يبيض ، واشباح الناس تعتم ، وصارت الغابة متباعدة الأشجار أكثر ، وأشد حزناً ، وأبسط .

- ايها السادة ، يجب السير اثنين اثنين ولكم حق الاختيار في ذلك ، فقط أن تستعجلوا .

أشار فيرنر الى يانسون الذي كان الآن واقفاً على قدميه يسنده دركيان .

- أنا وهو . وأنت ، يا سريوجا ، صاحب فاسيلي . سيراً في المقدمة .

فاستجابت موسيا بصوت صدادح :

- حبي الواسع كالبحر !

- كيف ، يا موسيا ؟

- حبي الواسع كالبحر لا يمكن أن تستوعبه

سواحل الحياة .

- حبي الواسع كالبحر ، - كرر سيرغي

باستغراق مستجيباً لرنة الصوت والكلمات .

- حبي الواسع كالبحر . . . - كرر فيرنر ،

وفجأة أبدى دهشة مرحة . - موسيا ! وأنت ما

تزالين في مستقبل الشباب !

وفجأة تردد همس تسيفانوك الحار اللاهث قرب

أذن فيرنر تماماً :

- سيد ، يا سيد . هذه غابة ؟ أوه ، يا

ربي ، ما هذا ! ما هذه التي هناك ، عند

المصباحين ، مشنقة ؟ ما هذه ، ها ؟

نظر فيرنر . كان تعب ما قبل الموت المضني

يلوح على تسيفانوك .

قالت تانيا كوفالتشوك :

- يجب أن نتوابع . . .

اجاب فيرنر :

- انتظري ، سيتلون قرار الحكم . ولكن أين

يانسون ؟

كان يانسون مستلقياً على الثلج ، وبالقرب منه

كانوا يعالجون شيئاً . وفجأة ناحت رائحة النشادر

القوية .

- طيب .
سألت كوفالتشوك :
- اصحاب موسييا ؟ طيب ، لنبادل
القبلات .
تبادلوا القبلات بسرعة . كان تسيفانوك يقبل
بقوة حتى كانت أسنانه تحس ، وكان يانسون
يقبل بنعومة وفتور من فم نصف مفتوح . وعلى
العموم يبدو وكأنه لم يكن يفهم ماذا يفعل . وحين
ابتعد سيرغي غولوفين وكاشيرين بضع خطوات ،
توقف كاشيرين فجأة ، وقال بصوت عال وبوضوح ،
ولكن بصوت غريب عليه تماماً ، وغير
مألوف .

- وداعاً ، يا رفاق !
هتفوا له :
- وداعاً ، يا رفيق !
وانصرفوا . وساد سكون . وصار المصباحان
وراء الأشجار جامدين . كانوا ينتظرون صياحاً ،
صوتاً ، صخباً ، ولكن السكون هناك ، كما هو
هنا ، والمصباحان يرسلان ضوءاً أصفر .
- آه ، يا الهي !

تخرج صوت في وحشية . التفتوا ، كان ذلك
تسيفانوك يتلو في عذاب ساعة الموت . - انهم
يشنقون .
أداروا وجوههم ، وساد السكون من جديد .
تلو تسيفانوك يختطف الهواء بيديه .

- كيف هذا ! ها ، يا سادة ؟ أنا بمفردي ؟
مع الجماعة أرح . يا سادة ! ما هذا ؟
قبض على يد فيرنر بأصابع تعصر وتنفرج
وكانها تلعب :
- يا سيد ، يا عزيزي ، هل لو ترافقني انت .
ها ؟ تكرّم عليّ ، ولا ترفض !
أجاب فيرنر بعذاب :
- لا أقدر ، يا عزيزي . أنا معه .
- آه ، يا ربي ! يعني بمفردي . كيف هذا ؟
يا الهي ؟

تقدمت موسييا الى الأمام ، وقالت بخفوت :
- تعال معي .
تراجع تسيفانوك ، حمله عليها .
- معك ؟
- نعم .
- أنت ! الصغيرة ! ولا تخافين ؟ والا وحدي
أحسن . الأمر بسيط !
- لا ، أنا لا أخاف .
كشّر تسيفانوك .

- يا لخفتك ! تعرفين أنني بلطجي . الا
تستنكفين ؟ والا الأحسن بدون هذا . لن أزعـل
منك .
صمتت موسييا ، وبدأ وجهها في ضوء الفجر
الواهن شاحباً ومبهماً . وبعد ذلك وبشكل مفاجئ
تقدمت من تسيفانوك بسرعة ، وألقت ذراعيها على

رقيبته ، وقبلته من شفتيه بقوة . أمسك كتفيها بأصابعه ، وأبعدها عنه ، واهتز ، وقبلها من شفتيها وأنفها وعينيها متمطقا بصوت عال .
- لنذهب .

وفجأة ترنح الدرکسي القريب منهما ، وفك يديه ، واسقط البندقية . ولكنه لم ينحن ليرفعها ، ووقف جامداً لبرهة واستدار استدارة حادة ، وسار في الغابة كالاعمى على الثلج النقي .

- الى أين ؟ - همس الدرکسي الآخر فزعاً .
- قف !

ولكن الدرکسي ظل يسير بصمت وصعوبة على الثلج العميق ، ولعلـه ارتطم بشيء ما ، فلوّح بذراعيه وسقط على وجهه في الأسفل . وبقي مطروحاً هناك .

- أرفع البندقية ، يا صوفة ! والا فسأرفعها !
أنا ! - قال تسيغانوك بتهديد . - أنت لا تعرف أصول الخدمة !

مرة أخرى أخذ المصباحان بانشغال . جاء دور فيرنر ويانسون .

قال تسيغانوك بصوت عال :

- وداعاً ، يا سيد . سنتصاحب في العالم الآخر . اذا رأيتني لا تدير وجهك عني . واجلب الي الماء واسقني . سأشعر بالحر هناك .

- وداعاً .
قال يانسون في ارتغاء .

- لا أريد .

ولكن فيرنر أخذه من يده ، وسار الاستوفي بضع خطوات بنفسه ، وبعد ذلك رأى الآخرون أنه توقف ووقع في الثلج . انحنوا عليه ، ورفعوه ، وحملوه ، وكان يلبط بوهن على الأيدي التي حملته . فلماذا لم يصرخ ؟ من المحتمل أنه نسي أن له صوتاً .

ومرة أخرى توقف المصباحان ساكنين بضوئهما الأصفر .

وقالت تانيا كوفالتشوك بحزن :

- اذن ، ساكون لوحدي ، يا عزيزتي موسيا .
عشنا سوياً ، والآن . . .

- تانيا ، يا عزيزتي . . .

ولكن تسيغانوك تصرف بحمية . أمسك موسيا من يدها ، وكأنها يخاف أن تنتزع منه ، وأخذ يتحدث بسرعة ولهجة عملية :

- آه ، يا مولائي ! في امكانك ان تدخل الى

هناك لوحداك فانت روح نقيه ، يمكنك ان تدخل الى حيث تشائين . فاهمة ؟ أما أنا فلا أقدر .

فأنا بلطجي . . . فاهمة ؟ - لا أستطيع أن أدخل

لوحدي . سيقولون : الى أين تذهب بأنفك ، يا

زاهق أرواح الناس ؟ كما كنت أسرق الخيول ،

والله العظيم ! ولكن اذا رحلت معها ، فكأنني أرحل

بصحبة طفل بري . ألم تفهمي ؟

- فهت . طيب ، اذهبا . دعيني اقبلك مرة
 اخرى ، يا موسيا .
 - قبّلا ، قبّلا ! - قال تسيغانوك للمراتين
 مشجعا . - هذا امر طبيعي بينكم . يجب أن
 تتوادعا بشكل جيد .
 سارت موسيا وتسيغانوك . سارت موسيا
 باحتراس ، تتزلق ، وتمسك تنورتها على عادتتها .
 وكان الرجل يقودها الى الموت ، ممسكا يدها بقوة ،
 متوجسا متحسسا الطريق بقدمه .
 توقف المصباحان . بقيت تانيا كوفالتشوك في
 محيط من السكون والفراغ . وصمت الدركيون
 وجميعهم رماديون في النور الخافت العديم اللون
 لنهار طالع .
 - وحدي انا ، - قالت تانيا فجأة ، وزفرت .
 - سيرغي مات ، وفيرنر مات ، وفاسيا . وانا
 وحدي . يا جنود ، يا جنود ، انا وحدي ،
 وحدي . . .
 وطلعت الشمس فوق البحر .
 وضعوا الجثث في التوابيت - ثم حملوها . وفي
 نفس الطريق التي سلكوها الى هنا ، وهم احياء ،
 عادت جثثهم ممطوطة الرقاب ، جاحظة العيون
 بجثثهم ، وقد طلع اللسان المزرق مثل زهرة مريعة
 طلسمية ، من بين الشفتين المبقعتين بزبد دموي .
 وبقي الثلج الربيعي ناعما فواحا ، كما كان

الهواء الربيعي بقي طازجا قويا . ولاح اسود فسي
 الثلج الكالوش المحكوك الذي فقده سيرغي .
 وبهذا الشكل حيا الناس الشمس الطالعة .

تعليقات

ياكوب موليشوت (١٨٢٢-١٨٩٣) - فيزيولوجي وفيلسوف ألماني وممثل المادية المبتدلة . في كتابه «معرفة الغذاء» يؤكد أن جميع العمليات النفسية والروحية لها طبيعة فيزيولوجية ، ولها علاقة في طبيعة الغذاء ، على الأخص . - ص ٧

أريول - المدينة التي ولد فيها أندرييف وقضى طفولته وصباه ، تقع في الجزء الأوسط من روسيا . - ص ٧

«نيديليا» («الأسبوع») - جريدة أسبوعية أدبية سياسية كانت تصدر في بطرسبورغ في أعوام ١٨٦٦-١٩٠١ . وفي أعوام ١٨٨٠-١٨٩٠ كانت جريدة ذات اتجاه ليبرالي . - ص ٩

«سيفرني فيستنيك» - مجلة شهرية سياسية علمية اجتماعية سياسية ذات اتجاه ديمقراطي ، كانت تصدر في بطرسبورغ في أعوام ١٨٨٥-١٨٩٨ . - ص ٩

«نيفا» - مجلة روسية أسبوعية مصورة للقراءة العائلية كانت تصدر في بطرسبورغ في أعوام ١٨٧٠-١٩١٨ . - ص ٩

«كورير» - جريدة يومية ذات اتجاه ديمقراطي . ١ . ١ . ١ . اسماعيلوف - (١٨٧٣-١٩٢١) كاتب وناقد روسي . - ص ١٠

ليونيد نيكولايفيتش أندرييف
دميتري بيسارييف (١٨٤٠-١٨٦٨) - كاتب اجتماعي بارز وناقد أدبي وفيلسوف مادي وديموقراطي ثوري .

«بم الأمن» (١٨٨٢-١٨٨٤) من مؤلفات الكاتب الروسي العظيم ل . تولستوي . وفيه يفضح زيف الأسس التي أقيم عليها وجود الفئات العليا من المجتمع ، ويعرب عن فكرة عبث الحياة عموماً ، ويحتج ضد الدولة والكنيسة الرسمية . - ص ٧

أدوار هرتمان (١٨٤٢-١٩٠٦) - فيلسوف مثالي ألماني . فصح بعد شوبنهاور مفهوم السلبية في علم الاخلاق . وأرثر شوبنهاور - (١٧٨٨-١٨٦٠) فيلسوف مادي ألماني كان يقف موقفاً سلبياً حاداً من الثورة والشعب والديموقراطية . وفلسفة شوبنهاور قدرية تدعو الى السلبية ، وتنكر المعرفة العلمية والتقدم التاريخي . - ص ٧

١٩٠١) وكانت تصدر بمشاركـة قوية من مكسيم غوركي .

دير ترويتسكو-سيرغييفسكيـا - دير قديم للرجال تأسس في أواسط القرن الرابعـ عشر على بعد ٧١ كيلومتراً شمال موسكو ، وكان يحج إليه المسيحيون المؤمنون في روسيا ما قبل الثورة . - ص ٩٧

القديس فلاديمير - هو فلاديمير الأول (توفي عام ١٠١٥) وكان أميراً على كييف منذ عام ٩٨٠ . وفي عام ٩٨٨-٩٨٩ أدخل المسيحية ديناً للدولة (حتى القرن العاشر كان سكان الامارات الروسية القديمة وثنيين) . - ص ١٠٤

حياة فاسيلي فيفيسكي

كتبت هذه القصة عام ١٩٠٢ ، ونشرت لأول مرة في مجموعة السلسلة التي تصدرها مجموعة رفاقية للنشر بعنوان «زنانيا» («المعرفة») (الكتاب الأول لعام ١٩٠٤) مهداة الى المغني الروسي الرائع فيدور شالابين . وكانت هذه الرفاقية للنشر برئاسة م . غوركي الذي جمع حوله الكتاب الديموقراطيين الواقعيين . وقد أصدرت هذه الرفاقية منذ عام ١٩٠١ مجموعات لأعمال احسن كتاب ذلك العهد .

وكان لمكسيم غوركي تقييم رفيع لهذه القصة . في عيد العنصرة كانت البيوت ، ولا سيما الريفية ، تزين بالزهور وانصان شجرة البتولا .

الفوز الكبير

نشرت لأول مرة في جريدة «كورير» بتاريخ ١٤ كانون الأول ١٨٩٩ بعنوان ساخر هو «انشودة رعوية» .

قضية دريفوس التي حاكمتها المحكمة العسكرية الفرنسية الرجعية عام ١٨٩٤ ضد ضابط الأركان اليهودي أ . دريفوس متهمة ايـذاء بالتجسس لحساب ألمانيا . - ص ٢٠

الهلاك الصغير

نشرت لأول مرة في جريدة «كورير» بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٨٩٩ مهداة الى أ . م . فيلفورسكيـا زوجة الكاتب .

على النهر

نشرت لأول مرة في «مجلة الجميع» في ايار ١٩٠٠ . وقد أعجب ليف تولستوي بهذه القصة كثيراً ما عدا نهايتها .

قرية سترلنسكيـا - كان «ستريليتسكايا» (من لفظة تعني «الرامة») يطلق على قرى كانت مقاماً خاصاً بالقوات الدائمة تجند من سكان الريف والمدن الأحرار . ويحتفظ سكان هذه القرى بتقاليد وأعراف أسلافهم المحبين للحرية . - ص ٥٧

كان فيما مضى

نشرت لأول مرة في مجلة «جيزن» («الحياة») الأدبية العلمية السياسية ذات الاتجاه الديموقراطي (آذار

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا
تفضلتم وأبدىتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة
الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، وأعربتم لها
عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧ .
موسكو ، الاتحاد السوفييتي

تصدر دار «رادوغا» في عام ١٩٨٩ رواية جنكيز
آيتماتوف الجديدة بعنوان «ويطول اليوم اكثر من
قرن» .

تتحدث الرواية عن المصير العصيب والعسير
لعامل سكك الحديد يديغي جح الدين المسمى بيديغي
البوراني الذي اصبحت حياته ماثرة يومية اخلاقية .
لقد عبر الكاتب في شخصية هذا البطل عن تصوره
للكرامة الانسانية .

ويوفق جنكيز ايتيماتوف في تضمين روايته
بالحكايات الشعبية والاساطير . والى جانب هذه
الحكايات والاساطير يبتدع الكاتب حكاية عن كوكب
«صدر الغابة» .

منح الكاتب على هذه الرواية جائزة الدولة
للالاتحاد السوفييتي .